المشرق

بيروت

آب وايلول ١٩٣٠

في النعمة : ١

ضرورة النعمة

بدوني لا تقدرون ان تصنعوا شيئاً

(يوحنا ١٥ : ٥)

بقلم حضرة الاب ا . س. سرجي الدومنيكي

من عقائد ايماننا القويم ان الباري عزّ وجل خلقنا ، طبقاً لحكمته الازلية ، لاجل غايةٍ ترتّخاها ؛ غايةٍ ليست مجازية لطبيعتنا البشرية ، بل متفوّقةٍ على مطّلباتها وقواها . وذلك انه تعالى قد اختارنا للحياة الدائمة المتوقفة على الاشتراك في حياته عينها . وحياة الله قائمة في معرفته لذاته ومحبته اياها . فنحن اذن مدعوّون لنرى الله كما يرى ذاته ، ونملكه كما يملك ذاته ، ونحبه كما يحبّ ذاته . تلك هي الحياة الخالدة ، تلك هي الدعوة التي نحن مصطفَون لها ، تلك هي الغاية التي يجب علينا ان نتوق اليها . هذا ما قد اعدّ لنا في الديار الابدية ، من فضل الله وفيض كرمه.

لكن هل يا ترى من تأثير لهذه الدعوة في عيشتنا الحاضرة ، في هذه العاجلة ؟ هل ان الله تعالى ، الذي اجتبانا واعدّنا لنيل هذا الاجر ، يمنحنا منذ الآن القوى الكافية للحصول عليه ، او انه يجتزئ بان يطلب منا حسن التصرّف بضميرنا وحريتنا ؟ القصارى ، هل في مقدرتنا ان نصل الى غايتنا القصوى الفائقة الطبيعة بقوانا الطبيعية وحدها ، او انه لا مندوحة لنا من التذرّع بوسائل من جنس هذه الغاية وملائمة لها لنفوز بهذا المرام ؟

هذه هي المسألة التي يتحتم على كل مسيحي ان يعرفها حق المعرفة ، ويوقن بحقيقتها ، لما لها من الخطورة في حياته واعمالها الادبية والدينية . فلننظر اذن فيها ، مستنيرين بنبراس تعاليم الكنيسة المقدسة ، المعزّزة بآيات الكتاب الكريم ، وحجج العقل السليم .

***

اذا اردنا الوقوف على حقيقة تعليم الكنيسة ، في صدد هذه العقيدة ، فلنفتح التأريخ الكنسي ، نعلم منه انه في اوائل القرن الخامس ، كانت بيعة الله باسرها في حالة قلق واضطراب غير مألوفة . فقد كان احبارها ، حرّاس قطيع اسرائيل ، ملتئمين في مجمع من تلك المجامع المقدسة التي جاءت ، في كل عصر ، وسيلة فعّالة لاثبات الحقّ والدفاع عن حرية الدين . وكان ملافنتها العظام ، وفي مقدمتهم الكوكبان النيّران : هيرونيموس واوغسطينوس ، قد تقلدوا اقلامهم للذبّ عن حياض العقيدة المستقيمة ، بجديد الغيرة والحماسة . ممّا نجم عنه ان ذاك الاضطراب كان بالحقيقة دليلاً على وجود اخطار محيقة . فما يا ترى كان قد جرى ؟ ان زمن الاضطهادات الدموية كان ، والحمد لله ، قد زال . يوليانوس الجاحد كان قد مات وقبر ، واضمحلت معه اضاليله وقساوته . كان قد مضى نحو قرن على موت آريوس المضلّ الكبير . واما بدعته ، وان لم تكن قد تلاشت تمام التلاشي ، الا انها لم تعد بعدُ ذات خطر جسيم على الكنيسة . فما يا ترى اذن كان قد جرى ؟ اجل ان اريوس كان قد زال من الوجود ، الّا ان اريوساً آخر ، اي هرطوقياً ، اسمه بيلاجيوس كان قد نهض ناشراً ضلالاً جديداً . اريوس انكر الوهية المسيح ، وبيلاجيوس حاول ابطال

نتائج التجسد الالهي . فانه كان يجحد ضرورة نفوذ الله ، بمساعدة علوية ، في امر خلاص البشر ، وذلك ، حسب مدّعاه ، لان الانسان مستطيع ، بمجرّد قواه الطبيعية ، التوصل الى امتلاك الله والتمتع به . ففي هذا الزعم الضلالي رأت الكنيسة الخطر المحدق ؛ فاوجست خيفةً ، فقامت من ثم لمناهضة هذه الهرطقة الحديثة ، فرشقتها في مجمعها بسهام الحروم النافذة ؛ معلنةً ، بسلطتها القوية الخالدة ، تعاليم الحقيقة الكاثوليكية الراسخة . وما دافعت عن صوابه ، عصرَ ذاك ، لم تكن لتنفكّ عن المناضلة عنه في كل زمان . ولذا ، فلما قام ، بعد عشرة قرون ، راهب آخر متمرّد ، اعني به لوتيروس ، باثاً بين القوم سمَّ اضاليله ، في صدد هذه العقائد والاسرار عينها ، لم يكن منها الّا ان تذكرت تعاليمها التي اثبتتها في القرون السالفة ، فضربت بسيف الحرم لوتيروس واتباعه ، مؤيدةً ضرورة مساعدة الله للانسان بقوة فائقة الطبيعة ، تمكنه من الوصول الى غايته السامية .

هذه خلاصة تعاليم الكنيسة الكاثوليكية في ذا الشأن . وهي تعلّم اليوم ما علّمته بالامس ، وما سوف تعلّمه في مستقبل الايام . وان كان في هذا العصر يقومُ في وجهها اضاليل كما قام في السابق ، فانها لا تُخيفها كما لم تخفها اباطيل الازمان القديمة . وطبقاً لهذا التعليم المقدس ، يجب ان نوقن بان الانسان مسيّر الى غايته الفائقة ، ليس بعون خارجي وحسب ، بل بمبدأ داخلي ملازم لحياة سامية . وهذا المبدأ ما يدعوه اللاهوت : « النعمة المقدسة » . اي الهبة الممنوحة للانسان قصد تقديسه .

* * *

يعزّز هذا التعليم مختلف الآيات الواردة في الكتاب المقدس . فقد قال الرب له المجد : « بدوني لا تقدرون ان تعملوا شيئاً . » وقال مار يوحنا الرسول في مفتتح انجيله : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله كان الكلمة . كان هو النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آتٍ الى العالم . الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله . اما الذين قبلوه ، فاعطاهم سلطاناً ان يكونوا ابناء الله . » وكتب في رسالته الى المسيحيين الاولين : « انظروا اية محبة منحنا

الآب ، حتى ندعى ونكون ابناء الله . » وقال مار بولس الرسول في رسالته الى اهل رومة : « وجميع الذين يقتادون بروح الله هم ابناء الله . » وعليه فبالنعمة نضحي اولادًا لله ؛ مما ينجم عنه ان النعمة قوة تشرك الانسان في طبيعة الله . وهذه النتيجة تظهر باجلى بيان اذا دققنا الفحص في سر التبنّي الالهي .

كيف يا ترى نحن ابناء الله ؟ مما لا شك فيه اننا لسنا ابناء الله بالولادة الازلية . لان مار بولس الرسول يسأل في رسالته الى العبريين قائلًا : « لمن من الملائكة قال قط : انت ابني وانا اليوم ولدتك . وايضاً : انا اكون له اباً وهو يكون لي ابناً ؟ » فللّه لم يكن ، مدى الازلية ، الا ابن واحد ، اي ذاك الذي قال عنه مار يوحنا الحبيب : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله كان الكلمة . » لان حصول الله على ابن بهذا المعنى يستلزم اقامته لذاته مثيلًا معادلًا ، وانشاءه فيه جميع الخواص الطبيعية ، والحقوق الناجمة عنها . فلو كنا ابناء الله من هذا القبيل ، لصرنا آلهةً بالطبيعة ، وبطلنا ان نكون خلائق ذليلة . فاذن نحن لسنا ابناء الله بالطبيعة .

على ان اسم الابوّة وحقيقتها لا يقفان عند هذا الحدّ . ولذا فعلينا ان نبحث في النظام البشري ، عن مثال للسُنن الالهية .

من ذات طبع الابوّة ، في الحالة العائلية ، ان تتطلب وجودَ البنوّة الفعلية ، بموجب الشروط الطبيعية . الّا ان لهذه القاعدة شذوذًا ، كما لكل قاعدة . اذ قد يحدث ان شجرة الرجل لا تنالها بركة الخصب ، لاصابتها بالعقم ؛ فيتعذّر عليه اذ ذاك ان يحصل على ثمرة ، يليق به ان يقول لها : « انت ابني وانا اليوم ولدتك . » وهي آفة من اكبر آفات الحياة البشرية التي من ذات طبعها النموّ والتكاثر بالتوالد . فاذا اراد الرجل ، وسالته هذه البؤسى ، ان يعمد الى التسلية وتخفيف وطأة هذه البلية ، بالحصول على ذرية نسبية ، فانه يختار له فردًا من اولاد الناس ، فيقيمه لنفسه ابناً بالذخيرة ، يحبه كما لو كان ابنه بالطبيعة ، فيشركه في حياته ، ويتخيل فيه دمه وصورته وعلائمه ؛ ويطيب له ان يدعوه هذا الابن : « يا اباه » . معنى هذا كله انه ، بمعزل عن البنوّة

الطبيعية ، هناك بنوة المحبة ؛ تلك البنوة الناجمة عما يسميه الناس « التبني ». وما التبني ، في عين الانسان ، سوى الاستعاضة عن البنوة بالطبيعة.

هذا ما يصنعه البشر ، وهذا ما يعمله الله ايضاً ؛ لكن لا من باب الاحتياج ، لكونه حاصلاً على ابن مساو له في كل شيء ؛ بل من باب المحبة ، وغزارة الجودة ، وشدة الرغبة في اشراك الخليقة في خيراته . ولذا القى نظرة الى بشريتنا ، فرأى انه في امكانه ان يقربها منه « بالتبني » وتحقق انه بهذا العمل يقدر ان يوجد اخوة لابنه الازلي . واذ كان قد قال في بدء الخلق : « لنصنعن الانسان على صورتنا ومثالنا » ، قال حينئذ : « لننشئن لنا ابناء ، ولا تكن صنعتنا الخلقة وحسب ، بل لنضف اليها خاصته الابوة . » فعندها تحركت احشاؤه تعالى ، فاضحى لنا اباً . وهذا هو السر الذي كشف لنا عنه مار يوحنا الحبيب بقوله : « والذين قبلوه اعطاهم سلطاناً ان يكونوا ابناء الله . »

فاذا تقرر هذا ، امكننا الاستنتاج بان النعمة هي اشتراك في الطبيعة الالهية ، اجل ان ذلك غير ظاهر جلياً في « التبني البشري » لان المتبني لا يهب لمن يريد تبنيه الا حقاً خارجياً صرفاً . ويبقى الشخص غريباً عن الاشتراك في الطبيعة . يتمتع المتبني مُتبنّاه بغناه ، وينزله منزلة خاصة في عائلته وبين احبائه ، الا انه يقف عند هذا الحد ، لملازمة النقصان طبيعة الانسان . اما الله فطبيعته خلوٌ من كل نقص وشائبة.

نرى الانسان مالكاً اموالاً خارجة عنه . لانه عاجز عن القيام باعالة ذاته من داخل ، فيفتقر الى الاستعارة من الخلائق الخارجية عنه قوة ليست بموجودة في داخله . اما الله فهو على خلاف ذلك ، لكونه ينبوع حياته عينها ، والميراث الذي يشركنا فيه هو نفسه التي يتفضل علينا بمعرفتها ومحبتها . ولهذا وجب في هذا التبني ، ان تضحي النعمة — تلك العطية الفائقة الطبيعة والمجانية — خيرنا وملكنا ، والقوة التي بها يمكننا ان نبلغ اليه تعالى.

ومن شك في ذلك ، فليعمد الى الكتاب المقدس ، يسطع له منه النور الباهر . فقد ورد في رسالة بولس الرسول الى اهل رومة ما هذا نصه :

«والروح عينه يشهد لارواحنا باننا ابناء الله. وحيث نحن ابناء فنحن ورثة، ورثة الله، ووارثون مع يسوع المسيح.» فالبنوّة، حسب تعليم الرسول، شيء سابق، والوراثة شيء لاحق. التبني مبدأ، والميراث نتيجة.

وهذا ما يشهد به الروح عينه المفاض فينا. وجاء ايضاً في رسالة الرسول الى العبريين: «اننا مشتركون في المسيح ما دمنا حافظين بداءة القيام فيه ثابتة الى المنتهى.» ويؤيد هذا الكلام قول مار يوحنا الرسول: «كل من هو مولود من الله لا يعمل خطيئة، لان زرعه ثابت فيه، ولا يستطيع ان يخطأ لانه قد ولد من الله.» معنى ذلك ان ابن الله فينا كالثمرة الكائنة في البذر الذي يحويها.

تلك كلها حقائق تدلنا على ما اقتضى لله من الاعمال الحبية، وما اجترحه من العجائب، لجعلنا مسيحيين، اي بشراً معدّين للتمتع بروئيته. نعم انه منحنا ذاته في سرّ التجسد؛ نعم انه اعطانا نفسه في سرّ القربان؛ الا انه لم يكتفِ بذلك، بل اراد ان يكلل تلك الافعال، بانعامه علينا بقوة الاشتراك معه في المجد والسعادة. ولذا فعند تفرّسنا في النفوس الحاصلة على النعمة، يجدر بنا ان نهتف مع النبي اشعيا. قائلين: «قلت انكم آلهة وابناء العلي جميعاً.»

اجل! نحن آلهة ليس لتوقعنا امتلاك الله يوماً فقط؛ ليس لاننا صورته ومثاله لا غير؛ ليس لاستطاعتنا البلوغ اليه بعقلنا وقلبنا وحسب، بل بنوع خاصّ لاننا مدعوون لمشاركته في طبيعته مشاركة عجيبة. ولهذا، فبعد ان بسط الرسول المجتبى، في رسالته الى اهل افسس، مشهد الحب الالهي، في تدابير خلاصنا، قال: «انتم الآن نور بالرب، فاسلكوا كابناء النور.»

* * *

فضلاً عن آيات الكتاب العزيز، تُؤيّد هذه الحقيقة بنور العقل السليم؛ لانه يكشف لنا عن ضرورة النعمة، ودخولها في منهاج تدابير العناية الالهية في العالم.

من شأن العقل ان يدلّنا على ان الله بخلقه المبروءات عيّن لها غاية، وجعل

لهذه الغاية وسائل مناسبة في الحياة . وهي سنة مطردة هذا الاطراد ، حتى انه يمكن ان يقال ان الغاية تُعرَف من طبيعة الخليقة . فاذ اراد الله ان يأتمنا الى غايتنا ، انشأ فينا حياةً ملائمة لها . واذ كانت غايتنا رؤيته والتمتع به في الابدية ، وجب ان تكون حياتنا الحاضرة موافقة لحياتنا في الآخرة . ولكي نفهم هذه الحقيقة يتحتم علينا ان نرقى في سلّم الخلائق ، باحثين عن السنن القائم عليها مدار الحياة.

الكائنات ليست على حدّ سواء من حيث التنعم بالحياة . لانها تتدرج في هذه السلّم من الذرّة الدقيقة الى الله ، العظمة بالذات . وبين هذه الدرجات المتفاوتة في الكمال ، تستضيء الموجودات بانوار الالوهية مستمدّة من ينبوعها ماء الحياة غير الناضب . ففي اسفل السلّم نلاحظ المادة وما يجاورها من المواليد المعدنية حيث تكاد تظهر دلائل الحياة . وفوق ذلك النبات ، فالحيوان ، فالانسان ، فالملاك . وفي قمة السلّم نرى الله مستوياً ، سائدًا على كل هذه المبروءات الصادرة عنه بالخلقة . ومما لا ريب فيه ولا مندوحة عنه ان يقابل كل درجة من هذه الدرجات ، درجات الحياة ، عملٌ مناسبٌ لها وخاص بها ، يعيّن حدود الوجود لها ، ويميّزها عن الخلائق القريبة منها . الكائن الخالي من الاعضاء يجلب اليه العناصر التي منها يتجمّع قوامه ؛ النبات يحيا بالحياة النباتية ؛ الحيوان بالحياة الحسية . اما الانسان والملاك والله عينه فيحيون بالحياة العقلية . القصارى كل عمل من اعمال الكائنات يجري جريـاً مناسباً لطبائعها . وعليه ، فاذ كان الانسان ليس على درجة الملاك من الحياة والكمال العقلي ، وكان الله سبحانه يفوقهما بنوع غير متناهٍ ، نجم ان طريقة التعقّل في الانسان ليست كطريقة التعقّل في الملاك ، وتلك الطريقة عينها في الملاك مختلفة عمّا هي عليه في الله.

الانسان والملاك والله يدركون الحقيقة ، لكن الانسان يحيط بها كانسان ، والملاك كملاك ، والله كاله ؛ اي ان الاولين يدركانهـا بنوع محدود ، والله بنوع غير موصوف ولا محدود. وهذا الفرق في طريقة المعرفة يدلّنا على الكمال المختلف في الحياة التي يتمتعون بها . فاذا كان الامر كذلك ، فما هي الخاصة

الفارقة اللائقة بالله في اعماله ، وماذا يميّزها عن كل عمل ادناها .

الله غير متناهٍ بالطبيعة ، فعمله اذن غير متناه كطبيعته ، طبقاً للمبدأ القائل : تجري الصنائع مجرى الطبائع . وبما ان عمل كل كائن ليس سوى نتيجة قوته الطبيعية المنتهية الى موضوع مناسب له ، وجب ان يكون موضوع عمل الله غير متناهٍ كطبيعته وعمله . فاذن معرفة الله ذاته كما هي في طبيعتها تنثنى الخاصة الفارقة لاعماله ، جلّ شأنه .

اجل ان الانسان يمكنه ان يعرف الله . لكنه يدركه باشعة الخلائق اللامعة في ظلمات قاتمة . الملاك يعرف الله ، لكن بالنور المتناهي الذي منحه اياه الباري نفسه كخاصة فارقة لحياته . فالله وحده يعرف ذاته كما هي ؛ وليس من خليقة في وسعها ان تبلغ الى الحدّ غير المتناهي لهذا الموضوع الوحيد .

فانت ترى ان العقل البشري يثبت لنا هذه الحقيقة ، وبذلك يؤيد تعاليم الكنيسة ، ويشهد لقول السيد المسيح نفسه : « لا احد يعرف الابن الا الآب ولا احد يعرف الآب الا الابن . » ومن ثم قد شجبت الكنيسة الضلال المدّعي بان الخليقة العاقلة قادرة بذاتها ان تبلغ الى الله وتدركه ، كما هو بذاته ، وتتمتع برؤيته .

على انه اذا كانت الحياة الابدية – كما علمنا من شواهد الكتاب المقدس وتعليم الكنيسة – متوقفة ، للانسان ، على معرفة الله ؛ واذا كان حقاً انه يأتي يومٌ فيه تسقط الحجب ، فننظر اليه تعالى وجهاً بازاء وجه ؛ اجل اذا كان كل ذلك حقًّا ثابتاً ؛ فكيف التوفيق ، والحالة هذه ، بين هذه الحقائق وبين ما وقفنا عليه بنور العقل من تفوّق الطبيعة الالهية على طور عقلنا بما لا يحدّ ؟

ليس لذلك الّا انتراض وسيلة واحدة وهي ان يرفع الله الانسان فوق طوره ، فيشركه في طبيعته الالهية ؛ وهذا ما تعلّمه الكنيسة الكاثوليكية . لانه ما دام الانسان انساناً ؛ وما دام لا يُبرز الا اعمال قواه الضعيفة ، فلا مكنة له ابداً ان يعلو فوق طبيعته الزاحفة على الحضيض ، لكونه خليقةً محصورة ضمن حدود ضيّقة ؛ ومن ثم ، فالموضوع الذي يبلغه محدود . والسبب في ذلك ان النور معدّ للعيون القادرة على ادراكه . لكن هل يُعقل ان الله

يفيض علينا ذاته ؟ هل يجوز للطبيعة البشرية ان تشترك في الطبيعة الالهية ؟ اوَ ليس ان الله من ذات طبعه قائم في وسط النور الذي لا يصل اليه احد ، اي فوق كل كائن مخلوق او قابل الخلق ؟ اوَ ليس اننا نكون قد انكرنا هذا السموّ الالهي ، اذا قلنا بامكانية اشتراك الانسان في هذه الحياة الالهية ؟ اجل هذا حق وصواب ولسنا بجاحديه ، لانه ، والحق يُقال ، ليس من خليقة قادرة ، من ذات طبعها ، ان تشترك مع الله في طبيعته . الله واحدٌ بالجوهر ، مثلّث بالاقانيم . وقد كان هكذا منذ الازل وقبل الدهور . بيد انه طاب له ان يأتي الى الوجود بالكائنات التي لم تكن موجودة . خلقها متميّزة عنه ، ذات طبيعة ادنى درجةً من طبيعته ، وان كانت صادرةً عنه . هذا هو التعليم الكاثوليكي الذي يؤيّده العقل بادلته الدامغة . اجل ! لا نجهل ان هناك قوماً يجحدون هذا التعليم ، لكن ما لنا ولهم ، لندعهم في غيّهم يعمهون ، ولنتمسك بشهادة الايمان القويم ، والعقل السليم .

على انه في ما خلا ميدان هذه العقيدة ، اليس لله من مجال ان يشرك غيره في ذاته ، اي ان يهبه نفسه ، لا بمنزلة طبيعة ، لكن بمثابة نعمة تضاف الى هذه الطبيعة ؟ وهل من الصواب القول بعجز الله عن اتيان ذلك ؟ كلا ! ليس هذا من الحقيقة في شيء ، اذ كيف يسوغ هذا المدّعى ونحن نرى الخلائق عينها ، مع كونها ضعيفة ذليلة ، تجري اعمالاً من هذا القبيل . او لا يمكن للبشر ان يهبوا ذواتهم بعضهم لبعض ؟ اجل ! دونك رجلاً يلاقي يوماً من الايام خليقةً شبيهة به ، ضعيفةً مثله ، واذ تقع في قلبه موقع القبول ، يوجه اليها هذا الكلام: «ايتها الخليقة المضارعة لي ، لقد شغفت بحبك . فدونك حياتي ، خذيها ، ولتكن ملكك الى آخر نفس من انفاسي ، ولنصبح متحدين ، ولنكن ، باتحادنا ، سعيدين .» فتجيبه ، وقد شعرت بمثل ما شعر : « لقد قبلت ووافقت عن رضىً وملء مسرّة . » وفي الحال يمنح واحدهما ذاته للآخر دون رجوع . ومنذ ذاك اليوم يحتسبان ذاتهما مغبوطين ، ويشعران بنفسهما قد عظمت وشرفت بهذه العطية المتبادلة ، وانهما قد اكملا ، بالحب ، اعظم عمل من اعمال الحياة البشرية . وبالحق لقد اصابا المرمى ، اذ في نظام الامور

الطبيعة البشرية ، ليس من شيء اسمى واقدس من عمل هبة الذات .

فان كان هذا الحال حال البشرية ، فهل يمكن ان يقال بان الله ليس فيه هذه العظمة ؟ هل يجوز يا ترى ان يكون الله اقل كمالاً وسعادة من خلائقه ، هو الذي منحها الكمال والسعادة ؟ كلا ثم كلا ! هذا مستحيل . لان في قدرة الله ان يهب ذاته . وهذا التعليم الكاثوليكي يفيدنا بانه تعالى قد اعطى ذاته ، واعطاها بطريقة اكمل من جميع طرائق البشر . فانه يوم عزم ان يخلص العالم ، اتى ذلك العمل العجيب الذي لم تزل الاجيال ، منذ وقوعه ، تجلّه وتحترمه ، وهو ما ندعوه التجسّد الالهي ، اي الاله المتأنس ، الاله المتحد بالانسان ، الاله الكلمة الموحّد الشخص ، المضاعف الطبيعة .

فما عمله الله مرّةً ، لِمَ لا يمكنه ان يعمله مرتين او ثلاثاً ، او عشرات او مئات لا بل الوفاً وربوات ، وان يصنعه في كل زمان ومكان ؟

نعم ان هذا المنح او الاتحاد الناجم عنه لا يجري باتصال او اشتراك اقنومي ، كما جرى في سرّ التجسد ؛ لكنه مع ذلك لا يخلو ان يكون اتحاداً حقيقاً فعّالاً ، الا وهو الاتحاد بالنعمة المقدسة التي بها يهبنا الله ذاته ويرفعنا اليه ، مشركاً ايانا في حياته . اجل ان الله يتحدنا بطبيعته ، ويتحد بطبيعتنا بنعمته . وهذا ما نشعر به متى كان قلبنا خالياً من الخطأ . وهذه الحياة ، حياة النعمة ، هي استعداد ، لا بل عربون للحياة الالهية الفائقة الطبيعة ، المعدّة لنا في الآخرة . فلنشكر الرب الذي دعانا الى هذه الدعوة السامية ، ولنحرص على العيش في حال النعمة ، حتى اذا ما ثبتنا في القداسة ، نحظى يوماً بالسعادة الخالدة .

التذكار المئوي

للرابطة الادبية الفرنسوية (١٨٣٠ – ١٨٥٠)

LE ROMANTISME

بقلم نصرالله واسعد نصرالله

من اهم السنين التي تطور فيها الادب الافرنسي سنة ١٥٤٩ و ١٦٣٦ و ١٨٣٠. ففي ١٥٤٩ نشر دي بللي J. du Bellay كتابه المدعو « *Deffence et illustration de la langue française* » حامى فيه عن اللغة الافرنسية، ودوّن قواعد خصوصية لكل فنّ من فنونها. وسنة ١٦٣٦ برزت الى الوجود رواية « السيد *Le Cid* » للروائي الشهير كورنيل، واخيرًا سنة ١٨٣٠ مُثلت رواية هرناني « *Hernani* » لفكتور هوغو.

فالكتب الثلاثة المشار اليها ليست مؤلفات سامية فحسب، بل كانت في طليعة انقلاب جديد في التفكر والاحساس والكتابة.

هاجمت سنة ١٨٣٠ آداب القرن السابع عشر وارادت ان تستبدل بها آداب القرن التاسع عشر. فرأينا ان لا ندع هذه السنة تمرّ دون ان نقول كلمة، نظرًا لمرور قرن كامل على رابطة احصت بين رجالها من الشعراء المتفوقين مَن لا تزال قصائدهم تأخذ بمجامع القلوب فتنعش النفوس سكرى برحيقها.

وقضاء للموضوع حقه نقسمه الى اربعة ابواب نتكلم في اولها عن تحديد او عن تعريف تلك الرابطة، ٢ً عن اسبابها، ٣ً عن تاريخها، ٤ً عن مآثرها. وذلك تتمةً لفائدة القراء بما نضيف الى لغتنا من معلومات قيمة عن آداب الغرب. وقد اصبح من المحقق ان الكاتب العربي المجيد لا ندحة له، كما شهد غير واحدٍ من علية كتابنا، عن الاطلاع على آداب الافرنج، ومن سبقهم من الرومان واليونان.

١

تحديد هذه الرابطة الادبية

يمثل لنا موسّه في كتابه « *Lettres de Dupuis et Cotonet* » رجلين صرفا السنين الطوال علّها يقفان على تحديد لهذه الطفرة الادبيــة . لكنهما لم يظفرا بطائل . ولعلَّ ما فات الرجلين لا يفوتنا .

فاصدق تعريف لهــذه النهضة هو انهــا ثورة في الاحساس ، والفكر ، والكتابة . ومعلوم ان كل ثورة تدفع الشعوب الى التملُّص من ربقة قــديم عافته نفوسها ، وسئمته طباعها ، الى جديد طلي تأنس به خواطرها ، وترتاحُ اليه اميالها . وعليه فكتَّاب القرن التاسع عشر بنهجهم الجديد نازعوا آداب القرن السابع عشر ، وارادوا تقويض معالمها . ومن البيّن ان من اطلع على تاريخ اللغة الافرنسية يعلم ان ادباء القرن السابع عشر كانت خطتهم الاحتذاء بالاقدمين ، والتطريس على آثار الاوائل ، ولاسيا اليونان والرومان . وقد وضعوا لكل من فنون الكتابة قواعد خاصة لا يسوغ للمنشئ ان يتعدّاها . ومن ميزات تلك الحقبة سيادة العقل وسيطرة الفكر ، بحيث كان يهيمن على الخيال والاحساس . واما الاخيران فكانا تابعَين له ، وكثيرًا ما ابتخس شأنهما وبولغ في الحطّ من مقامهما .

اما كتاب القرن التاسع عشر فجروا على خطــةٍ معاكسة لانهم نبــذوا الائتام بالمتقدمين ، وتفلّتوا من الضوابط ، واطلقوا للقام العنــان يجري على هواه ، ورفعوا من مستوى الشعور والخيال حتى جعلوهما والعقل في سمتٍ واحد بل كثيرًا ما رفعها البعض منهم فوق العقل .

٢

اسبابها

١ يحسن بنا بعد ان انهينا التحديد ان ننتقل بالقارئ الى الاسباب التي حدت بمنشئي القرن التاسع عشر الى ان يثوروا على القديم ، ويناهضوا من تقدمهم .

ومرجع هذه الاسباب الى اثنين : اولهما ضيق نطاق قواعد الادب القديم ، لاسيما في غاية القرن الثامن عشر ، حتى صار الكاتب يعدّ مبرّزًا اذا استظهر قواعد معلومة ، وطبق انشاءه عليها . وهذا التعبد جعل الكتّاب عبيدًا لمثل معلومة . ولا يخفى ما في ذلك من الغضّ من القيمة الشخصية ونتائج الفكر . اضف الى ذلك نضوب ينابيع الادب القديم ، بحيث لم يعد موردًا يستقي منه الفكر . فتسرّب الملل الى النفوس حتى هتف احد الشعراء : « من ينقذني من ادب اليونان والرومان » .

السبب الثاني هو ان الشعب الافرنسي كان قد انفسح خياله لما مرّ به من الاهوال في حروب نابوليون الكبير ، ودقّ احساسه لما شاهد من مجازر الثورة وملاحمها الدموية ، ومن قراءة بعض المؤلفات التي تجعل للاحساس المقام الاول كمؤلفات روسّو ، وروايات غوته وشيلر وولترسكوت وشكسبير ، وقصائد الشعراء البحيريين (*Les poètes Lakistes*) من امثال كوليدج وسوثي ووردسوورث وخصوصاً قصائد بيرون . فتشرّبت نفسه الحرّية ، وتلمس ضوابط جديدة توائم نزعاته ، وتطلّب ما يرضي خياله ويغذي شعوره ، اعني ادباً جديدًا يفي بمطالبه . وعليه فما نشر لامرتين سنة ١٨٢٠ كتابه المدعو التأملات « *Les Méditations* » حتى تلقاه الشعب بالاستحسان اذ رأى فيه ما يحقق احلامه الذهبية . هذا ما دفع لامرتين الى القول عن نفسه « هوذا الشاعر الذي يتوقع الشعب بزوغه من بعد روسّو ، وبرنردين دي سان پيير ، وشاتوبريان [1] »

٣

تاريخها

في اواخر القرن الثامن عشر نزى الشعراء ينزعون الى منهج جديد اذ دبّ فيهم روح حديث دفعهم الى الانقلاب على الماضي ، فروسو هو الذي ابتدع

(1 *Première préface des Méditations.*

اسلوباً طريفاً لوصف الطبيعة والتغني بجمال الكون . وكذلك تبعه برندين دي سان پيير .

وكلما دنونا من السنة الثلاثين ازداد نموّ هذا الروح وتأهبت العقول لقبوله. فشاتوبريان حاكى روسّو في طريقته ، لا بل فاقه في تحبيب مشاهد الطبيعة وادراكها بجلاء . فان كان يحق لروسّو ان يدعى جدّ ادب القرن التاسع عشر ، يسوغ لشاتوبريان ان يدعى اباه . وفي هذا المعنى قال تيوفيل غوتيه « ان شاتوبريان هو عميد الادب الجديد » ففي كتابه المدعو « عبقرية النصرانية » « *Génie du Christianisme* » اعاد الى الوجود الفنّ الغوطي ؛ وفي رواية « الناتشز *Les Natchez* » فسح للخاطر رونقة مجالي الطبيعة الجذّابة بنمط بديع ؛ واخيراً في « رينه *René* » عرّف تلك الحالة التي تنتاب النفس احياناً وتلقيها في بحر من الغم بدون داع . وهذا الداء قد تفاقم في القرن التاسع عشر حتى سمي مرض العصر (*Mal du siècle*) . وقد كان لمدام دي ستال (M. de Staël) مقام ممتاز بين مؤسسي هذه النهضة ، ويحقّ لها ان تحسب في عداد موجديها لانها بكتابها « كورين *Corinne* » عرفت الافرنسيين بايطالية الحديثة حيث ازهر الادب الجديد . واوقفتهم على مشاهير متثني المانية كغوته وشيلر .

على ان كتاب لامرتين المسمى « التأملات *Les Méditations* » وقصائد الفرد دي ڤيني (de Vigny) تعدّ باكورة هذا الادب الحديث . ففي هذين الكتابين تجلت الاساليب الحديثة .

فالشعراء الذين وجدوا لهذا الفن هوًى من نفوسهم التأموا في ندوة خاصة في منزل شارل نوديه (Nodier) والفوا جمعية ادبية (1er *Cénacle*) . فكانوا يحمسون بعضهم ، وفي مطاوي مناظراتهم يجلون عن خواطرهم ويصلحون ما وجدوا فيها من الخلل . وفي سنة ١٨٢٣ وضعوا مجلة شهرية « *Muses Françaises* » نشروا فيها اساليب فنهم . فنظر اشياع الزيّ القديم بعين الاشمئزاز والنفور هذه الآراء المضادة لآرائهم ، فاخذ النزاع بين الفريقين يشتد ويتفاقم . ثم قام ڤكتور هوغو ، الذي اشتهر في كتابه «*Odes et Ballades*» فصنّف عدة نشرات بيّن فيها بكل وضوح افكاره الادبية واساليبه الفنية .

وفي سنة ١٨٢٦ نشر رواية «كرومويل *Cromwell*» بسط في مقدمتها قواعد فن التمثيل الجديد. فهذه المؤلفات صادفت استحسان المجدّدين واستهجان محبي القديم، فاحتدم وطيس الجدال بين الفريقين، وكثيراً ما افضى اللدد الى الشتم والضرب. واذ كان الشعب يتوقع كتاباً مستوفياً كل قواعد الفنّ، مثّل دي ڤيني رواية «اوتلو *Othello*» المترجمة عن شكسبير. ومن بعده وضع هوغو رواية «هرناني *Hernani*». عندئذٍ تقوّت دعائم ادب المجددين، فخال هؤلاء ان اركان الادب القديم تزعزعت. وفي مدة عشر سنين، على رغم ما جرى من الانتقادات والمصادمات، استظهر المجدّدون على اخصامهم ووضعوا بضعة مؤلفات ابدعوا فيها، وقد بحثوا في كل فرعٍ من فروع الادب لاسيا في الفنون الجميلة.

فتفوق في الشعر الغنائي هوغو، ولامرتين، وڤيني، وموسّه؛ وفي القصص هوغو، وڤيني، ودوما (Dumas)، وجورج سند، وبلزاك. وفي التاريخ تييري وميشليه. واعاد لامني ولاكوردير الى الخطابة الدينية رونقها وجمالها. وبثوا في كل من الفنون قوةً لم تكن لها قبلًا، فاحدث جريكو، وجيروردي، ودي لاكروا، واري شيفر، فنّ تصوير جديد. ومن ثمار قرائحهم: زورق الميدوز، ومأتم اتالا، وقارب دانتي. وداڤيد دانجه ورود (David d'Angers et Rude) تفوّقا في نقش التماثيل، ومن روائع ما اتحفانا به فيلوپمين والمرسيليز. ونبغ في الموسيقى شوپين وبرليوز (Chopin et Berlioz) مؤلفا المقاطع الخلابة كالنشيد المأتمي، وهلاك فوست.

على ان الاسباب التي ساعدت على تشييد هذا الصرح الادبي هي عينها عملت على دكّه وسقوطه. فقد عاش هذا الفن طيلة بقاء اصحابه غير مضيّقين على مبادئهم، ومدة لقائه هوًى من نفوس الشعب، ومزالفته لذوقه. فما اتت السنة الخمسون حتى اخذ في الانهيار والتداعي. وغدا جمية لا تحفل الا بطنطنة الالفاظ وسبك الجمل، دون الاهتمام بالافكار، فانصرفت الى المباني دون المعاني. وزد على ذلك ان خبرة الشعب جعلته ان لا يحفل بنتائج الخيال حيث يحلّق الشاعر في فضاء الاوهام. فاخذ الشك والارتياب يدبّ الى النفوس، وهذا الريب ولّد ظمأً شديداً الى اغتنام ملاذ الحياة، فاخذ الروح المادي

الذي وضعه كونت يمتد وينتشر . ومن ثم تطلب ادباً يلائمه ، ويتكيف بكيفيته ، فاوجد ادباً مادياً صرفاً (*Réalisme*) خلف الادب الذي ذاع من ١٨٣٠ الى ١٨٥ . هذا وان سقوط رواية البُرْگراڤ «*Les Burgraves*» لفكتور هوغو سنة ١٨٤٣ ، وتلقي الشعب ، بمزيد الاستحسان ، رواية لوكريس «*Lucrèce*» التي تمتّ الى ادب القرن السابع عشر ، كان نذيراً بادبار ادب تلك الحقبة . اضف اليه نضوب قرائح المجددين وعدولهم عن نشر مؤلفات تحييهم الى الشعب . فلامرتين انصرف الى السياسة ، ولم ينشر الا مصنفات قليلة جارياً على ما قاله : «ما الشعر الا دعابة يلهو بها الخاطر ابان الراحة . اما الخبز اليومي فهو الثقل الدائم» . وفيني بعد انضمامه الى الاكادمية الأفرنسية (١٨٤٥) اعتزل الناس وانقطع الى قصر في املاكه مزجياً بقية حياته في التوفر على العناية بزوجته المريضة ، والتأمل ، وكتابة خواطر خاصة . وموسه ارتطم في حمأة الرذائل ، وعكفت نفسه على الملاذّ ، فقضى على قريحته الوقّادة التي صارت جدبة قليلة الثمار . اما هوغو فعمل وحده بفكرته الفياضة على اطالة حياة تلك النهضة الادبية الى سنة ١٨٨٥ . على انه كان وحيداً ، وكان يبدّل ذوقه طبقاً لرغائب الشعب .

٤

مآثرها

يجمل بنا في نهاية هذا المقال ان نقول كلمة عما تركه هذا الادب من الآثار . اول شيء اوجده هو تجديد ، بل ابداع ، الشعر الغنائي الذي كان تضاءل شأنه جداً في غاية القرن الثامن عشر . فعرفنا شعراء هذا العصر بمحاسن الطبيعة بكل رشاقة وجلاء واغرونا بحبها ، لانهم جسّموا مشاهدها وهاموا بجمالها ، ولذا قال لامرتين : «ايتها الكائنات الجامدة هل لك نفس تلاصق نفوسنا فتضطرها الى حبها ؟» [1] . ومن مآثرهم انهم اعادوا الى الديانة المنزلة التي تحقّ لها ، فكان لامرتين اول من اوجد الشعر الديني في فرنسة حتى ان

(١) *Harmonies poétiques - Milly ou la Terre Natale.*

ليون غوتيه (Léon Gautier) قال عنه : «انه لصعب علي ان اتصور مسيحياً لا يحب لامرتين ، لا بل لا يحفظ له في قلبه اخلص عواطف الشكر» وايضاً : «اننا نحن الكاثوليك نحفظ لك ، ايها الشاعر المحبوب ، اطيب التذكارات لانك سموت بنفوس عديدة نحو الله ، نفوس لدى مطالعتها كتاباتك ارتفعت بافكارها عن اوحال الرذيلة»[1] .

ومن مآتي ادباء هذا العصر انهم سلكوا في التعبير عن افكارهم والابداء عن عواطفهم منهجاً جديداً ، فجددوا اللغة شعراً ونثراً ورفعوا ذلك الحجاب الفاصل بين الكلمات حتى انه لم يكن يسوغ في الافرنسية ان يطلق على بعض الاشياء اسماؤها الوضعية ، بل كانوا يعبرون عنها بلفظ مجازي . فالمتجددون اطلقوا على كل مسمى اسمه الخاص[2] . واكتسبت المنظومات رقة وليناً وصارت اكثر طواعية للخاطر ، واعذب على السمع ، واوقع في النفس .

على ان ازاء هذه المحاسن سيئات لا يسعنا الاغضاء عنها . منها ان الفكر فقد بسبب غلوط العناية بالالفاظ شيئاً من قوته . كما ان اطلاق عنان المخيلة والشعور الى حد مفرط كان له اسوأ وقع في الحياة الاجتماعية ، فالخيال جموح اذا لم يضبطه عقل رشيد ، يقتحم بصاحبه مهامه الغيّ والضلال .

هذا ما رأينا تلخيصه راجين الاغضاء عما فاتنا ، وان يكون في ما ذكرنا محرضاً لكتابنا الافاضل يحملهم على الاستقاء من ادب الغرب . فيجدون فيه ثروةً طائلة للغتنا العربية ، وما احوجها الى مثل ذلك !

---

١) *Portraits du XIX*

٢) لنتذكر شعر فكتور هوغو :

J'ai nommé le cochon par son nom : pourquoi pas ?

تقرير السيد ده غرانجه

مفتش قنصليات الاساكل الشرقية في القرن الثامن عشر

عرّبها وعلّق حواشيها الخوري بطرس غالب

ان الطيّب الاثر الاب انطون رباط اليسوعي ، رحمه الله عداد اتعابه في سبيل تاريخ الكنائس الشرقية ، قد نقل من المخطوطات القيّمة ما يرسل على احوال هذه البلاد نورًا وافيًا لايضاح ما جرى فيها ، وما كانت عليه اهاليها من بؤس ورفاء وظلم وعدل . وكان الكثير المبرّات الاب لويس شيخو اذن لي ان اطلع على بعض ما لم ينشر حتى اليوم من هذه الآثار ، فوقع نظري على رحلة السيد ده غرانجه مفتش قنصليات الاساكل الشرقية الفرنسي . وكان لديّ فقرات منها لم أكن اعرف مؤلفها ، فلدى المقابلة بين النسخة والفقرات تأكدت انها كلها للمفتش المذكور ، فكملت هذه بتلك واثرت نشرها مترجمة عن الفرنسية للفائدة ، معلقًا عليها الحواشي اللازمة لفهم ما يذكر من الحوادث . وساتبعها بنبذة اخرى لاحد السيّاحين ، الذي اتى البلاد بعد السيد ده غرانجه بنحو خمسين سنة ، وذلك تعميمًا للفائدة .

قضى السيد ده غرانجه نحو عشرة اشهر في بلادنا وجاب اغلب اقطارها ، وبعد ان فرغ من جولته كتب تقريره لوزير البحرية ، لان القنصليات في الاساكل كان مرجعها وزارة البحرية . ولذلك ترى اغلب الوثائق التي تتعلق بالشرق في تلك الايام محفوظة في خزانة تلك الوزارة .

وقد نشرت في كتابي «صديقة وحامية» نتفًا من هذا التقرير الذي اترجمه الآن بكامله :

٦ آب ١٧٣٦

سيدي . بما اني كنت قد زرت في شهري تشرين الاول وتشرين الثاني من السنة المنصرمة ١٧٣٥ القسم الجنوبي من كسروان ، غادرت صيدا في ٢٥ حزيران (من هذه السنة) لازور قسمه الشمالي ، فرجوت من الاب بطرس فرماج اليسوعي ان يأتيني برجل من عينطورا استصحبه دليلًا حتى اوفر استئجار دركي وحصانه مدة وجودي في تلك القرية .

عينطورا قرية صغيرة مؤلفة من ١٥ الى ٢٠ بيتًا بالكثير يحيط بها من جميع جهاتها جبال عالية محروثة جيدًا ، ما عدا جهة الغرب فان الجبال فيها اقل ارتفاعًا وهذا ما يجعل النظر الى البحر لطيفًا للغاية . فان البحر لا يبعد عن القرية سوى ساعة ونصف الساعة

وقد بنى فيها الآباء اليسوعيون معبدًا صغيرًا ، وديرًا نظيفًا جدًا ،

ومناسباً للاجانب الذين يستقبلون فيه احسن استقبال . وعندهم دير آخر في محل عالٍ كثيراً لا يبعد الا قليلاً عن الاول ، وحتى الآن لم يكمل بناؤه ، ويطلقون على هذه الدار اسم «المدرسة الاكليريكية» ، واهل البلاد يسمونها «مدرسة». وفيها ثمانية احداث يتربون فيها وهي تقدم لهم حاجاتهم. ويؤم هذه المدرسة جميع صبيان الثلاث او الاربع القرى المجاورة لعينطورا يأتونها كل يوم صباحاً ويعودون الى بيوتهم مساء.

ومدير المدرسة هو الاب نكي القبرسي الاصل[1] وهو رجل مشهور ، وذو صيت منتشر في البلاد لقداسة سيرته ، باشر بناء المدرسة ، وهو يرجو ان يكمله ولو كان قد امسى طاعناً في السن.

اما الدير فرئيسه الاب هودول ويساعده في خدمته اخ مساعد . ويمكن اعتبار الابوين نكي وهودول من مرسلي الاجيال القديمة . فاني رأيتهما يذهبان كل يوم من قرية الى قرية على بعد ساعتين من عينطورا ، يقضيان فيها النهار بكامله لاستماع الاعترافات وتدريس التعليم المسيحي وذلك بعد ان يحتفل احدهما بالقداس ، ويلقي الآخر الامثولة على التلاميذ . عندئذٍ كانا يضعان خبزةً في جيبها ، ويذهبان مرتديين ثوباً رثًّا من قماش ازرق او اسمر ، ومتمنطقين بمنطقة من جلد ، وارجلهما عارية[2] .

١) الاب يوحنا نكي ولد في قرية اسوماتوس في قبرس من والدين مارونيين سنة ١٦٦٦ او ١٦٦٧ ، سافر الى رومية مع اخيه فيليبي صحبة الاخ توما من رهبان القدس سنة ١٦٧٦ ، ودخل الرهبانية اليسوعية في ٢٧ تموز سنة ١٦٨٧ ، ورسم كاهناً في ٣٠ ك ١ سنة ١٦٩٢ ونسب الى اقليم رومية . ارسل الى سورية فجال مقاطعة جبل الدروز يعلّم ويعرّف ويبشر وصار نسمة صالحة في النسك والخضوع ، وسمي مديراً للمدرسة الاكليريكية في عينطورا ورئيساً لما ثم رئيساً للرسالة ، حضر المجمع اللبناني بصفة لاهوتي وتوفي شبعاناً من الاعمال الصالحة ، في شهر آب سنة ١٧٤٦.

اما الاب يوحنا بطرس هودول فلم نعرف عنه سوى انه كان رئيساً للرسالة في عينطورا حين عقد المجمع اللبناني وقد حضره.

٢) مدرسة عينطورا . ان المرسلين اليسوعيين استوطنوا عينطورا سنة ١٦٥٢ ، في محل اوقفه عليهم الشيخ ابو نوفل نادر الخازن . اما المدرسة الاكليريكية فقد أسسها بعض افاضل الموارنة ، وطلبوا من رئيس الرهبانية اليسوعية العام ان توضع تحت تدبير اليسوعيين ، فاجابهم الى ذلك وعيّن رئيساً لها الاب يوحنا نكي ١٧٢٨. ومن شروط تلك المدرسة ان يُقبل فيها

كسروان ملجأ جميع الكاثوليكيين المضطهدين في الشرق ، ونـذا يُرى فيه عدد كبير من الاديار للرهبان والراهبات . لجميع كنائس هذه الاديرة قبات معلق فيها اجراس . وتمارس الديانة فيه بحرّية كما في فرنسة

واهم دير في تلك المقاطعة ، بعد دير اللويزة ، دير قديم قريب من عجلتون ، يدعى ريفون ، يقيم فيه البطريرك عادةً . وبالقرب منه دير للراهبات عددهن اربعون . ولا يستطيع احد غير المطران الذي يسكن ريفون ان يدخل الدير ليعرفهن[٣] . فوق درعون وتحتها يوجد ايضاً ديران ، احدهما للرهبان ، والآخر للراهبات . الاول يُدعى دير مار يوحنا حراش[٤] . والثاني مار شليطا[٥]

من غير الموارنة تلاميذ يوازون ربع الموارنة وان تحمل مداخيل هذه المدرسة منفردة . واذا وجب نقل المدرسة لقوة قاهرة ، فلا تنتقل الى ما وراء حدود سورية ، والى حيث لا يوجد موارنة . واذا قدّر ان يتخلى اليسوعيون عنها فيمكنهم ان يعهدوا بها لمن يكلفونه تتميم نيات المحسنين . واذا تعذّر ذلك قامت مقامها مدارس صغيرة ينشئها بطريرك الموارنة في بلاد طائفته على ما يرى . والذي له الفضل الاكبر في انشاء هذه المدرسة هو الاب بطرس مبارك الماروني اليسوعي وغايته تهذيب اكليرس طائفته ، والاكليرس الشرقي عموماً . ولما الغلت الرهبانية اليسوعية بامر البابا ، سلمت المدرسة الى المرسلين العازاريين وكان قد نقل راس مالها الى باريس واستولت عليه الحكومة ، ولذلك كتب الاب شارل بريفور رئيس رسالة اليسوعيين في سنة ١٧٦٦ الى الدوق دورليان كفيل المملكة يرجوه ان يخصص ولو قليلاً من مداخيل تلك الوقفية للمدرسة . وكان في مدرسة عينطورا مخطوطات نقلها سنة ١٧٩٠ الى باريس مسيو كورديه المرسل العازاري بعد ان استلمت جميته المدرسة . اما دير عينطورا فقد انشأه مسيو كيمنس ، ومدخول المدرسة كان ١٥٠٠ فرنكاً وقد ضُبطت مع ما ضبط من اموال الرهبانية حين الغائها .

٣) دير سيدة اللويزة بناه الشيخ سلهب الحاقلاني ، وافتتح سنة ١٧٠٧ . والشيخ سلهب ترهب في الرهبانية البلدية الحلبية وفيها مات . وفتحت فيه مدرسة جمت في وقت من الاوقات نحو ٨٠ تلميذاً .

دير ريفون ، او مدرسة مار سركيس وباخوس ، انشأها القس سليمان مبارك ١٦٥٥ وجعلها لسكنى الرهبان العبّاد ، وقد تحولت مدرسة بامر البطريرك يوسف حبيش سنة ١٨٣١ .

نظن انه يعني دير مار الياس الراس الذي عُيّن لسكنى الراهبات بامر السمعاني ، بني نحو سنة ١٧١٢ وسلم الى الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٣٦ فخصّصوه للراهبات اللبنانيات .

٤) دير حراش انشأه الاسقف يوسف العاقوري ١٦٤٣ ، وهو الذي صار بطريركاً ، وعقد فيه مجمعاً (١٦٤٤)

٥) دير مار شليطا مقبس جدّد بناءه القس يوحنا عاصي ١٦٢٧ ، سكنه البطاركة

(مقبس) . وبين غوسطا وحريصا دير آخر للرجال يُعرَف بدير الكريم ، اي الكرم الصغير ، وفيه يقيم مطران ارمني مشهور في البلاد بما احتمله من الاضطهاد لاجل الدين . وهذا الاسقف بعد ان خرج من اللبان في الاستانة ، وكان قد قضى فيه عشر سنوات ، اعتزل في المحل المذكور وابتنى ديرًا جعل ملجأ لعابري الطريق . ويوجد فيه ثمانية كهنة يأتمرون بامره[٦] .

وعدا هذه الاديار يُبنى الآن دير آخر قرب عينطورا للبنات الحلبيات ، وهو يشيّد بنفقة اثنتي عشرة ابنة حلبية تكرّسن للحياة الرهبانية وسيجتمعن فيه متى تمّ البناء ، قانونهنّ قانون راهبات الزيارة[٧] .

ولآباء الاراضي المقدسة (الفرنسيسكان) دير في حريصا يبعد ساعة عن عينطورا من جهة ، وساعة عن غوسطا من جهة اخرى . وللكبوشيين ايضاً دير في غزير[٨] وهناك حقل يوجد فيه حجارة يهودية تعرف باسم دوليف المحجّرة . وللكبوشيين ايضاً دير في عبيه[٩] يبعد ست ساعات عن صيدا ، وعلى بعد

مدة ، وكان فيه مكتبة خطية ذات شأن

٦) دير الكريم المنشأ على اسم المخلص له المجد ، وهب محله لشابين ارمنيين حضرا من حلب الى كسروان سنة ١٧٠٧ ، الشيخ صخر ابن ابي قنصوه الخازن سنة ١٧١٦ . وفيه انشأ رهبانية للارمن تتبع قانون الرهبانية البلدية المارونية . ثم سكنه بطاركة واساقفة الارمن المضطهدون واستمروا فيه حتى وقف الشيخ شرف دهام الخازن محل بزمار . واما دير الكريم فاشتراه المطران يوحنا حبيب لجمعية المرسلين اللبنانيين سنة ١٨٦٥

٧) دير الزيارة أنشئ في عينطورا في السنة التي ذكرها ده غرانجه اي ١٧٣٦ . لكنه لم يكتمل بناؤه الا بعد مدة ، وجرى ذلك بعناية رئيس الرسالة اليسوعية في سورية في ذلك العهد . اشترى محله بمال المحسنين وطالبات الانضواء الى رهبانية القديس فرنسيس سالس . وهب ثلث الثمن الشيخ موسى طربيه الخازن لقاء دخول ابنته وشقيقته في الرهبانية المذكورة . وقد سمح البطريرك الماروني بذلك شرطًا ان تحفظ الراهبات الطقس الماروني وعاداته ، واما ارشادهن فتولاه مرسل يسوعي الى حين الغاء الرهبانية اليسوعية ، وخلفهم في هذه المهمة المرسلون العازاريون ، واخيرًا كهنة موارنة .

٨) دير مار انطونيوس حريصا بناه الفرنسيسكان في محل وقفه عليهم الشيخ سنتو بن فياض الخازن منذ سنة ١٦٨١ . اما دير مار فرنسيس غزير ، فبناه الكبوشيون على قبو اعطاهم اياه الامير حيدر الشهابي حاكم لبنان ١٦١٢ ، والقبو كان من آثار سراي الامراء السافين .

٩) دير عبيه أسسه المرسلون الكبوشيون في اواخر الجيل السابع عشر . وقد ورد

نصف ساعة في هذا الدير الاخير يوجد توتيا واصداف كثيرة محجرة.

ولا سبيل الى اغفال ذكر دير مار يوحنا الشوير[١٠] الذي اكتسب شهرة في البلاد بايوائه رجلاً فريداً يُدعى الشماس عبدالله زاخر[١١] الحلبي الرومي. هو صائغ، نقاش، يصبّ حروفاً للمطبعة، ويجلّد الكتب، ضليع في اللغة العربية. ألّف كتباً عديدة قيّمة لها قدرها في البلاد، وبينها كتاب ضد الروم الارثوذكس. وجمع عدداً كبيراً من الكتب الروحية التي ترجمها الاب بطرس فروماج اليسوعي[١٢]. وقد تعلم كل هذه الصناعات من تلقاء ذاته، ما عدا الصياغة فانه تعلمها في حلب.

ويوجد بين عجلتون وجبل الماقورة الذي يبعد عن عينطورا ست ساعات

ذكره في سنة ١٦٨٦، ولا ريب انه بُني قبل ذلك، وقد قتل فيه سنة ١٨٤٥ مرسل كبوشي افرنسي وشماسه، وتلميذه، وقس ماروني، ونهب الدير واحرق.

١٠) دير مار يوحنا الصابغ، قرب الخنشارة، ويعرف بدير مار يوحنا الشوير. وبه عُرف الرهبان الباسيليون القانونيون الروم الكاثوليك الذين دعوا ايضاً حناوية. اما الدير فانه كان موجوداً في اواخر القرن السابع عشر يسكنه كاهن من بيت صوايا. ولما حدث انشقاق بين رهبان البلند، انتقل منه الى دير مار يوحنا الشوير الراهبان جراسيموس وسليمان في سنة ١٦٩٧. وقد بنى الكنيسة الخوري نقولا الصائغ الشهير في الزهد، وفي عالم الادب.

١١) عبدالله زاخر ولد في حلب سنة ١٦٨٠. ثم اهتدى الى الكثلكة بارشاد المرسلين اليسوعيين، فاضطهده الروم الارثوذكس اضطهاداً اكرهه على الهرب من وطنه الى لبنان في سنة ١٧٢٢، سكن دير مار يوحنا الشوير حيث اعتنى بالمطبعة ونشر فيها كتباً مفيدة للدين والعلم. وكان ورهبان مار يوحنا يقيمون طقوسهم باللغة السريانية، وظلوا مدة على هذا النمط. وقد قدمت من ثلاث سنوات الى صاحب السيادة المطران ميشال دريني رئيس المعهد الحبري الشرقي في رومية نسخة من كتاب هذه الطقوس استعملت فيه اللغة السريانية بدل اليونانية. ولعبدالله زاخر كتاب ضد الروم الارثوذكس احدث ضجة عظيمة عنوانه: «التفنيد للمجمع العنيد.»

١٢) مرسل يسوعي اشتهر بغيرته ونشاطه في التاليف والترجمة. ولد سنة ١٦٧٧ في ١٢ ايار، ودخل الرهبانية في ت ٢ ١٦٩٣. تولى رئاسة دير عينطورا، ثم الرسالة في سورية، ونقله رؤساؤه الى جميع اديار هذه الرسالة فكان عاملاً في كرم الرب بكل اجتهاد وغيرة. وقد سمي لاهوتياً في المجمع اللبناني، ولفظ في افتتاحه خطاباً ممتعاً. وله رسالة مطولة في هذا المجمع سننشرها ان شاء الله. ولم اتوصل الى معرفة تاريخ وفاته.

كثير من معادن النحاس المخلوطة بكمية قليلة من الفضة ، ومعادن حديد . وهناك جبل صغير يستخرج منه حجر الحتر .

هذه الجبال يقطنها الدروز والموارنة . واني لا اتحرّى البحث في اصل الاولين بل اقول انهم اتراك مع الاتراك ، ومسيحيون مع المسيحيين [١٣] . وان الاديان كلها سواء لديهم [١٤] . ويؤكدون ان النساء وحدهنّ واقفات على اسرار الديانة التي يعتقدون بها [١٥] .

اما الموارنة فجميعهم كاثوليكيون واغلبهم بالاسم فقط . وبالعموم تراهم ميالين الى جميع الرذائل والفواحش ، وفوق ذلك انهم يكفرون بالنعمة ، فمهما عملت مع الماروني من المعروف لا تستطيع ان تجعله ممنوناً لك . كل ديانتهم قائمة بالانقطاعات وبعض الاعمال الخارجية [١٦] .

لكل ضيعة كاهن يخدمها ، لكنه ملتزم بان يحرث الارض لمعاشه . وهذا مما يشغله عن الاهتمام بتدريس الاحداث التعاليم المسيحي وبوعظ رعيته ، على

---

١٣) يشير المفتش الى ما جاء في كتب الدروز : « اي امة تغلّبت فاتبعوها واحفظوني في قلوبكم »

١٤) هذا القول غير مطابق للواقع ، فان الدروز متعلقون بديانتهم الباطنية شديد التعلق وانهم ليتمضون جداً ممن يترك الدرزية ليعتنق ديانة اخرى . ومن المأثور عندهم ان عددهم لا يزيد ولا ينقص ، فلذلك اذا جحد اجدهم الدرزية اعتبروا انه لا يزال درزياً في قلبه .

١٥) لا نعلم من ايّ مورد استقى هذه المعلومات الكاذبة . نعم انه يوجد نساء « جويّدات » في الدرزية ، ولكن اسرار الديانة يعلمها مشايخ العقل اولاً وهم المحافظون عليها . والدروز طبقات ثلاث « الجويدون » وهم الطبقة الاولى والعليا ، ثم « العقّال » ، ثم « الجهّال » ، ولا يعلم سرّ الديانة لهؤلاء لانهم ليسوا « خاثرين » ولا يستحقون ان يعلموا جوهر الديانة .

١٦) ليس الموارنة كاثوليكيين بالاسم فقط ، ولا يكتفون بالاعمال الخارجية وبعض الصيامات . واعتصامهم بالجبال الجرداء دليل ساطع على تمسكهم الفعلي بديانتهم . وما كان اسهل جحودهم دينهم ليرفلوا بحبوحة العيش ! ونكتفي بشهادة الذين يعرفون الموارنة من المرسلين الواقفين على حقيقة الديانة اكثر من المفتش ده غرانجه . فان اليسوعيين مثل الآباء فاييوس برونو ، ودنديني ، وبوازو ، وسوام والفرنسيسكان ، والكبوشيين ، وهم عديدون ، يؤكدون انهم لم يجدوا في الغرب نفسه امة اشد تعلقاً بالحبر الاعظم من الموارنة . وبهذا ردّ كافٍ على اختلاقات المفتش المذكور .

انه يوجد عدد كبير من الكهنة الوطنيين ، وابساقفة تلاميذ رومية ، ممتازو الصفات يبذلون كل ما بوسعهم ليعلّموا الشعب ويرجعوه عن نقائصه [١٧] .

الماروني الذي يعتم بعمامة حريرية سوداء او حمراء ، ويلبس فروًا ، ويحمل خنجرًا ، يكون سيدًا عظيمًا وقديرًا ، والامراء في كسروان يضاهون عدًا نظراءهم في المانية ، لكنهم امراء فقراء غير مهذّبين ومتكبرون الى درجة لا تطاق [١٨] .اخصّ مواردهم الحرير والخمر وبعض الثمار . اما القمح فيحصدون منه ما يلزمهم لمعيشتهم . وبوجيز العبارة يمكن القول ان كسروان يعطي حريرًا جيلًا ، وخمرًا جيدة ، واناسًا ارديا. .

مرجع كسروان باشوية صيدا ، وحاكمه امير درزي من سلالة صلاح الدين ، من جهة النساء ، مقامه في دير القمر التي تبعد سبع ساعات عن صيدا وساعتين عن عبيه. وهذا الامير يلتزم خراج البلاد بمبلغ معلوم يدفع نصفه نقدًا والنصف الآخر عينًا [١٩] .

١٧) لا شك ان الكهنة كانوا يضطرون لحراثة الارض للقيام بما يلزم لمعيشتهم وعيشة عائلاتهم ، لان اغلبهم متزوّج . فلا الرعية الفقيرة يمكنها ان تقدم له معاشه ، ولا له موارد من الخارج تعينه على ذلك . اما سذاجة الكهنة فقُل ما شئت فيها ، لان البلاد محرومة من المدارس ، والمواصلات مع رومية والغرب لم تكن امرًا سهلًا ولم يكن في البلاد مطابع تساعد على نشر الكتب باثمان رخيصة.

ولذا قد انى الاحبار الاعاظم في جذب الطائفة عملًا عظيمًا بانشائهم في رومية مدرسة لتثقيف الاكليريكيين فيها . وتلاميذ هذه المدرسة هم الذين يبذلون ما بوسعهم لتعليم الشعب وتهذيبه التهذيب الراقي . وكذلك فضل السيد البطريرك الحالي مار الياس الحويك عظيم جدًا بارجاعه المدرسة المارونية الحبرية . ولا يمكن ان ننسى الذين اهتموا ويهتمون بالمدارس الاكليريكية ، من وطنيين واجانب ، وقد وقفوا عليها الاوقاف وخصصوا لها المداخيل سواء كانت هذه المدارس في الخارج او في البلاد ذاتها.

١٨) ان اللبس المحكى عنه يُنعم به من قبل ممثلي السلطنة العثمانية على الذين يريدون مكافأتهم او تنصيبهم ولاة او تشريفهم برتبة . وبالطبع لا يستطيع الفلاح لبس هذه الاثواب الدالّة على رتبة الشيخ او الامير لانه لم ينعم عليه بها . وليس له مورد يسدّ منه ما تقتضيه الرتبة من النفقات . اما كونهم « غير مهذبين ومتكبرين الى درجة لا تطاق » فانا لا نسلّم به على الاطلاق ، لانه لو طالع تقارير المرسلين ورسائلهم لرأى فيها ما يخالف قوله بتاتًا . وقد ذكرنا بعض هذه الشهادات في كتابنا « صديقة ومحامية »

١٩) ومن موارد كسروان الفحم والحطب . والفلاح لا يزرع الا ما يلزمه خوفًا من

ويطلق عليه الباب العالي اسم سنجق[٢٠] وهو الامير الوحيد في سورية على ما اظن الذي يُرسل اليه باشا صيدا الخلعة بواسطة القاضي او احد الاغاوات، الذي يأخذ علماً بتسليمه الخلعة الى الامير . اما سائر الزعماء والامراء فيلتزمون ان يقصدوا الى صيدا ويمثلوا امام الباشا ليقبلوا الخلعة منه[٢١] .

ويخضع لهذا الامير خمسون او ستون شيخاً موارنة ودروز . واهم هؤلاء المشايخ الموارنة اولاد ابي نوفل الخازن[٢٢] الذين يلقبون ذواتهم امراء ويعرفهم اهل البلاد بهذا الاسم . وهم اخوة اربعة يؤلف من ذريتهم عائلة وافرة العدد : الاول يقيم في عجلتون وله عم أُقيم بطريركاً على الموارنة منذ اربع سنوات[٢٣] لدواعٍ سياسية . والثاني يدعى الشيخ نوفل الخازن[٢٤] . هذا شرفه لويس الرابع عشر بقنصلية بيروت واهدى اليه سيفاً . وله اخ يقيم معه اسمه الشيخ كسروان ، وقد ذهب الى فرنسة سنة ١٧٢٨ ، حيث شمله ارباب البلاط الملكي بعلامات الصداقة . وكلا الشيخين مقيم في درعون .

الباص من قبل الحكومة ، التي تفرض عليه الضرائب الباهظة متى رأت حالته المادية قد تحسنت . ولا نعرف من ناشر المفتش في كسروان حتى يحق له القول ان كسروان «يعطي اناساً اردياء» . اما قوله عن مرجع كسروان فكان صحيحاً في ايامه . واما انتساب الشهابيين ، وهم مسلمون يحكمون بعض جبل لبنان ، فلم نرَ له اثراً في التاريخ لان الشهابيين ينتسبون الى بني قريش ، وقد قلّد صلاح الدين الامير عاد الشهابي ولاية وادي التيم ليس الّا

٢٠) سنجق اسم يطلق على المنطقة الادارية التي يسمح لها برفع سنجق ، وهو اقل من الولاية .

٢١) قد ورد ذكر ذلك في تواريخ الشهابيين . وطريقة التزام الالوية ظلت متبعة الى امد غير بعيد ، اي الى الزمن الذي تغير فيه شكل الحكم في لبنان بعد الامير بشير عمر الشهابي .

٢٢) الشيخ نادر الخازن ، المعروف بابي نوفل ، نال شهرة بعيدة بعمل الخير والوقفيات ومساعدة المرسلين ورجال الدين ، وقد افاض في مدحه المرسلون اليسوعيون والقنصل استل « انظر صديقة وعامية ص ٢٦٣ وما بعدها . »

٢٣) هو البطريرك يوسف ضرغام الخازن المشهور بشجاعته . فانه هو الذي تولى قيادة اربعمائة فارس قصد بهم الى جبة بشري ليثأر للبطريرك الدويهي الذي كان قد اهانه الشيخ عيسى حاده . وفي ايام هذا البطريرك عقد المجمع اللبناني .

٢٤) انظر « صديقة وعامية ص ٢٩٤ الخ . » تعين الشيخ نوفل قنصلاً ببراءة تاريخها ٤ تموز ١٧٠٨ ومات سنة ١٧٥٣ .

اما الرابع فاسمه الشيخ موسى الخازن اقامته في زوق مكايل الذي يبعد عن البحر نحو ساعة . فهذا الشيخ يضيف في داره رجال الطوائف ايًا من كانوا ويسهّل لهم الاقامة (في كسروان)

ولهؤلاء المشايخ الاربعة صَولة ويمكنهم ان يجندوا ثلاثة آلاف رجل ، ومتى اتحدوا وامير الدروز استطاعوا ان يقاوموا باشا صيدا [٢٥] .

ثم انتقل ده غرانجه الى وصف شمالي لبنان ، قال :

في اليوم التالي زيارتي لباشا طرابلس برحت تلك المدينة قاصدًا دير مار سركيس [٢٦] . الذي هو دير الكرملتان المشيد في جبال لبنان على مسافة ثماني ساعات من طرابلس . والقسم الاكبر من هذا الدير منقور في الصخر . والرهبان يجدون فيه كل اسباب الراحة . ويقيم فيه وكيل وراهبان يستقبلون الاجانب بكل رحابة صدر .

وقد ذهبت الى الارز مع الآباء الكرمليين ، فاذا هو على بعد ساعة من ديرهم . والارز عبارة عن ٤٠٠ الى ٥٠٠ شجرة [٢٧] بينها بعض شجر السنديان الاخضر وبعض ارزات اضخم من الأُخر اربع مرات . وهذا كل ما تمتاز به . شهرتها متأتية عن الرواية القائلة ان روح القدس [٢٨] قد غرسها . وقد وُضعت بعض الحجارة امام الاشجار التي تفوق غيرها ضخامة وجعلت مذابح يقيم عليها القداس الرهبان الموارنة والكرمليون في كل سنة يوم ٥ آب . [٢٩] وفي قعر وادي قاديشا ثلاثة اديرة للموارنة يبعد الواحد عن الآخر ساعة واحدة . اول هذه الاديرة شيد على اسم القديس انطونيوس [٣٠] والثاني يطلق عليه اسم

---

٢٥) ان قوة اللبنانيين كانت ولا تزال باتحادهم ، على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم ، في سبيل الوطن ومصلحته .

٢٦) تركه الكرملتان في ما بعد ، ولم اتوفق الى معرفة تاريخ انشائه .

٢٧) ترى في حواشي النبذة التالية ، التي ستقرأها في هذا العدد ، (ص ٥٩١ ، حاشية ١٥) الاختلاف بين السيّاح على عدد اشجار الارز .

٢٨) هذا من الاقوال التي لا اساس لها في لبنان . انما يقال عن الارز « انه ارز الرب »

٢٩) لم يذكر غير ده غرانجه كثرة المذابح المقامة بهذا الشكل . والقداس يقام بنوع حافل حتى يومنا هذا في عيد تجلي السيد المسيح ، المعروف بعيد الرب ، الواقع في ٦ آب .

٣٠) دير مار انطونيوس قزحيا هو دير قديم جدًا ، ورد ذكره في براءة البابا

قنوبين [٣١] وقد حفر قسم منه في الصخر . وجدت فيه بطريرك الموارنة ، ومعه خمسة او ستة رهبان ، يدير بمساعدتهم شؤون الديانة لانه قليل المعرفة بالقراءة والكتابة . وقد استقبلني الحبر بكل حفاوة حسب عادات البلاد وشرّفني بدعوته لي الى مائدته التي تجلت فيها الاماتة اكثر منها في كل وقت آخر ، فسقينا خلًّا جيدًا ، شربناه لعدم وجود غيره [٣٢] . وشرب البطريرك نخب الملك امامي ولم ينسَ سعادتكم ، لان عادة الموارنة متى استقبلوا افرنسيًا ان يشربوا نخب الملك والوزير . ثم بعد محادثة خرساء دامت ساعة ، ودعت ذا الغبطة الشرقي الذي زوّدني بركات وافرة . الدير الثالث هو دير القديس ايليا . كان قبلًا يخص الكرمليين وقد تخلوا عنه للموارنة منذ ثلاثين سنة تقريبًا ، لكي يقيموا في الدير الذي يقطنونه الآن حيث الهواء انقى من هواء الوادي [٣٣] .

مدخول دير قنوبين السنوي ١٥ الف ليرة (فرنك) يدفع منها البطريرك الف غرش لشيخ الحمادية ، ومثلها لباشا طرابلس ، وما بقي ينفق لاعاشة الرهبان في الاديار الثلاثة ، ولدفع البلص الذي يسببه لهم الروم الارثوذكس من وقت الى آخر . يقيم في جبل لبنان (لبنان الشمالي) روم كاثوليك وموارنة وحمادية . النصارى فيه مظلومون اكثر منهم في كسروان ، لانهم ما خلا الضريبة التي تدفعها كل قرية للحمادية ، يكرهون على تأدية رسوم فاحشة لوالي طرابلس . وجبل لبنان هذا يحكمه شيخ من الحمادية يلتزم ماله من باشا طرابلس ، لقاء مبلغ معلوم من الدراهم وكمية من الحرير .

الحمادية هم من اتباع علي عدو الاتراك [٣٤] الالد ، واشد قطاع الطرق مراسًا ، فانهم لا يكتفون بسلب المارة اشياءهم بل يعدمونهم الحياة .

اينوشنيوس الثالث سنة ١٢١٥ ، بل قبل ذلك اي سنة ١١٥٤ حيث يُذكر في كتاب انجيل قديم ان البطريرك يوحنا اللحفدي ارسل في ذلك العهد الراهب اشيا من دير قزحيا الى دير الكوزبند في قبرس. ٣١) دير سيدة قنوبين بناه الراهب ثاودوسيوس في اوائل الجيل النسكية في لبنان . ثم جعل كرسيًا للبطريرك الماروني . وقد خلط المفتش بين المطارنة والرهبان لان المطارنة يلبسون الاسكيم كالرهبان.

٣٢) لا شك ان ده غرانجه يحب المزح . ٣٣) دير مار اليشع فوق بشري.

٣٤) يريد المسلمين لان هؤلاء الكتبة الافرنج يطلقون اسم اتراك على المسلمين عمومًا دون فرق . ولنا على ما يقوله عن الحمادية في ذلك الوقت شواهد كثيرة لا لزوم لسردها.

تعريف
عن حكم جبل كسروان

معاملت (معاملة) امرات (امراء) الدروز

نشرها وعلّق حواشيها

الخوري بطرس غالب

عثرنا ، بين الاوراق المخطوطة التي جمعناها ، على النبذة التي سبلي نشرها ، فآثرنا إن نذيعها بالطبع مع ما فيها من الاغلاط ، مكتفين بتعليق الحواشي الضرورية لتصحيح ما يجب تصحيحه ، لئلا يعلق في ذهن القارئ شيء من الحوادث التي رواها الكاتب دون ان يتحرّاها وينعم النظر فيها . وقد يقع النظر على روايات مبالغ فيها او مخالفة للواقع ، فلينض الطرف عندئذٍ ويأخذ ما يفيد ، وليعذر الكاتب لانه ككل اجنبيّ عن البلاد يمر فيها مروراً سريعاً لا يتاح له ان يبحث جميع الامور بذاته ، بل يصعب عليه ان يحكم حكماً مستقيماً بشأن ما يسمعه او يراه ، لانه يجهل عادات البلاد واخلاق اهلها وطرق معاملاتهم مع بعضهم بعضاً ومع الاجانب الى غير ذلك من الملحوظات التي لا تفوت القارئ اللبيب .

ومما يُسرد في هذه النبذة يستنتج انها كتبت في سنة ١٧٨٦ ، في عهد البطريرك يوسف اسطفان .

وقد نسخها ، في ١٠ نيسان ١٨٥٨ ، في ڤينا ، الدكتور في العلوم ولتر بهرناور ، معلم اللغة التركية في كلية تلك العاصمة ، وفيها من المعلومات ما لا يستهان به ، ومن المرويات ما يفيدنا عن حكم بعض السياح في حوادث بلادنا . واليك هذه النبذة بنصها ، وقد اصلحنا في الحواشي ما لا بدّ من اصلاحه ، ووضعنا علامات الوقف لزيادة الايضاح :

«من نسخة (رقم) ٥٠٩ من نسخ شرقيات الكتبية (المكتبة) في مدرسة اللغات الشرقيات في مدينة ڤينا . قد اعتنى بتسويد هذا الخبر قلم دقتور ولتر بهرناور مدرّس اللغة التركية في مدرسة كلية ڤينا .

تعريف عن حكم جبل كسروان

معاملت امرة الدروز*

ذيل حديقة الاخبار

Vienne, 10 *avril* 1858 — Dr Behrnawer

هذه الجبال في بلاد سوريا [1] وحدودهم ما بين مدينة طرابلس الشام ومدينة بيروت [2]. وهم منقسمين ثلاثة معاملات اول معاملة جبل لبنان يخص في الحكومة الى طرابلس [3]، سكانه موارنة، موجود فيه اربعة ضيع كبار، الاول ضيعة تسما زُغرتيا [4] تجمع ثلاثة الاف نفس موارنة ولها كنيسة على اسم العدرى [5]، ودير صغير الى رهبان اليسوعية سابقاً، وبعيد في علوّ الجبل،

* سنرى من تحديد ما يدعوه الكاتب «حكم جبل كسروان» انه اطلق هذا الاسم على جبل لبنان بأسره الذي تألف منه كيان سياسي مستقلّ استقلالاً داخلياً يحكمه مقدّمون ومشايخ وامراء من اهاليه.

ولم يكن كسروان خاضعاً لامراء الدروز، ما لم نطلق هذا الاسم على كل من حكمه من غير النصارى مسلمين ومتاولة وتركمان، سواء امتدت سلطتهم على كسروان بأسره او على قسم منه.

١) كان يطلق اسم سورية على جميع البقعة الواقعة بين آسية الصغرى، وما بين النهرين وبلاد العرب، والبحر المتوسّط.

٢) التحديد مغلوط فيه اذا كان قصد الكاتب ان يعرّف تخوم جبل كسروان. لان البلاد التي يدخلها ضمن هذه الحدود لا تعرف بجبل كسروان بل هو قسم منها، وجبل كسروان هو الواقع بين جسر المعاملتين ونهر بيروت. اما اليوم فجبل كسروان لا يمتد الا من المعاملتين حتى وادي نهر الكلب.

٣) اي تابع لحكومة طرابلس.

٤) هي زغرتا، ولا نعلم لاي سبب دعاها «زُغَرتيا».

٥) العذراء. كنيستها هذه دُمّرت ورُممت مرارًا؛ اصلحها اسقف البلدة، جرجس بن عميره، في سنة ١٦٠٧، وهو الذي انتخب بطريركاً وشرّف طائفته بعلمه وفضيلته، ثم الاسقف الياس المدناني، مرشد فرنسيس ده شستويل الحبيس الفرنسي العالم والقديس. وفي اوائل الجيل الثامن عشر، ثم في سنة ١٧٦٢. وقد اضيف الى الكنيسة مدرسة ادارها المرسلون اليسوعيون؛ والفضل في تأسيس هذه المدرسة عائد الى المطران جرجس بنيمين الذي كان من

الثانية وتسمّا ضيعة اهدن [٦] تجمع ثلاثة الاف نفس ايضاً ، ومكانها موقفه جيّد وفريد في سائر بلاد الشرق ، وفيها كنيسة ودير لرهبان اليسوعية . والثالثة ضيعة يسمّوها ضيعة كفرصغام [٧] تجمع الفين نفس . وبعيد عنها ساعة موجود دير رهبان مار انطونيوس للموارنة [٨] ، قانون القديس انطونيوس الكبير [٩] ؛ والرابعة ضيعة بشرّه [١٠] ، هذه الضيعة في الراس الجبل تجمع اربعة آلاف نفس فيها ثلاثة كنايس ، ودير الى رهبان الكرمليين الحافيين ، ومعمّر على اسم القديس سركيس ، ودير آخر على اسم ماَرليشاع لرهبان مار انطونيوس الحلبية ، ودير آخر في وادي الضيعة يسمّا سيدة قنوبين [١١] . هذا الدير سابقاً كان كرسي بطاركة انطاكية للموارنة ، كان سابقاً دير غني جدّاً وارزاقه كثيرة ، ومن قبل ظلم حكام المسلمين التزم بطرك الموارنة ان يخرج منه من مضية خمسون سنة [١٢] والآن متروك يسكنونه عشرة رهبان بلا قانون وارزاقه واراضيه انتركت .

وكذلك يتوجد اربعة ضيع صغار يجمعوا خمسة آلاف نفس ، والجميع موارنة ، ولهم مطران واحد وهو مطران طرابلس وجبل لبنان ويدفعوا ميريهم

تلامذة المدرسة المارونية ثم سقّف على اهدن وبعد ذلك استقال ودخل الرهبانية اليسوعية في رومية ١٧١٦ ، وتوفي فيها بعد ان صرف حياته بالتقوى ، ١٧٥٥ ، وقد ورد سهواً في مجموعة الاب رباط انه استشهد في الحبشة . اما شفيع مدرسة زغرتا فهو القديس يوسف .

٦) اهدن هي مصيف زغرتا . كنيسة السيدة المعروفة بسيدة الحصن ويوجد غيرها مكرّسة لسيدة الحي وللقديس جرجس الذي به تعرف مدرسة اليسوعيين التي كانت تنتقل في الصيف الى اهدن .

٧) كفرصغاب .

٨) دير قزحيا الشهير .

٩) التابع قانون الخ .

١٠) بشرّي . الكنائس الثلاث : مار سابا ؛ ومار سمعان ومار يعقوب ، ويوجد غيرها لم تذكر . اما دير الكرملتان فهو على اسم القديس اليشع .

١١) قنوبين في وادي قنوبين ، لا يزال كرسي البطاركة وقد بنى السيد البطريرك الياس بطرس الحويك فوق الوادي ، قبالة حدشيت ، كرسياً جديداً ، سُمّي جديدة قنوبين .

١٢) ترك البطاركة قنوبين من ايام البطريرك يعقوب عواد الذي ثار عليه اضطهاد قوي ، كان بعض اقاربه الدافعين اليه .

(الاموال الاميرية) الى باشة طرابلس ؛ وكل ضيعة لها حاكم فلاح من الضيعة الذي يقيموه الفلاحين عليهم ويسموه شيخ الضيعة ، ومدخول هذه الضيع من الحريس[١٣] والقمح والزيت والخمر والجبن والعسل والضرى (الذرة) لا غير.

هذا الجبل قديماً كان عامر ، قد دثر الآن . واغلب الموارنة الموجودين في مدن الشرق اصلهم من جبل لبنان . وطائفة الموارنة اصلها سريان ، فلما انشقت طائفة السريان من الكنيسة الرومانية على عهد يوحنا فم الذهب والانبا مارون السرياني الذي تكنوا هذه الطائفة باسمه ، لان لما خرجوا السريان عن بيعة الله استقام هذا القديس متمسكاً في ايمان الكرسي الروماني مع شعب غفير من السريان ، وسميوا من الهراطقة تهذرًا موارنة لكي لا يدعوهم سريان ، واستقاموا متمسكين في الايمان الكاثوليكي الى يومنا هذا[١٤] . ودائماً عاشوا في الفقر وطلع منكم (منهم) علماء واصحاب فضيلة وجاهدوا في بيعة الله كثيرًا . حتى الآن لم يزالوا في جهدًا عظيماً (جهدٍ عظيم)

والآن جبل لبنان ما بقي فيه نصف الربع عمّا كان قديماً . لان سكانه تفرّقت في المدن من قبل ظلم الاسلام لان دائماً جبل لبنان في حكم باشات طرابلس الشام ، كذلك جانب غفير من سكان لبنان نقلت الى جبل كسروان ، وجبل الدروز الذي نأتي بذكرهم آنفاً . وفي رأس هذا الجبل موجود تسعة عشر ارزة[١٥] الذي يذكر عنه الكتاب المقدّس ارز لبنان . وبين هذه التسعة عشر ارزة موجود ثلاثة يعجب منظرهم لانهم باهضين (باهظين) في العلو والغلظ جدًا

١٣) الحريس قد يكون الماشية راخصها المعزى.

١٤) ان هذا الرأي في اصل الموارنة لا يخلو من الصحة في بعض ما جاء فيه . لكنّا لا نعرف ما اذا كان السريان الغير الكاثوليكيين سمّوا الموارنة باسمهم الحالي تهذرًا اي تهكّماً ، انما يسرّنا ان نسجّل شهادة المؤلف باستمرار الموارنة على امانتهم للكرسي الرسولي المقدس . اما ضيع الموارنة في لبنان الشمالي فهي اكثر مما عدّها الرحالة.

١٥) في سنة ١٥٥٠ عدّ الرحالة بلون ٢٨ ارزة ، وفي ١٥٥٦ كان عدد هذه الاشجار الفخمة ٢٦ ، وفي ١٥٧٥ صارت الاشجار ٢٤ ، ورأى الاب دنديني ٢٣ في سنة ١٥٩٥ ، والفارس درفيو عدّها سنة ١٦٦٠ فكانت ٢٢ ، وفي سنة ١٦٩٠ كانت ٢٠ ، وفي سنة ١٦٩٦ عدّها مندرل فلم يجد الا ١٦ ، وفي سنة ١٧٥٠ وجد آخر ١٢ شجرة . وكاتبنا قال انها ١٩ في سنة ١٧٨٠ فلا نعلم كيف عدّها هؤلاء السيّاح حتى حصل هذا الاختلاف بينهم.

وغير ما ذكرنا ما موجود شيء ، فقط المواجيد[١٦] والمياه كثيرة والارض متسعة بل الطرق ردية ومحجرة .

وحكم جبل لبنان عشرون ساعة عرض وعشرون طول .

وانتها حكمها يدخل بلاذ جبيل ، وهذه معاملة وحدها تبع مدينة جبيل ، هذه المدينة في زمان القديم كانت كبيرة ، والآن ضيعة تجمع اربعة آلاف نفس وسكانها النصف موارنة والنصف روم ومسلمين ، وهي مينا على البحر . ويتبعها عشرة ضيع تجمع عشرة آلاف نفس ، معاملة واسعة مثل جبل لبنان ، ولكن خراب . والآن لها اثني عشر سنة تسلمت في تدبير حكم الدروز[١٧] وهي معاملة وحدها ، ومعبور هذه المعاملة حرير وقمح وتتن وحطب لان في جبالها حرش عظيم جداً وجدودها من طرابلس الى جسر يسموه نهر المعاملتين اعني معاملة جبيل ومعاملة جبل كسروان .

ومن هذا الجسر يبدي حكم الدروز من قديم الزمان[١٨] ، فوق هذا الجسر مسافة ساعة ونصف ينوجد ضيعة كبيرة تجمع اربعة آلاف نفس وفيها دير لرهبان الكبوجيين وتسّا غزير . ومشايخ بيت حبيش سكنوا هذه الضيعة منهم الذي يروحوا الى بلاد النصارى ، ويدعوا ذواتهم امرة جبل لبنان ؛ ولكن هذه عيلة قديمة عايشين من شحاده بلاد النصارى ، وجمعوا اموال كثيرة ما لها عدة . ولكن بما انها بالكذب والزور ما تثمر معهم بل تذهب بالحرام ودايماً هم فقره واعتادوا على عدم الشغل ، وصنعة ما يستعملوا ، بل صنعتهم الشحادة ، يروحوا من ضيعتهم فلاحين ويرجعوا باسم امرة النامسا او فرنسا او اسبانيا . ومثل ما يكذبوا في بلاد المسيحيين يرجعوا يكذبوا على اهل بلادهم ويخرجوا

١٦) قد يكون معناها الكهوف.

١٧) تولى الامير يوسف الشهابي بلاد جبيل بكتاب اعطاه اياه عثمان باشا الكرجي والي دمشق ، وذلك سنة ١٧٦٣ وهو حاكم الشوف ؛ ولكنه ليس درزياً بل مسلماً. انما كان يدعى حاكم الدروز ويمتد حكمه تارة الى كسروان ، ومرات الى جبيل والبترون .

١٨) تناوبت الدول على هذا القسم من لبنان ، فتارة حكمه حكام جبل الدروز ، وليس الدروز ، لان المتنيين وامراء بيت شهاب لم يكونوا من الطائفة الدرزية. فكان الواجب ان يقال «من هذا الجسر يبدأ حكم حكّام جبل الدروز.»

(ينفقون) الدراهم الذين يجمعوها بغير ترتيب ويرجعوا فقره بازود مما كانوا. وهم عشرة عيالات اقارب في بعضهم عدتهم مساية نفس نسا ورجال ، وضيعة غزير الذي يسكنوها هم يحكموها من تحت يد امير الدروز ، كل واحد له فلاحين ثلاثة يأخذ منهم الميري ويعطيه لامير الدروز ، والغني منهم يعبر له في السنة مايتين غرش من ارضه لا غير ستناني(؟) الفلاحين ، وعندهم ديرين في ضيعتهم دير الواحد فيه خمسة عشر راهبة ، قانون مار انطونيوس ، ودير الآخر للكبوچين دائماً يسكنه راهب واحد يستعمل صنعة الحكمة حتى يعيش مع خدامه ، هولاى امرة بيت حبيش ، وبرّا ضيعتهم ما يحكموا ولا على حيوان . ومن ضيعتهم مدخل جبل كسروان[١٩]

معاملة جبل كسروان

هذا الجبل يبتدى من جسر المعاملتين الى مدينة بيروت تسع ساعات طول

---

١٩) لا نعلم ما الذي حمل المؤلف على هذا التهجّم واتهام عائلة شريفة ، نبغ منها رجال خدموا وطنهم ، بانها عائشة من الشحاذة. ويكفي مراجعة التواريخ الصادقة حتى تعرف من هم الحبيشيون ، وان الذين أموا اوربة منهم قد أكرهوا على ذلك بسبب المظالم والاضطهاد لاجل امانتهم في خدمة بلادهم وبسبب تغلّب الحكام . وقد راجعنا ما لدينا من المستندات التاريخية ، وهي كثيرة ، فلم نجد ذكراً الا لثلاثة من العائلة الحبيشية الكريمة هجروا وطنهم لفقرهم وتغيّر الدهر عليهم . وقد اوصى جم رجال الدين والدنيا . واذا كان احدهم اساء التصرّف فلا يمكن ان ينسب عمله الى عائلته عموماً ، وكأني بالمؤلف قد خصص بالحبيشيين ما كتبه قبلًا الموفد الفرنسي غرانجه ، او الفارس درڤيو ، عن الموارنة عموماً واحكم مما تقدم في وصفه للمرسل الكبوشي في غزير الذي عزا اليه التعيّش من صنعة الحكمة ، وهو يستعملها لتخفيف ويلات المرضى والوصول الى شفاء نفوسهم من وراء الاعتناء باجسادهم.

دير الراهبات هو دير مار الياس غزير الذي يتبع راهباته قانون الرهبان الانطونيين المنتمين الى القديس اشعيا . بناه الشيخ ماريه بن حبيش ووقف عليه بعض العقارات بالاتفاق مع اقاربه واهالي غزير سنة ١٦٦٥ .

وقد اشتهر بين الحبيشيين المطرانان يوسف وفيلبّوس حبيش ، وطربيه حبيش الذي كتب له الامير احمد المعني ولاية غزير (١٦٨٠) والبطريرك الشهير الحازم يوسف حبيش ، والخوري اسطفان حبيش الذي كان وكيلًا للبطريرك الماروني في الاستانة ، وعلى يده مات فيها الامير بشير عمر الشهابي الثاني ، ثم شديد بك حبيش قنصل تركية في باريس ، وطالب بك حبيش ياور السلطان عبد الحميد ، وغيرهم ممن لم يحضرنا اسمهم عند كتابة هذه السطور.

على البحر ، اما لكي تدوره دايرة الخيَّال ما يدور في خمسة ايام لانه واسع ، موجود في هذا الجبل نحو ستون ضيعة تجمع سبعون الف نسمة كلهم موارنة كاثوليكية ، وموجود ثلاثة رؤساء عام لرهبان مار انطونيوس ، اولاً رئيس عام رهبان مار انطونيوس الجبلية[٢٠] ، عدة ديورته ثلاثة عشر دير يجمعوا مايتين وخمسين راهب كهنة واخوة ، وديورتهم كلها عامرة ، لهم ارزاق كافية الى معاشهم وزود . وجميعهم فلاحين يشتغلوا في الارض ، وقانونهم قابلين تحت يميت[٢١] اكل اللحم ، دائماً صايمين عن اكل اللحم الّا عند ضرورة مرض قوي . والثاني رئيس عام رهبان مار انطونيوس الحلبية ، هولاى الرهبتين كانت واحدة ابتدأت اصلها من الحلبية . ولكن لاجل ان الحلبية ضعفا في الجسم ومرتبتين (مرتبين) في الراحة ، ويحبّوا الرياسة ، ورهبان الجبلية راسهم يابس مثل مسكنهم ، وقع بينهم انشقاق وعدم الوفق ، وتعبوا رومية كثيراً في هذا الانشقاق مع بعضهم[٢٢] الان لها عشرة سنين الكنيسة الرومانية قسمتهم وصاروا رئيسين عام ، ولما انقسموا ، عدة رهبان الحلبية خمسون راهب ولهم خمسة ذيورة فقط ، وديورتهم كافية الى معاشهم . والآن في هذا الوقت ما بقي منهم الا ثلاثون راهب فقط ، لهم رئيس عام واربع مدبرين ، ولهم دير في رومية فيه خمسة رهبان[٢٣] . وثالث ريس عام على رهبان مار انطونيوس

٢٠) الرهبان البلديون اللبنانيون . واما عدد اديارهم في ذلك التاريخ فكان ١٨ ديراً وهي اديار : رشميا ، وصير ، وقزحيا ، وطاميش ، ومشموشة ، ومار الياس الراس للراهبات ، ومار يوسف البرج ، وحوب ، ومار موسى الدوّار ، والناعمة ، وبنابيل ، وبرسنين ، وميفوق ، وكفيفان ، ودير البنات ، والكحلونية ، ومطوشي في قبرس ، ومار سابين بسكنتا للراهبات .

٢١) الامتناع عن اكل اللحم .

٢٢) بسبب عدم توافق الاخلاق والتربية ، وبسبب قبول رهبان كثيرين اصلهم من طوائف غير كاثوليكية ، او من غير الطائفة المارونية ، والفاء بعض العادات المشروعة ، ساد الخلاف ، فسعى الاحبار الاعاظم باصلاح الحال فلم يتوفقوا . وكان للرهبانية اعداء خارجون عنها لم يدعوها ترتاح وتستجمع افكارها للتأمل في الحالة التي صارت اليها . وهذا ما دعا المؤلف الى القول انهم اتعبوا رومية كثيراً . والحقيقة هي ان الفريقين تشبثا بنظريتها فحكمت رومية انذاك ان القسمة هي اسهل طريقة لاعادة السكينة والراحة ، فاثبتتها .

٢٣) هذه الاديار هي : مار ليشاع الوادي المقدس ، ذكره المؤلف قبلاً ؛ ثم دير اللويزة حيث عقد المجمع اللبناني ، ودير مار بطرس كريم التين ، ودير مار بطرس ومرشلّينوس في

يسمونهم رهبان مار اشعيا جبليه ، والدير الذي ابتدت رهبتهم فيه معتمر على اسم مار شعيا ، سُمّيت الرهبنة على اسم الدير منشأهم ، هولاى الرهبان عددهم ماية راهب ، لهم عشرة ديورة ، كلهم فلّاحين ، ومـا هم منظومين [٢٤] ، لهم قانون مثبت من رومية على قدّهم وديورتهم مكتفية ، ولكن يحبّوا الدوران في الشحاده [٢٥] ، كثيرين منهم يروحوا الى بلاد المسيحين ويتـدّوا انطنيـانيين يضعون هذه العـلامة T على ثوبهم [٢٦] ، وكل الـذين يتوجهوا يجمعوا مال من المسيحين ، ما يرجعوا الى ديورتهم بل يجمعوا المال وعملهم هواهم فيه ويصرفوه في الحرام [٢٧] . ومن قديم الزمان كان في جبل كسروان رهبان اصحاب فضيلة وقوانين متشددة وقداسة ظاهرة وعمل خير منهم وافادة انفس ، ولكن الآن بخلاف صاروا مثلاً رديناً وسبب ذلك كثرة توجهم الى بلاد المسيحية ، لان

رومية الذي بيع واشتري بثمنه محل آخر حذاء دير مار بطرس في السلاسل ودعي باسم القديس انطونيوس الكبير ، ودير مار الياس شوياً . اما الانطونيون فاديارهم كانت ١٣ ديراً : مار اشعيا غزير ، مار عبدا المشمّر ، بكركي ، انطلياس ، اهدن ، عوكر ، دير القلعة ، مـار روكس ، قطين ، عين القبو ، بعبدا ، جزين ، مار ادنا الفتوح .

٢٤) لم نفهم ما يريد بهذه الكلمة .

٢٥) هذا الوصف لا يتفق مع الواقع فقد يكون المؤلف قد انخدع بما سمعه وبما رآه من دوران بعض الرهبان لجمع حسنات السبت ، او اشتراكات المؤمنين في القداسات مع الرهبانية . وهذه العادة لا تزال متّبعة حتى اليوم . ومما قد يكون زاد في اعتقاد الكاتب رؤيته الرهبان الكائنين خدمة الرعايا ، فانهم بالطبع خارج اديرتهم . ونعرف من التواريخ الصادقة ان عدد الرهبان سنة النسبة قد بلغ ٢٥١ كهنة واخوة ، فانضم الى البلديين ١٩٠ راهباً والى الحلبيين ٦١ . اما رهبان مار اشعيا فلم نعلم بالتدقيق كم كان عددهم في سنة ١٧٦٨ . اما التواريخ التي يذكرها المؤلف فهي غير صحيحة عموماً .

٢٦) هي رقعة زرقاء اللون بشكل عكّازة القرّاءة وقد اطلق عليهم اسم الزُرَيقية لهذا السبب .

٢٧) استأنف المؤلف حملته فان الرهبان وعددهم قليل جدّاً ، ما توجّهوا لبلاد النصارى الا مدفوعين بعامل الحاجة . لان الحكام النير المؤمنين كانوا يرهقونهم بما يترلونه بهم من الظلم فكانت الديون الفادحة تتراكم على الاديار وليس لها مورد لتستهلكها فيضطر الرؤساء الى مد يد الاستعطاء الى اخوانهم المسيحيين في اوربة ، ورغم ما بذلناه من السعي للتنقيب عن الذين ذهبوا الى بلاد النصارى لاجل هذه الغاية لم نتوفق الى معرفة اكثر من ستة من الرهبان طيلة قرن كامل .

جرت عادة كل ما انوجد راهب كسلان وقليل العباده يغش روساءه بطعمة جمع المال ويعمل اوراق على ما في خاطره ويدور في الدنيا يغش الناس[٢٨] .

ومن مدة ثلاثون سنة قبل تاريخ هذا الخبر راح راهب واحد وكيل رهبنة مار انطونيوس اسمه البادري ارسانيوس شكري حلبي ارسله رهبنته مع رفيق له البادري بنيامين (بنيمين زكريا) كان على الرهبنة خمسون الف غرش الى تجار الفرنساوية استقاموا (في) فرنسا وايطالية خمسة سنين وجمعوا المبلغ الدين واوفوا الدين ورجعوا الى طاعة روساهم[٢٩] ، الواحد حين وصوله مات . والآخر صار مطران على حلب الذي هو الآن في حلب رجل قديس وعمل خير ولم يزل الى الآن ذو قداسة عظيمة جدًا ، ومن بعدهم نخبر عن عدد الذين راحوا شحدوا اولًا توجهوا اثنين واحد اسمه البادري لويس نادر والبادري انطون صالح ، الواحد من صيدا والآخر من جبل كسروان ، وعملوا ذواتهـا (ذواتهما) روسا بالزور واباتية[٣٠] ووضعوا صليب مثل المطارين ، والحال قط ما جرت العادة في كنيسة الشرقية ان المطارين يضعوا على صدرهم صليب الَا فقط في قداس الاحتفالي لا غير حتى ولا البطرك له عادة ان يضع صليب في عنقه الا في القداس فقط ، هذه عوايد الكنيسة الشرقية . كذلك ان رهبان مار انطونيوس الذين هم في جبل كسروان الآن مشددين وقوانينهم مثبتة من رومية كحسب رتبة

٢٨) في هذا التعميم افتراء محض .

٢٩) ان الابوين المذكورين ارسلا الى اوربة بامر روسائهما مزودين بمكتوب توصية من قنصل فرنسة في طرابلس .

٣٠) هذا اختلاق ايضًا لانه وقع في يدنا كتابات توصية بالابوين المذكورين من الكردينال مولينو اسقف براشيا ومطران باتراس فرنسيس كارافا . ولا صحة لقول الكاتب ان المطارنة الشرقيين لا يلبسون صليب الصدر الا في القداس الاحتفالي ، فان هذه الميزة هي للاساقفة يتمتعون بها متى شاؤوا وللرؤساء العامين انعام بذلك ، وللسيد البطريرك ان ينعم بلبس الصليب والخاتم على من يريد مكافأته . ويصح قول الكاتب فقط في اساقفة الطائفة الملكية الكاثوليكية الذين ما ابتدأوا بلبس الصليب الصدري الا من مدة ، لانهم كانوا في ما مضى يضعون على صدورهم ايقونتين معلقتين بسلسلتين . والابوان لويس نادر وانطون صالح ذهبا لاستنداء الاكف مساعدة لدير قبرس ومواردها الذين زهقت نفوسهم من الظلم والبلص .

الحبسا.[٣١] بخلاف رتبة رهبنة مار انطونيوس الغربيين ، لان قانونهم متشدّد بازود من الكبوچيين باكل الاحم (اللحم) ممنوع عنهم تحت خطأ مميت وثيابهم خشنة وقصيرة وحافيين ، وقط روساهم ما يلبسوا حبروي الا فقط رئيس العام له اجازة من مجمع المقدس ايام معدودة في السنة ان يقدّس حبروي في ديره فقط لا غير . ولمّا ينعزل يرتفع عنه الاجازة ولا يعود يقدر يقدّس حبروي . اما رهبان الدى (الذين) يدوروا الغرب يشحدوا ، من الجبل ، من قبل غشمهم وعدم فحص السادات المطارين يلبسوا حبروي وهذا ضد الرتب الكنائسية غرباً وشرقاً . ويكون محقق عند كل مسيحي ان كل الرهبان الذين يستعملوا الشحادة ويدوروا في بلاد المسيحيين ما احد منهم يرجع الى ديره ، وتحقيقاً لذلك نخبر عنهم مستقصراً انه من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٨٠ قد راح الى بلاد المسيحيين قدر اربعين راهب ، من هولاي الاربعين ما يرجع عشرة رهبان الى ديورتهم بل انهم البعض جمعوا الاحسان وتصرفوا فيها واستقاموا في بلاد النصارى رجعوا وعملوا تجارة وعصيوا على روسايهم ، والبعض منهم راحوا الى مصر ، والبعض الى حلب وعاشوا عيشة ردية ، والبعض في قبرص قد احتموا عند المسلمين لكي يعيشوا على خاطرهم ، والبعض رجعوا الى الجبل واعطو الى امرات الدروز بعض الذي شحدوه حتى يحموهم من روساهم لكي يعيشوا على خاطرهم عيشة ردية . اذاً فليتحقق القارئ بذلك لان هذا الاعلام قليل من كثير ويغني لصاحب المعقول من هذا الصدد[٣٢]

وعدد الديورة جملة الذي ذكرناهم وسوف نذكرهم ثلاثة وسبعون دير

---

٣١) انه كان في الطائفة المارونية رهبان « عبّاد » لا ينضمّون الى جمعية ، بل يعيشون في اديرة مستقلة (بعضها عن بعض) وقوانينهم قوانين الحبساء القدماء الذين كانوا يعيشون عيشة قشفة للغاية ، ولا يزال عدد منهم حتى الساعة . اما الرهبان المنضوون تحت قانون القديس انطونيوس فانهم يؤلفون رهبانية قانونية تخضع لرئيس عام واحد وقانون واحد مثبت من الكرسي الرسولي .

٣٢) ان هذه الفقرة تستدعي تصحيحات كثيرة نكتفي بما يلزم منها : ان الانعام بالحبريات المعطى للرئيس العام يمكنه من التمتع به في جميع اديرة الرهبانية كل مرة اراد . والرئيس العام المعزول تبقى له الانعامات ، لكنه لا يلبس الخاتم والصليب ولا يقدس بالحبريات الا باجازة

وثلاثة مدارس لا غير[٢٢]

وبطريرك الموارنة الآن مسكنه قرية اغوسطا في الدير الذي كان عمره ، وهو مطران ، للراهبات وعمل كرسيه ، والآن له عشرون سنة بطرك وساكن في هذا الدير وعامل فيه كابلًا جيدة على اسم مار لويس سلطان فرانسا . اما الدير مؤسس على اسم الطفل . وهذا الدير على طرف الضيعة ما في موجود

الرئيس العام الحالي . اما ما يقوله الكاتب عن الرهبان الذين يذهبون للشحادة ففيه من الاختلاق ما فيه : يدعي ان ما من راهب يذهب الى بلاد النصارى للشحادة فيرجع الى ديره ، وهو قد سبق وقال عن الاب ارسانيوس شكري والاب بنيمين زكريا انهما قاما بمهمتها افضل قيام وعادا الى بلادهما وسيم احدهما مطرانًا على حلب وعاش عيشة القديسين. اما الابوان لويس نادر وانطون صالح فانهما عادا الى قبرس . اما مصر فقد ارسل اليها الاب موسى هيلانه الشامي لكي يؤسس رسالة فيها . وقد اسندت وظائف هامة الى هؤلاء الرهبان في رهبانيتهم في مواقف مختلفة ، وكنا نود لو ذكر صاحب النبذة اسماء الرهبان الذين ذهبوا الى اوربة للشحادة وقادتهم الغواية الى ما يتهمهم به ، لا شك ان ذلك صعب عليه : اما اذا اضاف الى من ذكرنا الرهبان الذين أُرسلوا الى رومية او ذهبوا اليها للدفاع عن قسمة الرهبانية او تمكين وحدتها وعدد هؤلاء كثير فيصبح عددهم وافرًا . ولكن هؤلاء لم يذهبوا للشحادة ولدينا من بعض هؤلاء الرهبان رسائل تبين حقيقة الحال واسباب الخلاف .

حبذا لو اورد المؤلف اسماء الذين احتموا عند المسلمين لكي يمشوا على خاطرهم ، ولكن ما اسهل الشكوى ؟ ان كثرة ما عثرنا عليه من الاغلاط جعلنا ان نصلحه ببعض الحدة لان للحقيقة حقوقًا يجب على كل فرد ان يثبتها ويدافع عنها ولو كان ما سرده صاحب النبذة مطابقًا للواقع في عمومه لوافقنا على قوله دون ما خوف او وجل . فاذا قاد احدهم نكد حظه الى مجاوزة القانون فلا يسوغ لنا ان نتهم رهبانية باسرها بما لا يصح نسبته الا الى بعض افرادها .

٢٢) ان عدد الاديار في السنة التي كُتب فيها هذا «التعريف» كان قد بلغ ٣٦ ديرًا للرهبانيات الثلاث ذكرناها في حاشية سابقة . اما سائر الاديار فهي: قنوبين ، مار عبدا ، مار سيدة مشموشة ، مار ضوميط البوار ، مار يوسف الحصن في غوسطا ، بقلوش ، سيدة البشارة في الزوق ، مار جرجس ساحل علما ، دير الزيارة في عنطورا ، دير حراش ، سيدة البزاز ، مار يوسف الحرف درعون ، مار الياس بلونه ، مار موسى بلونه ، دير الراهبات في شويا ، مار انطونيوس بقعاتا ، دير البقيعة ، عين ورقة ، الرومية ، سيدة الحقلة ، مار عبدا هرهريا . اما المدارس فهي مدرسة عينطورا ، ثم مدرسة زغرتا ، ثم دير عين ورقة المحول مدرسة . ويجب ان نضيف الى ما تقدم ذكره بعض الاناطيش حتى يحصل العدد المطلوب ، وهي اناطيش طرابلس ، وبيروت ، وصيدا ، وجبيل ، وزحلة ، ودير القمر ، وقب الياس . ولا اعلم هل يقصد هذه الاديار التي سميتها ، لكني لم اجد ذكرًا لاديار عامرة غير التي اوردت اسماءها .

كثير الا الحجارة ، شرح المنظر ، ولكن رزقه قليل والآن البطرك يخرج[٣٤] على هذا الدير ، اما اذا مات البطرك ، غيره من البطاركة ما يقدر يسكن فيه الا بخاطر الراهبات واسم البطرك المذكور يوسف بطرس اسطفاني مطران بيروت سابقاً[٣٥] ، وله اربعة عشر مطران اولهم المطران ارسانيوس شكري رئيس اساقفة حلب وهو حلبي ، والثاني المطران ارسانيوس عبد الاحد رئيس اساقفة الشام ، والثالث الياس جميل مطران قبرص ، والرابع مطران انطون على مدينة عرقه ، ومطران جبرايل مبارك مرسوم على حمص ، والسادس ميخايل فاضل عكاوي مطران صيدا وعكا ، والسابع ميخايل الصايغ من جبيل ومطران جبيل ، رافايل كرواني مطران بعلبك الثامن ، والتاسع اثاناسيوس كرواني مطران على معاملة الدروز ، اغناطيوس دياب حلبي مطران صور وهو العاشر ، الحادي عشر المطران جبراييل رشهاني على حماة ، الثاني عشر المطران عبدالله طرابلسي على الاتقية ، حنا اسطفان الثالث عشر مطران بيروت ، الرابع عشر ايرميا غسطاني مطران على الكرسي الانطاكي ، هولاى المطارنة للطايفة الموارنة[٣٦] ، اما الخوارنة الرعايا وكل كهنة الموجودين موارنة نحو الف

٣٤) ينفق. ٣٥) البطريرك يوسف اسطفان من غوسطا ، تلميذ المدرسة المارونية الرومانية الاولى ، المشهور بعلمه وتقواه ، سيم اسقفاً على بيروت في السنة ١٧٥٠ ، انتخب بطريركاً في ٩ حزيران ١٧٦٦ . بنى دير مار يوسف الحصن في عقار ورثه من ابيه . حدثت في عهده حادثة الراهبة هندية . وهو مؤلف شهير في الطقوس البيعية وله فروض تصلى في ساء بعض الاعياد ، في عهده تمت قسمة الرهبانية اللبنانية الى حلبية وجبلية (١٧٦٨) طلب قنصلية فرنسة للشيخ غندور السعد فنالها ١٧٨٧ . وتحولت في ايامه عين ورقة الى مدرسة اكليريكية طائفية . انتقل الى راحة الصالحين في ٢٢ نيسان سنة ١٧٩٣ .

٣٦) قد خلط الكاتب الحابل بالنابل في ايراد اسماء المطارنة. ولذا رأينا ان نصحح ذلك ونذكر الاساقفة الذين كانوا في قيد الحياة في سنة ١٧٨٦ :

ارسانيوس شكري ، مطران حلب ، من ابناء الرهبانية اللبنانية ، سيم اسقفاً في ٢٦ اذار سنة ١٧٦٢ وقد نوه به المؤلف سابقاً . توفي في ايلول ١٧٨٦ في دير عين شقيق.

ارسانيوس عبد الاحد ، مطران دمشق ودير حراش ثم نقل الى بعلبك ، سيم ١٧٥٥ وتوفي ١٧٧٢ . ومنهم من قال انه توفي في رومية ١٧٨٨ .

الياس الجميل ، مطران قبرس . سيم ١٧٦٨ وتوفي ١٧٧٩ قبل تاريخ النبذة .

انطون محاسب ، سيم اسقفاً على عرقا وجبيل والبترون ١٧٦٨ توفي ١٧٨٠ قبل كتابة النبذة .

كاهن ناقص ولا زايد ، رهبان الديورة وكهنة عوام ، ورتبتهم في كنايسهم بالسرياني وفرض صلاتهم ايضاً وقداسهم يقدروا يقدسوا بالعربي والسرياني ، واعيادهم واصوامهم تبعوا اللاتينية وما لهم عياد خصوصية في مدار السنة[٣٧] ويعملوا رتبهم وعيادهم مجهراً مثل بلاد المسيحين من غير خوف من الامم الغريبة ، وحكام جبل كسروان هم امرات الدروز ، هولاى الحكام قديمين في هذا الجبل نحو ماية وخمسون سنة[٣٨] ، اصلهم من بلاد حوران شمالي

جبرائيل مبارك الثاني ، مطران بعلبك ، سيم اسقفاً في سنة ١٧٦٤ توفي ١٧٨٨ .

مخائيل فاضل ، مطران عكا ثم صور ثم بيروت ، ١٧٦٢ توفي ١٧٩٥ بعد ان انتخب بطريركاً .

مخائيل الصائغ ، مطران دمشق ، سيم ١٧٤٦ ، توفي ١٧٥٥ على ما نظن ، قبل النبذة .

روفائيل الحاقلاني ، يدعوه كسرواني ، سيم على طرابلس ١٧٦٥ ثم دمشق ، توفي ١٧٨٠ قبل النبذة .

اثناسيوس كسرواني ، وهو الشنيعي من غوسطا ، سيم ١٧٦٨ ، توفي ١٧٧٨ قبل النبذة .

اغناطيوس دياب ، والاصح جرمانوس ، وكان اسمه الاول ارسانيوس ، رقي الى اسقفية حمص ١٧٦٩ ، ومات في دير القمر ١٧٩٩ ، ودفن في سيدة التلة .

جبرائيل رشماني ليس مطراناً ، وقد يكون المؤلف خلط بين المطران والرئيس العام فانه وجد رئيس عام للرهبانية البلدية يدعى عمانوئيل الرشماني (١٧٦٣–١٧٦٩) ، ولكن ما ابعده عن تاريخ النبذة .

عبدالله طرابلسي ، هو عبدالله نشير ، سيم على عرقا ١٧٦٢ . ولم نعلم سنة وفاته .

حنا اسطفان ، سيم على اللاذقية ١٧٣٢ ثم نقل الى بيروت ١٧٤٣ ، توفي ١٧٧٩ قبل النبذة .

وبعد ايام الكاتب كان المطران بولس اسطفان مطراناً على قورش ثم نقل الى جبيل والبترون ، سيم ١٧٨٢ – ١٨٠٨ . يوسف نجيم على بيروت ١٧٧٩ – ١٨٠٢ لا ارميا الذي مات ١٧٧٩ . وفي الكاتب المطران مخائيل الخازن ١٧٦٢ - ١٧٩٤ .

٣٧) هذا الكلام غير مطابق للواقع ، لان الموارنة حافظوا ، ولا يزالون محافظين ، على اصوامهم . وقد حاول بعض البطاركة ان يجعلوها كاصوام اللاتين ، فلم يرضَ الاحبار الاعاظم . انما جرت العادة ان يقلّل ايام القطاعات التي تسبق عيد الميلاد ، وعيد مار بطرس وبولس ، وعيد انتقال السيدة . واما قوله انه ليس للموارنة اعياد خصوصية ، فناتج عن جهل المؤلف حقيقة الاحوال ، فان للموارنة اعياد القديسين مارون ، ويوحنا مارون ، والثلثماية والخمسين شهيداً ، تلامذة مار مارون . وهم يحتفلون بغيرها من الاعياد ، بالاشتراك مع الشرقيين ابناء الكنيسة الكاثوليكية . وصحيح ما يقوله عن احوال لبنان في تلك الايام ، فان الامراء المعنيين والشهابيين لم يقلقوا النصارى في معتقداتهم ، بل وجد منهم من ساعدهم واكرمهم وولى اعيانهم المناصب الرفيعة .

٣٨) يشير الكاتب الى عهد الامير فخر الدين الذي سعى لضم كلمة اللبنانيين وتأليف

مدينة حلب[٣٩] وقبلهم كانوا حكام من هذه البلاد امرة بيت معن ، ولما ماتوا بيت معن ، اتوا مكانهم اميرين اخوة يسمو اولاد الشهاب ، والآن صاروا نحو ماية امير . والكبير الذي فيهم يحكم والآخر كلهم تبعة ، ولكن منقسمين في ارزاقهم واموالهم ، وديانتهم عبادة الاصنام وليس الّا . اما في الظاهر مسلمين ، وفي الباطن دروز . وسوف نتكلم عنهم جايلًا وفي محله . وتحت يدهم في الحكم مسعفين مشايخ اولاد الخازن[٤٠] . هولاي المشايخ عيلة قديمة جداً قبل ان يحكموا امرات الدروز في كسروان ، اصلهم اخين كانوا ساكنين في جبل كسروان ومزوجين ولما حكموا هولاي الامرة ، وكلوا هولاي الاخين يجمعوا الميري من الفلاحين الموجودين في كسروان ويدفعوه للحكام ، وبما انهم كانوا يخدموهم في امانة وصدق ، الامرة قدموهم وسلموهم بلاد كسروان كلها في تصريفهم ، وكثروا وامتدوا في كل جبل كسروان . والآن صاروا نحو ماية نفس عدا النسا من هولاى الاخين ، وقنوا اموال وارزاق ويسموا مشايخ البلاد اعني متقدمين والامرا يعتبروهم جداً وفي بلاد المسيحيين يسموهم امرة جبل لبنان . وقد اخذوا هذا الاسم من البابا في رومية بواسطة المنسيور يوسف السمعاني شهد فيهم انهم حكام بلاد كسروان وهم امرت البلاد والكنيسة اشهرة (اشهرت) اسمهم امرات جبل لبنان . ولكن بالفعل ما هم امرا بل الامرا هم الدروز من قديم الزمان[٤١] . اعطتهم الكنيسة هذا الاسم لان متقدمينهم فعلوا خيراً عظيم في دولة مستقلة قوية .

٣٩) يقصد آل شهاب الكرام ، الذين يقال عنهم انهم من شهبا في حوران ، ولكن حوران ليست شمالي مدينة حلب . اما زعم المؤلف ان آل شهاب هم عبدة اصنام فليس له نصيب من الصحة ، فان الشهابيين مسلمون تنصّر قسم منهم . ولا نعلم من اين استنتج ان الشهابيين في باطنهم دروز .

٤٠) ان بيت الخازن اشتهروا بوفائهم للمعنيين الذين ولوهم على كسروان ، واحياناً على مقاطعات اخرى . اما الشهابيون فاستخدموا جميع ابناء العيال الكبيرة في لبنان من نصارى ودروز .

٤١) ان آل خازن نالوا مقاماً رفيعاً بما اتوه من الاعمال في جانب البلاد والدين ، فنالوا مقامهم بجدهم واستحقاقهم ، وشرفتهم الكنيسة بلقب فرسان وكتبت اليهم تشكر فضلهم وتبغ

حماية ايمان الروماني في بلاد كسروان ، ولما تضايقوا طلبوا المعونة من الكنيسة لكي يدوروا يجمعوا احسان لاجل معونة الايمان ، ولكي الملوك المسيحيين تحسن اليهم بزيادة اعطوهم اسم امرة . وامرار عدة راح منهم اناس الى بلاد المسيحيين وجمعوا احسان كثيرة وعملوا فيها خيراً . وقد طلع في جبلنا هذا اناس منهم جهال ، وكثروا جداً ، وما لهم صنعة ولا مكسب عملوا صنعتهم الشحادة في بلاد المسيحيين وجمعوا احسان كثيرة وعملوا فيها خيراً. واستعملوا ذلك بكثرة من غير ان يمشوا في طريقة صالحة وصار كل من اراد من الكلانين يعملوا لهم بدلتين ثياب جيدة ويسمى ذاته امير جبل لبنان. والحال امارات (امراء) جبل لبنان ما قط في الزمان احد منهم لزم له ان يشحد بل دائماً من قديم الزمان سلكوا كاملين مثل امرات بلاد المسيحيين . ودائماً عملوا خيراً ما للموارنة وشيدوا لهم كنايس وديورة بكل ما يمكنهم ولا قط ظلموا مسيحي ولو كانوا عباد صنم ، بل انهم يحبوا الكاثوليكية اكثر من محبتهم الى اهل جنسهم ويعتقدوا في الموارنة كثيراً وخاصةً (خاصةً) في هذا الزمان على كثرتهم تقاسموا ارزاقهم صار معبورهم قليلاً وشاهدوا اقداميهم (القدماء منهم) حصل لهم خيراً من بلاد المسيحيين صاروا الجميع يرغبوا التوجه[٤٣] .

عليهم انعاماتها . وشرفهم ملوك فرنسة بان عهدوا اليهم بقنصليتهم في بيروت . وقد اطلق عليهم اسم امراء جبل لبنان من قبل السيد يوسف سمعان السمعاني . وسنأتي على نبذة تاريخية في هذه العائلة ان شاء الله . اما امراء البلاد فلم يكونوا قط من الدروز كما يتضح من مطالعة التاريخ .

٤٣) عاد المؤلف الى انتقاده المستهجن ، ونسب الى عدد غير يسير ما قد يكون اتاه بعض الجهال او الكسالى . ولا نعلم انه ذهب عدد كبير منهم الى بلاد النصارى بقصد الشحادة . ولا نعرف من اين اتى بالرواية الآتية اي « ان كل من اراد من الكسالى يعمل بدلتين ثياب جيدة ويسمي ذاته امير جبل لبنان. »

ان حكام جبل لبنان عملوا خيراً مع الموارنة اذا كان القصد من كلمة حكام الامراء المعنيين والامراء الشهابيين . لكن اذا قصد بنو سيفا وبنو عساف وسوام فلا يمكن ان يقال عنهم مثل هذا القول ، لانهم ظلموا وبلصوا واستبدوا . اما ان يحب الامراء الكاثوليكيين اكثر من بني جنسهم ، فذلك ناتج عن امانة الكاثوليكيين في الخدمة واخلاصهم لمن ينتادون اليه .

والآن حسبما اتت الاخبار بان الملوك قد اطلعوا على كافة امورهم منعوهم عن الشحادة وحسناً جرى ذلك ، لان الآن صاروا يتعبوا في الشغل ويمتنعوا عن هذه الصنعة الممقوتة[٤٣]

وهولاى المشايخ متصرفين في بلاد كسروان من قبل الامرا عدد عشرون ضيعة منهم عشرة ضيع تجمع كل ضيعة نحو العشرة الالف نفس ، وعشرة الآخرة تجمع كل ضيعة نحو من اربعة الاف واقل كلهم فلاحين ، مدخولهم من عمل الحرير ويزرعوا قمح وحمص وضرى (ذرة) وقطانى ، واكثر مدخول جبل كسروان حرير ويصير جيد كثيراً . والفلاحين ماهرين كثيراً في عمله وكل فلاح يطلع له نحو اربعين ليبرة حرير ، الامير يأخذ النصف والنصف الآخر يبقى للفلّاح . ومن هذا النصف الذي يبقى له يلزمه ان يعطي خراجه ويعتاش منه كل السنة . ومعاش الفلّاح ضيق جداً وبغاية الفقر ، لان الشعب غفير في جبل كسروان والارض ضيقة ومحجرة وكلها جبال وقليل ارض جيدة[٤٤] .

المبرور معناه المدخول .

٤٣) ان الذين توجهوا بقصد الشحادة الى بلاد النصارى لم يكونوا من ذوي الصفات الممتازة ، بل احترفوا هذه الحرفة لتوانيهم وعدم تعوّدهم الشغل . وقد اقلقوا الحكومة هناك وازعجوها بمطاليبهم ، فاتخذت تدابير صارمة بحقهم . واصبح كل مَن سافر الى بلاد النصارى عرضة لاشتباه الحكومة به .

٤٤) في كسروان اكثر من عشرين ضيعة ، ولكن لا يوجد ضيعة تحوي عشرة آلاف نفس . وربما وجد قرية واحدة تضم اربعة نفس خصوصاً في تلك الازمنة العصيبة . وبالنتيجة ان مجموع السكان مبالغ فيه جداً . لانه لو كان في عشر قرى مائة الف نفس وفي عشر قرى اربعون الف نفس لكان عدد سكان كسروان في اواخر الجيل الثامن عشر ١٤٠,٠٠٠ نفس . وهذا ما لم يحلم به . واما القول ان الفلاح يعيش من مدخول الحرير وحده فليس مطابقاً للواقع ، لان المدخول من اللبن والجبن والاحراش والعنب والتين والخرنوب لا يستهان به . نعم ان معاش الفلاح ضيق لاسيما بعد ان هجر اللبناني وطنه ، او اذا قاسه المؤلف بعيشة اوربة في مدنها العامرة . واذا كان قد حصل ضيق فن الحروب المتواصلة والظلم . اما ما عدا ذلك فان الفلاح اللبناني تعوّد شظف العيش والجهاد ، والى الآن تراه قويّ البنية سليما ، يعيش طويلاً ما دام يسير على خطة الجدود قانعاً مجتهداً .

الأواخر في اللغة

بقلم سالم خليل رزق

الاخر خلاف الاول ، والانثى آخرة ، والجمع اواخر ؛ ونقيض المتقدم . وهو صفة ، تقول : جاء آخرًا ، اي اخيرًا . ج آخرون ، وجاء في أخريات الناس ، وخرج في أوليات الليل ، اي اواخر الناس ، واوائل الليل ، من غير نظر الى معنى الصفة . وقولهم « لا افعله اخرى الليالي اي ابدًا ؛ وأخرى المنون : آخر الدهر . وتقول جاء أخَرَةً وبأَخَرَةٍ وأُخْرَةً وبأُخْرَةٍ ، وجاء أُخُرًا وإِخريًّا وآخِريًّا وبآخرةٍ اي آخر كل شيء . وخرج مُؤَخِّرًا ، اي في آخر الشهر ، او في آخر الوقت .

وجاء دَبَرِيًّا اي اخيرًا . تقول : تبعت صاحبي دَبَرِيًّا ، اذا كنت معه فتخلفت عنه ، ثم تبعته وانت تحذر ان يفوتك ، والدَّبَرِيُّ : رأي يسنح اخيرًا عند فوت الحاجة اليه وعليه قولهم : « شر الرأي الدبري »

والبُلجة : آخر الليل عند انصداع الفجر . يقال : رأيت بُلجة الصبح ، اذا رأيت الضوء ، وسريت الدُلجة والبلجة حتى وصلت .

والجَهمة والجُهمة والجُهْمة : اول مآخير الليل ، وذلك ما بين الليل الى قريب من وقت السحر . وقيل : بقية سواد من آخره . يقال : مضى من الليل جهمة ، والعَجُوس : آخر ساعة من الليل ، ومثله العُجس ، والاهتجام : آخر الليل ، والغَلَسُ : ظلمة آخر الليل . تقول : رأيت من غَلَس الظلام خيالًا .

والفَلتة : آخر ليلة من كل شهر . وقيل آخر يوم من الشهر الذي بعده الشهر الحرام ، والدُوْدُؤ : ثلاث ليالٍ من آخر الشهر ، وهي ليالي المحاق ، ج . دآدئ . والدَّلماء : ليلة ثلاثين من الشهر القمري . قيل لها ذلك لظلامها . والحَنادِسُ : ثلاث ليالٍ في آخر الشهر مظلمة ، وابن البَرَاء : آخر ليلة من الشهر ، وكذلك الناحرة . وقيل الناحرة آخر يوم من الشهر ، والنحيرة . قال ابو الغوث : النَحيرة آخر ليلة من الشهر مع يومها لانها تنحر الشهر الذي بعدها

اي تصير في نحره او تُصيب نحرَهُ . والمُحاق : آخر الشهر ، وقيل ثلاث ليال من آخره . وقيل ان يستتر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية ، سُمّي به لانه طلع مع الشمس فمحقته . وكذلك الشكس ، وطُواس : ليلة من ليالي المحاق . وليلة الشيباء : آخر ليلة من الشهر ، ومثله سرار الشهر ، والليلة الغماء ، وليلة الوَصل ، وهُلبة الشهر وسَلخه ومُنسَلَخه ، وقُحَم الشهر : ثلاث ايال آخرَهُ ، ويومٌ أيوَم : آخر يوم في الشهر . وابن جمير : الليلة التي لا يطلع فيها القمر في اولاها ولا في اخراها ، وذلك يكون آخر ليلة من الشهر . ويقال للقمر ابن جمير ، لانَّ الشمس تجمره اي تواريه . وابنا جمير : الليلتان يستترّ فيهما القمر . وابن سمير : ابن جمير ، والسرَرُ : السرار ، وقد استسرّ القمر : اذا خفي ليلة او ليلتين ، وهو من السرار .

والسحر : آخر الليل ومتنفَّس الصبح ، وهو سحران : السحر الاعلى قبل انصداع الفجر ، والآخر عند انصداعه . تقول لقيته باعلى سحَرَين ، وباعلى السحرين ، وكذلك السحَريّ والسحَريّة ، والفُرقان ، والنُّطّاط .

وصرعا الليل : اوله وآخره ، ومثله سقاطاه ، وسِقطاه ، قال الراعي:

حتى اذا ما اضاء الصبح وانبعثت عنه نُعامة ذي سقطين معتكر

وذَنَبة الوادي والدهر : اواخره ، ومثله ذُنابتها ، والمُذانب من الابل الذي يكون في اواخرها :

ونَفَس الساعة : آخر الزمان .

وبيضة العُقر : آخر بيضة للدجاج ، وقيل اول بيضة . وبَيضة العُقر : آخر الاولاد ، ومثله الجريئة ، والزِنيــة ، والعِجزَة ، والعُجزة . يقال : هو عجزة ابيه ، وهو بلفظ المفرد مع الجميع . ويقال وُلد لعجزة اي بعد ما كبر ابواه ، والقِعدة (للذكر والانثى والجمع) والزُكمة ، تقول : هو زكمة ولد ابيه ، والكِبرَة يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث ؛ ويشبه النُضاضة والنُضاضة . ويقال لآخر ولد الشيخ والشيخة «ابن هِرمة» ، وفي اللسان انه غير مصروف .

والأهزَع آخر سهم في الكنانة ، ردياً كان او جيداً ، وقيل هو افضل سهامها لانه يذخر لشديدة .

والعاقبة : آخر كل شيء. يقال تغيّر فلان بعاقبة اي بآخرة ، بعد ما كان مرضياً ، ج . عواقب ، قال جرير :

انسيت يومك بالجزيرة بعد ما كانت عواقبه عليك وبالا

والقُصرَى : آخر الامر . ومثله القَصارى والقُصارى يقال : قصاراك ان تفعل كذا ، اي جهدك وغايتك وآخر امرك ، قال الحريري :

وان قصارى منزل الحيّ حفرة سينزلها مستنزلاً عن قبابه

والعِقْبُ : العُقبة ، والخاتم ، والدَّبرة ، والخاتمة . تقول: هذه خاتمة السورة اي آخرتها . وهذه خاتمة الكتاب ، والصَّير والصَّيورة . تقول : صيّوره الى كذا اي عاقبة امره ومنتهاه ، والدابر ، يقال قطع الله دابرهم اي آخر من بقي منهم ، والدُّبر تقول جئتك دُبر الشهر ، وفي دبره ، وعلى دبره ، اي آخره ؛ والذَّيل ج . اذيال وذيول . تقول هولاء اذيال الناس وذيولهم اي اواخرهم ؛ والعُقبى قال المتنبي :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القَسَم

والعُقب ، والعُقُب ج . اعقاب . قال الشاعر :

بصير باعقاب الامور كانما تخاطبه من كل امر عواقبه

والعُقبان تقول جئت في عقبان الشهر ، اذا جئت بعد ان يمضي كله ، مثل قولك جئت في عُقبه ، وفي عَقِبِهِ ؛ والختام تقول هذا ختام الشراب اي آخره ، وهذا خِتام القوم اي آخرهم ؛ والنهاية ، وهي غاية الشيء ، وآخره ، واقصى ما يمكن ان يبلغه . ومثلها المَنهاة . يقال : « الموت مَنهاة الناس » و « قد انخنا في بؤبؤ العز ومنهاة الكرم » . والمنتهى ، قال الشاعر :

فكل حياة الى منتهى وكل شفاء الى مترع

والمَدَى ، تقول بلغ مدى الحياة ، اي غايتها . تقول: يشحذ للبغي المُدى ، ويبلغ في البغيّ المَدَى . والغاية ، تقول: غايتك ان تفعل كذا ، اي نهاية طاقتك وفعلك . قال المتنبي :

لم أجرِ غاية فكري منك في صفة الا وجدت مداها غاية الابد

وقال الدكتور فياض :

ما القبر غـاية كل حيّ مثلما زعموا ، فللانسان غاي اعظمُ

ومثله الجَهد ، والجُهد ، والجُهَيدى . يقال: لابلغنّ جُهَيداي ، اي غـاية جهدي ، وصغر للتعظيم . والندى ، والنصُّ ، يقال بلغ الشيء نصّه اي منتهاه ، والنِهاء تقول بلغ نهاءه اي غايته وآخره ، والنُّهية ، والشوط ، والرُونة (من الشيء : غايته في حرّ او برد او حرب او حزن) والإنى ، يقال بلغ الامر إناه ، والشأوُ ، قال الشاعر :

أكلت مفاخرك المفاخر وانثنت عن شأوهنّ مطيّ وصفي ظُلَّعا

والطرف (حرف الشيء ونهايته) والردْف ، والأمَد . يقال ما أَمدُك اي منتهى عمرك . وجاء في اللسان : وللانسان امدان : احدهما ابتداء خلقه الذي يظهر عند مولده ، والامد الثاني الموت . ومثله الأفد ، والميداء ، والدَهرُ ، والباب ، والبابة (في الحدود والحساب : الغاية)

والميتاء : آخر الغاية التي يجري اليها الخيل ؛ والحداس ، والاداس : الامر الذي تظن انه الغاية التي يجري اليها ؛ والمبلغ : حدّ الشيء وغايته يقـال بلغ مبلغه ؛ والحدّ : منتهى كلّ شيء ، لانه يرده ويمنعه عن التمادي.

وقالوا : عَكدُك هذا الامر ، اي غايتك . ومعكودك أن تفعل كذا ، وقُصَيْراك ان تفعل كذا ، اي آخر امرك ان تفعله . وصار الامر الى قَراره ، ومستقرّه ، اي تناهى وثبت . ولكل نبأ مستقرّ ، اي غاية ونهاية. والشمس تجري لمستقرّ لها ، اي لمكان لا تجاوزه وقتاً ومحلًا ، وقيل لاجل قُدّر لها . ولتجدنّي بقرن الكلأ ، اي في الغاية مما تطلبه مني . وفلان يأتيـك بالامر من مَفصِله اي من منتهاه . ولا تجعلوني كقدح الراكب اي آخر . وبلغ الله بك اكلأ العمر ، اي آخره وابعدهُ . وفلان عُقبة قومـه ، اي آخر من تبقى منهم . وجاء أخرى القوم ، اي من كان في آخرهم . وجاء في اخرياتهم اي في اواخرهم . ولا افعلـه أخرى المنون ، اي آخر الدهر ، قال كعب بن مالك الانصاريّ :

ان لا تزالوا ما تغرّد طـائر اخرى المنون مواليًا اخوانا

وفعله ثنيثاً ، اي اخيرًا . وجاءَ مُعقِباً ، اي في آخر النهار ، وما عرفته

الا بآخرة اي اخيرًا .

والمُدَّة : الغاية من الزمان والمكان ، يقال : لهذه الارض والأمة مدة .
والصَّير والصِير : عاقبة الامر ومنتهاه . وكُفَّة الشجر : منتهاه حيث ينقطع .
والمسكّت : آخر القداح . والسُكَيت : آخر خيل الحلبة . والغَبَش : ظلمة آخر الليل ، تقول نحن في اغباش الليل وهي بقاياه . والكُرْول : آخر صفوف الحرب ، وعُجمة الرمل : آخره . واتاه بجرش من الليل ، اي بآخر منه .

وقالوا : اواخر الامور ، وحلاقيم البلاد : اواخرها واطرافها ، وفي حديث الحسن قيل له ان الحجاج يأمر بالجمعة في الاهواز ، فقال : « يمنع الناس في امصارهم ، ويأمر بها في حلاقيم البلاد » واسحار الارض ، يقال بلغ من الارض اسحارها اي اطرافها واواخرها ، استعاره من اسحار الليالي . وكذلك اكساء رمضان ، تقول : قدمنا في اكساء رمضان ، ومروا في اكساء المنهزمين ، وعلى اكسائهم ، اي على آثارهم وادبارهم . ومجاري الكلام ، لانّ حركات البناء والاعراب انما تكون هنالك . واكرع الجوزاء . وعُجوب الكُثبان . وحوادي الاشياء (كما ان الهوادي اوائل كل شيء) وتوالي الابل .
والعرب تقول : ليس هوادي الخيل كالتوالي ، فهواديها اعناقها وتواليها مآخرها

وقد تعقّب فلان رأيه اي وجد عاقبته الى خير . واعقب الامرُ : حسنت عاقبته . واستعقب فلان من ذلك خيرًا ، اي وجد بذلك خيرًا بعده . والحُسنى : العاقبة الحسنة . وقولهم : ختم الله له بالخير ، اي جعل له عاقبة حسنة .

وفرّخ الامرُ : استبانت عاقبته بعد اشتباه . وعَقّرَ الامر عُقْرًا : لم ينتج عاقبة .

وتمادى في الامر تماديًا : بلغ فيه المدى . وغبّت الامورُ : صارت الى اواخرها ، وتناهى الشيء : بلغ نهايته ، يقال تناهى البعير سمنًا . ومثله تراقٍ ، يقال انك لا تدري علامَ يتراقَ هرمك ، اي على اية حالة يتناهى رايك ويبلغ آخره . واجاب الظلامُ اجابة . والمتغبّب : المنتظر الغب اي العاقبة .

القديس يوحنا فم الذهب

وثورة انطاكية

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

٢

وفي اليوم الثاني شاع في المدينة خبر تداولته الرواة وملأ الاسماع ، كان فحواه ان البُرُد الموجهة الى الملك حدث لهم بعض العوائق في الطريق ، فاكرهوا على ترك خيلهم والركوب في العجلات العمومية[1]. وللحال اظهر العزم على السفر الشيخ الجليل فلابيانوس ، وهو اخو ثمانين ، وسرى بقطع من الليل تاركاً اخته في شدة المرض ، وهازئاً بشدائد السفر ، عازماً على الوصول قبل الرسل وقبل اشتداد الذنب . وفي اليوم الثاني من سفر الاسقف امَّ يوحنا الكنيسة ، وجعل يبشر اولاده بسفر راعيهم الذي كان ثودوسيوس يجله ويعظمه من اجل فضائله فقال : « اني حين ارى هذا الكرسي واشاهده فارغاً محروماً صاحبه الذي كان يعلمنا ويرشدنا افرح وابكي . ابكي لاني لا ارى ابانا هنا ، وافرح بسفره ، لعله يخلصنا وينقذ هذه المدينة العظيمة من غضب الملك ... لقد سافر مستعداً لبذل نفسه من اجلنا كلنا ... ذهب كالشاب لان كبر همته اعاره اجنحة .»[2]

وما فتئ بعد سفر الاسقف يشجع اولاده ويقوّي جأشهم بقوله : « ان مرأى هذا الرجل المكرّم سيؤثر في ملك العالم ... فيخاطبه كما خاطب موسى الله : ان غفرت لهم خطيئتهم والّا فامحني من كتابك[3]. ويحثه على الاقتداء بربه ، ويذكره بمثل العبد صاحب العشرة آلاف وزنة وصاحب المئة الدينار[4] ... وبقول الرب : اغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن اساء الينا[5] .

١) فم الذهب : المجلد الثاني ٧٥ و ٧٦ ٢) ٧٥ و ٧١ ٣) خروج ٣٢ : ٣٢

٤) مت ١٨ : ٤ ٥) مت ٦ : ٧

وبقوله له: تفكر في شرف هذه المدينة... فيها اتباع يسوع سموا مسيحيين... اكرم يسوع المسيح وابق على المدينة التي نطقت اولاً بهذا الاسم الجميل العذب وبها اقام الرسل والقديسون ... اذكر كلامك الذي وجهته الى المدائن باجمعها: ليتني استطيع بعث الموتى! فالى هذه العواطف نلتجئ وبقولك نستغيث. ان مجد الملوك يتوقف على قهر الغضب اكثر من قهر الاعداء. انتصاراتك يشاركك فيها قوادك وجنودك، واما غلبتك على نفسك فمرجعها اليك وحدك، اذ ما من احد يشاطرك شرف حلمك. لقد دوّخت البرابرة فدوّخ كبرياء الرتبة العليا، فيتعلم غير المؤمنين ان كل سلطة تُلجم بلجام المسيح. مجّد ربك بتجاوزك عن عبيد مثلك.»[1] على ان همة الخطيب كانت بكليتها منصرفة الى تحريك عواطف الشعب وحمله على الثقة بالله عز وجل، قال: «اذا كان الله طلب عشرة ابرار ليعفو عن شعب اثيم، فهنا عندنا لا عشرة ولا عشرون ولا اربعون بل جم كثير ممن يعبدون الله بنشاط وحسن همة. فكيف اذن لا نؤمل؟ اني اسمع البعض يقولون: غضب الملوك يشبه زماجر الاسود. ولكن الله قادر على تحويل الاسود الى حملان.»[2]

وكان الشعب الانطاكي ينصت لكلام يوحنا بلذة وانبساط ويعيره اذناً صاغية فيتعزّى عن شدائده وبلاياه، وينقلب والثقة ملء جوانحه ثم يعود اليه في اليوم الثاني، ويستمع الى كلامه كالسابق. فكسدت حينئذٍ اسواق الملاعب والملاهي، وأُقفلت الحمامات، وكثر الزحام في الكنيسة[3]، وبقي يوحنا لا يفارق المكان المقدس تارة ينفي الاشاعات الكاذبة، وطوراً يشجع، وحيناً يعد بالعفو، ووقتاً يوبّخ.

امّا الاسقف فلابينوس فمع ما بذل من الجهد في السير فلم يستطع الوصول الى القسطنطينية قبل شيوع خبر الفتنة. ولمّا نُمي الى الملك خبرها تبدّل الضياء في وجهه بالظلام، واستشاط غيظاً، ووطّن النفس على حرق انطاكية، واطلاق السيف في اهلها قتلاً[4]، وارسل من قبله رسولين اختارهما من بين قواده

المحنكين ، واوعز اليهما ان يعاقبا المدينة المتمردة باقفال الملعب والحمامات وبيوت اللهو ، وتجريدها من مزاياها الخاصة ومن لقب « عاصمة » ، ويجعلاها خاضعة للودوقية ، ويحبسا عنها توزيع الطعام.

وكان بين هيليبكوس ، احد الرسولين ، وبين القديس غريغوريوس التريتزي ولاء واخاء . سار الرسولان من وقتهما من القسطنطينية حتى بلغا عاصمة الشرق فالقى وصولهما الذعر في القلوب ، وانتشرت القالات والاراجيف[1] ، وتبسط الجند وقتئذ في ما شاؤوا من نهب وسلب وحرق ، وشاع ان العساكر آخذة في الزحف على المدينة لتخربها ، فاوجد هذا القال والقيل الوالي الوثني الى دخول الكنيسة . فدخل وخطب في الشعب يوم انتصاف الصوم . وسكّن روعته. وفي تلك الاثناء كان يوحنا مضاباً بوعكة ملازماً البيت[2]. وما بلغه وصول رسولي الملك حتى هرع في اليوم الثاني الى الكنيسة وطفق يقول : « اني اثنيت على حضور الوالي الذي اتى وعزاكم واحيا فيكم مائت الامل ، وذلك لمّا رأى اضطراب المدينة والاستعداد للفرار . ولكني انفضح خجلاً اذ انكم بعد كل الخطب التي سمعتموها من فوق هذا المنبر تحتاجون الى معزّ ايضاً . فلما سمعت ان الوالي اتى ليهدي روعكم ويلومكم على خوفكم الذي وقع في غير اوانه ، وددت لو ساخت الارض بي.»[3]

ولما وصل الرسولان اعلنا تجريد المدينة من ميزاتها ، واخذا يقبضان على المتهمين ويحبسانهم ، فامتلأت السجون وكادت تضيق ذرعاً بالسجناء ، وعيّنا قضاة من الجيش يقضون على المجرمين بلا مراجعة. وبينما هما ذاهبان ذات يوم الى مجلس القضاء راكبين فرسيهما ، احاط بهما على حين غرة اناس ذوو وجوه شاحبة ، والوان مصفرة ، واجسام ناحلة من طول القيام وكثرة الصيام . من كانوا يا ترى ؟ النساك . فانهم ما سمعوا ما حلّ بانطاكية حتى خرجوا من كهوفهم وصوامعهم ، وطاروا الى المدينة يسألون رسولي الملك العفو عن المجرمين وكان فيهم شيخ جليل عليه أثر البؤس والمسكنة ، لابس ما تلدّم من الثياب.

---

١) ١٨١ و ٢١٤ ٢) ١٨٨ والعظة ١٩ ٣) ١٦١

فهذا تمسك باذيال الرسولين وامرهما بالنزول . فهما بضربه . ولكنهما سمعا في الحال صرخة رددت صدى صوته فترجلا عن فرسيهما واهويا على قدميه . فهذا الناسك كان مقدونيوس الذي اشتهر في بلاد المشرق بزهده وصومه وصلاته واقتصاره من الطعام على طحين الشعير مَدوفاً بالماء . ولكنه رفض اكرام الرسولين له وقال لهما : « اذهبا واحملا هذه النصيحة لمولاكما . قولا له: انت ملك ، ولكنك انسان . انظر الى طبيعتك ، لا الى رتبتك . انت انسان مسلّط على بشر مثلك مطبوعين على صورة الله . خف من غضب الخالق واياك ان تلاشي صورته . انك غضبت لكسر تماثيل من نحاس ، افلا يغضب على كسر التماثيل الحية ؟ تماثيل النحاس تُصلح وتُرمّم ومن التمثال الواحد تصنع تماثيل عديدة ، ولكن اذا قتلت البشر كيف تصلح هذه الخسارة ؟ أتستطيع ان تقيم المفقودين وتردّ الانفس الى الاجساد العادمة الحياة.»[1]

فاثّر هذا الكلام في نفس الرسولين ، ووعدا الناسك القديس رفع هذه الرفيعة الى الملك . ولما دخلا دار القضاء الفيا الاساقفة والقسيسين ، وفي مقدمتهم فم الذهب ، واقفين عند الباب ، فلم يفسحوا لهما في الدخول وقالوا : لسنا نمكنكما من الدخول ، وان ابيتما الّا استعمال الشدّة فدوسا على جثثنا اولًا ثم ادخلا . واخذوا يقبّلون ارجلهما مرة ، ومرة يوبخونهما[2] . ولشدّة الالحاح اضطرّا الى النزول على رغبة الاساقفة والكهنة ، فبادر الجميع الى شكرهما وتقبيل ايديهما والاشادة بالدعاء لهما .

وكان هنالك امرأة مكشوفة الرأس ، مشعثة الشعر ، فهذه تعلقت بلجام فرس هيليبكوس ودخلت دار الولاية . وما كادت ترى ولدها مقيداً ، حتى طارت اليه وتزعته من الحرّاس وجرّته الى امام نائب الملك هيليبكوس ، وشرعت تبكي وتستحلفه ان يعفو عن ولدها وحيدها وعكاز شيخوختها ويشفق عليها بجرمة امه ، ثم ناشدته ان يقتلها او يردّ لها ولدها[3] .

ومن بعد ذلك تأهب الرسولان للرجوع على اعقابهما لطلب العفو عن المدينة ،

---

١) ١٧٢   ٢) ١٧٥   ٣) ١٧٢

واراد النساك اللحاق بهما. ولكنهما اقنعاهم بتقديم عريضة الى القيصر فكُتبت العريضة وحملها سزاريوس وتوجّه للحال الى القسطنطينية . وبقي هيليكوس يسكن جأش الانطاكيين وينفي مخاوفهم . وفي تلك الأثناء نُقل المعتقلون من سجونهم وأودعوا بناء رحباً ذا اروقة وحدائق ، وأُذن لاهلهم في زيارتهم ومحادثتهم ، وتغيرت الاحوال وانقلب الحزن فرحاً ، والنوح ضحكاً ، والخوف امناً ، واستأنف السكان طربهم وفرحهم كالسابق . فحاك ذلك في صدر القديس فأقبل يوبخهم ويعنفهم قائلاً : « ان حكم الملك ما زال مجهولاً ، وحكام المدينة ما زالوا في القيود ، والسكان مع ذلك يخفّون الى النهر للاستحمام ، ويتسلمون الى المآكل والمشارب والاشر والبطر والرقص والزفن مع النساء .. فكيف اسامحهم ، وكيف اعذرهم ؟ »[1]

وبينما كان الاسقف فلابينوس في القسطنطينية يحاول الاذن في الدخول على الملك ، والملك يمانعه ، وصل سزاريوس ودخل على ثودوسيوس في ساعة ما كان ينتظرها وقد طوى المسافة القائمة بين العاصي والبسفور في ستة ايام . ثم قصّ عليه الحوادث ، وعرّفه جلية الخبر ، وما جرى من شدة الحكام ومخاوف السكان ، ووساطة النساك والرهبان ، وتوبيخ الاساقفة والقسان ، وقدّم له العريضة ، وجثا امامه يسترحمه على المدينة المتمردة ، وانضم اليه وفود البلدان . وحينئذٍ دخل فلابينوس ووقف بعيداً صامتاً منكساً رأسه حياء وخجلاً . فدنا الملك منه وقد تأثر ، وذكّره بالآلاء والنعم التي انزلها الى مدينته ، والجميل الذي ساقه اليها ، وكيف قابلت صنيعته ، وانكرت جميله ، وجحدت احسانه . فرفع الاسقف رأسه المكلل ببياض الشيخوخة وامارات القداسة ، وطفق يتكلم ، وآثار الحزن بادية على وجهه . وما انتهى من خطابه الطويل حتى ظهر التأثر على وجه الملك فقال : « لا عجب اذا عفونا نحن البشر عن بشر اسخطونا ، بينما نرى رب العالم نزل الى الارض وصار عبداً من اجلنا ، واحتمل عذاب الصلب من صنائعه ، وصلى لابيه من اجل معذبيه ، وقال : يا ابتِ

---

[1]) ١٨٧

اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يعملون.»[١]

ثم اوعز الى فلابينوس بالسفر ليبشر اولاده بالعفو ، وقال: « اني عالم انهم فريسة للقلق ، فاسرع وعزّهم ؛ انهم متى رأوا قائدهم ينسون آلامهم.»[٢] ولما الحّ الاسقف على الملك ورغب اليه في ارسال ابنه الى انطاكية قال: « صلِ لله لتزول العوائق وتخف الحرب فاذهب انا نفسي واعزّيكم.»[٣] وللحال سيّر فلابينوس البُرُد[٤] فبلغت اوامر ثودوسيوس بالعفو يوم سبت النور ، فجمع هيليكوس المعتقلين سحراً وبشرهم بالعفو ، وقرأ عليهم امر الملك فانتشر الخبر باسرع من لمحة الطرف ، وتطايرت البشائر فنضرت لها الوجوه ، وضحكت القلوب ، وعمّ الفرح والسرور ، وفُتحت الحمامات ، وزُيّنت الساحة العمومية بالازهار ، وسُرّح السجناء ، وانطلقت الالسن بالمدح ، واجهرت بالثناء الطيب على ثودوسيوس وفلابينوس وسزاريوس ، وهتفوا باسمائهم طويلاً. ولمّا وصل الاسقف لاقاه الشعب باكرام واحترام ، اجلال واعظام. وكان يوم وصوله يوم هناء وفرح وسرور لا مثال له.

وفي ٢٥ نيسان ، يوم عيد القيامة ، وقف القديس فم الذهب ، وشكر الله على نعمائه وقال: « تبارك الله الذي اذن لنا في الاحتفال بهذا العيد المقدس معكم في اتمّ الفرح ، اذ ردّ الراعي الى رعيته ، والقائد الى عسكره ، والحبر الى كهنته. تبارك الله الذي منّ علينا واعطانا فوق ما طلبنا واملنا... فلنشكره متعجبين من قدرته وجوده وحكمته وعنايته بمدينتنا[٥]. ثم قال: ليخزَ الوثنيون بل بالاحرى ليفهموا ويتعلموا من الملك والحبر حكمة شريعتنا الالهية.»[٦]

فالفضل في نجاة انطاكية من سيف الموت المصلت ، وعقاب الملك ، واستعادتها ميزاتها راجع الى الدين المسيحي ورجاله ، ولاسيما القديس يوحنا فم الذهب الذي كان مرشد الشعب الانطاكي ، ومعلمه ، ومعزّيه ، ودليله ، وزعيمه ، واباه ، وامه.

١) ٢٢٣ ٢) ٢٢٣ ٣) ٢٢٣

٤) ٢٢٣ ٥) ٢١٣ و ٢١٤ ٦) ٢٢٢

حسن علوان الدرزيَّة

او

الاخت مسيحة الراهبة اللبنانية

بقلم القس انطونيوس شبلي اللبناني

رئيس مامل جبيل والبترون

١

تمهيد

الى عباد الله المتقين من ابناء الوطن العزيز ، نزفُّ ترجمة حياة راهبةٍ لبنانيَّة من فضليات الراهبات .

تكشَّفت لها الدنيا عن اباطيلها الفانية ، فرغبت عنها الى الآخرة حبًّا بالسعادة الباقية . وانجلت لعينيها الحقيقة ، فتمسَّكت بها تمسُّكًا وثيق العرى ، لا تلويها عنها المخاوف ، ولا تزحزحها عن الاعتقاد بما ركن اليه عقلها اهوالٌ ولا خطوب .

دعتها العناية الالهية الى اعتناق الديانة المسيحية ، ثمَّ الى الحالة الرهبانيَّة ، فلبَّت الدعوة بنفسٍ رضيَّة مُصغية الى الهامات الله الخفيَّة ، وكأنها تقول بلسان حالها : « تكلَّمْ يا ربُّ فعبدتك تسمع »

هجرت اهلها ، ووطنها ، ولجأت الى احد اديار راهباتنا اللبنانيَّات المحترمات ، وتحصَّنت داخل جدرانه عاكفةً على العبادة واعمال الزهادة . فبلغت من الرقيِّ في معارج الكمال الرهبانيِّ مبلغًا قصيًا . وكانت حياتها مدرجةً لاخواتها الراهبات الى الاقتداء بفضائلها السامية . نعني بها الاخت مسيحة علوان الدرزية المذهب في الاصل

ومن أمعن الرويَّة في ترجمتها اندهش من مفاعيل نعم العناية الالهية التي لا تقف بسبيلها قوَّةٌ بشريَّة . فسبحان من يغيِّر الاحوال في طرفة عين

برمانا — بلد زيها

برمّانا بلدةٌ في مقاطعة المتن ، أفرغت عليها الطبيعية أبهى المحاسن وكستها بثوبٍ من جمال الخضرة البديع ، قائمةٌ على رابيةٍ شرقيّ بيروت ترتفع عن سطح البحر ٨٠٠ مترٍ ، تحوّطتها اشجار الصنوبر من جميع اطرافها ، وتتغلغل بين غاباتها بعض بيوتها تتنعّم بنفحات نسيمها وتغاريد طيورها.

تطلُّ من جهتها الشمالية والغربية على بيروت وحدائقها النضرة . وتقابل من الجهة الشرقية جبل صنين اللامع شتاء وصيفاً بثوبه الناصع . وتقع العين من الجهة القبليّة على وادي الجماني الغاصّ باشجار الصنوبر والسنديان ، وعلى عاليه ومعظم قرى الغرب. واذا كان الجوُّ صافي الأديم ، وصعدت الى مرتفعاتها قُبيل الغروب ، رأيت جبال قبرس متمتّعاً بابدع مشاهد الطبيعة التي تشبعُ العين بهجةً وتملأ النفس غبطةً .

أضفْ الى هذه المحاسن الطبيعية شمائل اهالي برمّانا الطيّبة ، وكرم اخلاقهم ، وبسطة كفّهم ، واكرامهم للغريب ، وحبّ التآخي الذي يسود فيما بينهم على تباين مشاربهم ومذاهبهم . كلُّ ذلك يشوّق طلّاب الاصطياف الى اختيار هذه البلدة في فصل الصيف مسرحاً لافكارهم ومتنزّهاً لابدانهم بحيث تتوفّر لهم فيها اسباب الراحة والمسرّة .

حسن علوان — او الاخت مسيحية

تاريخها

وُلدت في برمّانا في اواخر شباط من ابوين درزيين ، اسم ابيها شاهين ابي نكد ، وامّها ستّ الاخوة ، وكلاهما من عيلة علوان . تزوّج ابوها اربع نساء على التعاقب وطلّقهنّ جميعاً . رُزق من الاولى ولداً ذكراً ، ومن الثانية بنتين ، واماّ الثالثة فقد سمّت للولد ومات ؛ فشكاها زوجها الى الامير بشير المالطي ، فأمر بشنقها . فاخذها زوجها وابوها ، وطرحاها في البحر .

ثمّ اقترن شاهين بالمرأة الرابعة ، ستّ الاخوة — والدة صاحبة الترجمة — وكان حدث لها قبل عقدها عليه مسٌ في عقلها ، فاشار اليها بعض جيرانها النصارى ، ان تنذر نذراً للقديسة تقلا في كفرسلوان فتشفى . فنذرت وشفيت. ثمّ أُصيبت بمرض الطاعون ، وشفاها الله على يد أمته القديسة تقلا ايضاً . واذ وثقت من قوّة شفاعتها ، أخذت تستغيث بها في كل بلاء ومحنةٍ تعرض لها.

ولمّا مضت مدّة على زواجها ولم تقرّ عينها بولدٍ ، لجأت الى شفيعتها كمن يلجأ الى كهفٍ حريزٍ والى مساحةٍ حنون ، فبان حبلها . واتفق ان مرّ بها احد المغاربة ، وهي حبلى ، فتكهّن لها انها ستلد ولداً ذكراً وتموت وقت ولادته ، فأثّر تكهّنهُ بعقلها وحزنت حزناً مزّق شغاف قلبها وأسال مذارف عينيها ، فهرعت الى شفاعة مساعدتها القدّيسة تقلا طالبةً منها ان ترزقها بنتاً مخافة ان يصدق المغربيّ في تكهّنهِ وتموت ، ووعدتها اذا استجابت سؤلها ، انها تنذر لها هذه الطفلة ، وتقدّم لمعبدها كلّ سنةٍ نصف رطل زيتاً ما لازمتها الحياة

نامت ليلة نذرها ، فرأت ، في الحلم ، القديسة تقلا تضع في حضنها بنتاً وتقول لها : خذي هذه الابنة وارضعيها . فاخذتها والسرور ملء فؤادها . وفي الصباح قصّت على زوجها وجيرانها ما رأت في الحلم وسمعت ، والفرح آخذٌ منها كلّ مأخذ.

مرّت على حلمها اربعة ايام فولدت بنتاً — هي الاخت مسيحيّة — اطلقت عليها اسم حسَن . وما مضى احد عشر شهراً على ولادتها حتى طلّق شاهين امرأته الرابعة ستّ الاخوة ، على مألوف عادته . ولمّا كانت متعلّقةً أشدّ التعلّق بابنتها ، ويعزّ عليها الانفصال عنها ، إكترت منزلاً مجاوراً لمنزل زوجها رغبةً في رؤيتها والعناية بأمرها.

ولم تكن تتقاعد عن القيام بايفاء نذرها السنويّ للقديسة تقلا المحسنة اليها ، والشفيعة الخصوصية لها ، والحصن المنيع الذي كانت تفزع اليه في كلّ خطبٍ يُلمّ بها او بابنتها التي كانت تقول لها عند كل حادث : « لا تخافي يا حسَن ، فان القديسة تقلا تدفع عنكِ كلّ ضرّ وتنجيكِ من كل بلية لاني خصّصتكِ لها بالنذر »

بدأت هذه الابنة منذ نعومة اظفارها تُكثر التراداد الى اولاد النصارى مستأنسةً بعشرتهم ، مستطيبةً مخالطتهم . وكانت تصوم الصوم المفروض عند المسيحيين اقتداء بهم وحباً بالله ، على ما كانت تسمع منهم.

. . .

بلغت حسن السنة الخامسة عشرة من عمرها ، واستهوى جمالها قلب ابن خالتها ضاهر نجم ، فرغب في الاقتران بها وكاشف أمها بسرّه فوعدته خيراً . واذ رفضت حسن الزواج ، احتالت عليها أمها وقادتها الى دار الامير علي ابي اللمع ، طالبة اليه ان يقنعها اذا استطاع ، بالزواج من ابن خالتها ، او انهُ يغصبها على الرضى به غصباً . ولا يخفى ما كان للامراء من السيطرة والارهاب في تلك الايام ، فسلّمها الاميرُ الى ضاهر نجم قسراً بالرغم من رفضها ومقاومة والدها واخيها . فاقامت في بيته سنة وهي طاهرة الذيل نفساً وجسداً (كما اخبرت رئيستها عن حالها وهي راهبة) وكانت تتحيَّن الفرص للهرب غير عالمةٍ الى اي مكان تلتجئ فراراً من هذا المأزق.

حلمت يوماً في نومها انها دخلت جنينة فرشت ارضها بالورد والبنفسج والزنبق وسائر انواع الزهور الجميلة العطرة ، يزينها حوض ماء زلال في وسطها. ورأت هناك امرأة بديعة المنظر لم تقع عينها على أبهى منها جمالاً ، فسألتها حسن: «ماذا تصنعين هنا ، ألا تخافين من سارقٍ او باغٍ يسطو عليكِ ؟» اجابتها المرأةُ والابتسامة ملء ثغرها : «لا خوف عليَّ يا بُنيَّتي فلا احد يجروءُ على ان يمدَّ اليَّ يد سوء.» فدنت حسنُ منها وقبَّلت يديها فرفعت المرأةُ يدها وباركتها. ثمَّ خرجت حسنُ من تلك الجنينة ووجهتها بلاد كسروان ، الى غير مكانٍ معيَّنٍ او معروف

استيقظت من رقادها وروت حلمها على كنَّة عمّتها ، التي كانت تدّعي تفسير الاحلام ، فازدجرتها هذه ورفعت يدها لتضربها صارخةً بها : «ويحكِ انكِ ستصيرين نصرانية». اجابتها: «ما كان أسعدني لو تمَّ لي ذلك.» قالت ، وفرَّت من امامها.

من برمانا الى بكركي

مرَّ شهرٌ على حلم حسن فحدثت حوادث الستين الشهيرة وكثرت المخاوف في جهات المتن ، فاضطرَّ ابن خالتها ضاهر نجم الى التخفي في احدى الغابات . وكانت والدته تختلف اليه سرًا من وقت الى وقت ، تمدُّهُ بالزاد والماء . واذ ذهبت يوماً لافتقاده شعرت حسنُ بعاملٍ خفيّ شديد يدفعها الى الخروج من البيت فاستنهزت فرصة غياب خالتها ، واخفت الجرَّة لتوهمها عند عودتها انها ذهبت لتملأها فلا تفتّش عنها ، وخرجت هاربةً من البيت الذي ضاق فيه صدرها وغُمَّت نفسها ، لا تحمل معها شيئاً من الزاد تقتات به عند الحاجة .

سارت نحو بلاد كسروان التي رأتها في الحلم فأدّى بها السير الى خرائب كنيسة على اسم القديس موسى في جوار انطلياس ، فالقت في نافذتها زرًا من الفضَّة لم تكن تملك غيره طالبة بحرارة من شفيع ذاك المعبد العجائبي الذي كانت تسمع بهِ ، ان يهديها طريقاً آمنة ، ويعينها في سفرها ويسدّ في وجهها سُبل العود الى بيتها . ثمَّ واصلت سيرها حتى صربا لا تدري الى اين هي ذاهبة ، فالتقت هناك بامرأة نصرانية من برمَّانا ، واذ عرفتها هذه اسرعت الى رجال مجتمعين تستحثُّهم على قتل هذه الابنة الدرزية ، أخذًا بثأر قتلى النصارى الذين فتك بهم الدروز ولا يزالون يمثلون بالمسيحيين افظع تمثيل .

اقترب الى حسن رجلان ، وقد ظنَّاها جاسوسة تحمل مكاتيب من مشايخ آل الخازن الى اناس في صربا ، فتنصّلت من تلك التهمة فلم يصدّقاها ، وهمّ عندئذ احدهما ان يجرّها الى خارج القرية ليقتلها . فتمسَّكت بجذع شجرة عفصٍ ، وحاول الرجل افلات يديها منهُ فلم يستطع ، ولم يشأ ان يقتلها جهرًا في القرية . واذ يئس من التغلّب عليها سألها عن المكان الذي تؤمّه . اجابتهُ فورًا: « اني ذاهبة الى بكركي لشغلٍ خصوصي. » ولم تكن تعرف الوجهة التي تقصدها ، ولا ما هي بكركي . قال : « ان كنتِ صادقة في قولكِ ، فانا اوصلكِ اليها. » فشكرت معروفهُ وذهب برفقتها ليتحقق أصادقةٌ هي ام كاذبة مثلت حسنُ بين يدي السيد البطريرك بولس مسعد ، وكشفت لهُ عن نفسها ،

وألقت اليه بجنينة صدرها ، مظهرةً رغبة شديدة في اعتناق الديانة المسيحية . فظنَّ غبطتهُ انَّ امرًا ما عرض لها فألجأها الى هذا الطلب . لذلك أخذ يهدّئ روعها ، وينفس كربتها ، ويطمئن بالها ، مسهّلًا لها الرجوع الى اهلها ، ضامناً كلَّ أذى يصيبها في طريقها اليهم . فصرَّحت له انها تفضل الموت على العود عن قصدها الحسن . ولمّا تحقق السيد البطريرك انها متصلّبة في عزمها على الاخذ بدين النصرانية ، أمر ببقائها في بكركي ، واوصى حاشيتهُ برعايتها وتقديم كل ما تحتاج اليه . فقضت هناك خمسة اشهر ، ناعمة البال ، قريرة العين ، تأكل وتشرب من مائدة البطريرك، وتنام في احد بيوت شركاء الكرسي البطريركيّ .

اتصل بمسامع اهلها خبر وجودها في بكركي فقصدتها شقيقتها وخالتها — والدة ضاهر نجم — يرافقها رجل من طائفة الروم الارثوذكس من جيرانها ، فصادفوها تنشل جرَّة من بئر ، ومعها صاحب البيت الذي تأوي اليه وزوجتهُ . فهمَّ الثلاثة البرمّانيون بامساكها واقتيادها عنوة ، فاستأسدت حينئذٍ ، واستبسلت في الدفاع عن حرّيتها ، واعطت حبل الجرَّة الى مضيفتها وارتدَّت الى خالتها تشابكها وتجادلها حتى اخذتها بتلابيبها ورمت بها الارض ، وأفلتت من شقيقتها ايضاً ، وهرولت تحتمي في بوّابة بكركي بينما كان مضيفها ممسكاً الرجل الارثوذكسيَّ عن مساعدة رفيقتيهِ عليها ، وعن اللحاق بها .

اختفت عنهم في بكركي واصرَّت على رفض مواجهتهم ، فابلغوها انهم يقبلونها بالحبّ والترحاب مقدّمين لها كلَّ ما تشتهي وتريد ، فلم تنل تملقاتهم عطفاً في قلبها وكان جوابها لهم : ان أحبَّ شيءٍ اليها هو ان تكون نصرانية . واذ قطعوا الامل من مقابلتها عادوا الى بيوتهم آسفين .

من بكركي الى بيروت

دعاها السيد البطريرك ، في نهاية الخمسة الاشهر على اقامتها في بكركي كما تقدَّم الكلام ، الى المثول امامهُ وامام اساقفته ، واخذ يسهّل لها الرجوع الى اهلها على ما مرَّ ، امتحاناً لعزمها . فوجدها راسخة القدم ، ثابتة العزم على الديانة بدين المسيحية ، فكانت تجيبه : « الموت أحبُّ اليَّ من الرجوع الى

اهلي . واني اشتهي من صميم قلبي ان اكون مسيحية »

اراد غبطتهُ ان ينصّرها ، فعارضهُ الاساقفة ، مخافةَ ازدياد ثوران الدروز وانتقامهم من النصارى بسببها وقد عرفوا بوجودها في بكركي ، فعدل عندئذٍ عن رأيه واتفق والاساقفة على ارسالها الى بيروت . وفي اليوم التالي استدعوا رجلًا وامرأة وامروهما بايصالها الى محلّ آمنٍ في بيروت . فذهبا بها وهي غير عالمةٍ في اي مكانٍ تحطُّ عصا رحالها وما سألتها عن شيء .

كان للرجل صديق في بيروت ، فبات ثلاثتهم تلك الليلة عنده . ولمّا وقف مُضيفهم على حقيقة أمرها ، اشار الى رفيقيها ان يضعاها عند الانكليز « البروتستانت » ، فقاومتهُ امرأتهُ مبيّنة عدم صواب رأيه ، ومفضلة وضعها في دير راهبات المحبة اللعازريّات ، لانها كانت تحبُّهنَّ لِما يبذلن من المعروف والاحسان. وفي اثناء تبادلهم الآراء ، وصل اليهم خوري من السُيَّاح ، فعهدوا اليهِ ايصال هذه الابنة الى دير الراهبات .. فمضى بها الكاهن وعرضها على الرئيسة راجياً قبولها ، فقبلتها على الرحب والسعة بدون ان تسألها عن هويّتها ودينها .

ليأذن لنا القارئ اللبيب ان نقف قليلًا عن متابعة حديث حسن ، ونرى ما كان من امرها في دير راهبات المحبة :

معلومات وردة ثابت

في سنة ١٩٢٥ ، علمتُ انَّ ابنةً عابدةً تقيم في دير البنات اليتيمات لراهبات المحبة اللعازريّات في بيروت ، تعرف حسن علوان — الاخت مسيحية — واسمها وردة ابنة فارس ثابت من دير القمر ، برحت بلدتها في سنة ١٨٦٠ . وأوت الى دير الراهبات المذكورات واقامت فيه بصفة عابدة ، تزاول الخدمة الى آخر حياتها ، وكان لها من العمر ستّ وستّون سنة . قصدتُها وسألتُها ما تعرفه عن الابنة الدرزيّة حسن ، قالت :

« ان الاخت مسيحية كانت اولًا في دير بكركي ، وقد ارسلها البطريرك الى دير البنات اليتيمات للعازريّة ، وكانت تجهل القراءة فعنيت الراهبات بتلقينها مبادئ الديانة المسيحية والقراءة العربية والفرنسية والخطّ في كلتيها ، وشغل

الابرة ايضاً . فاتقنت هذه الدروس وبرعت بها لانها كانت ذكية الفؤاد. وبعد ثلاث سنوات اقتبلت سرّ العماد المقدّس في ٨ ايلول ، عيد ميلاد السيدة العذراء ، وسمّتها الراهبات باسم ماري ، وانضمّت الى اخوية الحبل بلا دنس . وفي تناولها الاول ألبستها رئيسة الدير الاخت بيْزن الفرنسية الأصل ، ثوباً ابيض . وكان فرح ماري بتناول القربان المقدّس لاوّل مرّة عظيماً جداً..

« ثمّ أقامت عندنا في الدير سنتين ، تقضي حصّةً كبيرةً من ايامها في الكنيسة ، وتباشر في كل شهر رياضتها مع بنات اخويّة مريم ، وتثابر على التناول اليوميّ . وكانت جميلة الصورة بدينة ، لطيفة في معشرها ، وديعةً كريمةً في اخلاقها ، حارّةً في عبادتها ، نشيطةً دقيقةً في حفظ واجباتها . وقد أحبّتها الراهبات لدماثة طبعها وجزيل تقواها ، وعهدن اليها خدمة الكنيسة . ولم تكن ترغب في التنزّه ولا في الخروج من الدير ، ولم نسمعها تذكر اهلها مرّةً ، ولم ترد ان يأتي أحدٌ على ذكرهم امامها . وقد دروا بمكانها فقصدوها ليخرجوها من الدير ، فاختبأت حالما شعرت بهم رافضةً رؤيتهم . واذكرُ ان اسم والدها شاهين . ويُقال انها كانت مزوّجة .

« أمّا كيفيّة خروجها من الدير فهي : قالت لها الرئيسة مرّةً ان شغلك في تطريز هذه القطعة غير حسن ولا تظنّين اننا نقبلك في سلك الراهبات اذا لم تكوني ماهرةً في التطريز . وقصد الرئيسة بذلك ان تنشّطها الى اتقان هذه الحرفة . أمّا ماري فاعتقدت صحّة كلامها . وبينا كنا مجتمعات للصلاة في الكنيسة لم نجدها بيننا ، واتفق ان وجدنا تحت وسادتها ورقةً مكتوبةً فيها هذه الكلمات : لا تفتّشن عني فاني ذاهبةٌ الى مكانٍ يدعوني الله اليه . ومن ذاك الحين لم نعد نراها ، وقد سألنا عنها فقيل لنا انها في دير بجبّات لبنان الشمالي . »

« انتهى كلام وردة ثابت »

* * *

من دير الراهبات اللعازريات الى دير الراهبات اللبنانيات

لنعد الى تتمّة ما بدأنا به من قصّتها :

بعد ان قضت حسنُ اربع سنوات في دير الراهبات اللعازريّات تتلقّى في خلالها اصول الدين المسيحي ، طلبت من الرئيسة ان تتنصّر ساردةً لها قصّتها مفصّلة ، فاطلقت الرئيسة البنات الى خارج الدير ولم تبقِ فيه سوى راهبةٍ واحدة . ثمّ استدعت المرشد وكاهناً آخر وعمّداها سرّاً ، وسمّيت مريم ، وسُلّمت اليها شهادة تنصيرها . وفي اليوم التالي تناولت جسد الربّ ، وانجلى لعقلها اذ ذاك ما كان يصعبُ عليها فهمهُ من اسرار الدين المسيحيّ .

مكثت في دير الراهبات سبع سنوات [1] قائمةً بخدمة الكنيسة . وكان اهلها في كل هذه المدّة لا يتوانون في البحث عنها ، فلم يظفروا بها . وقد حضر مرّةً رجلٌ من بعيدات لزيارة بنتٍ له في دير الراهبات ، عمرها ست سنين ، وطلب منها ان تمكنه من مقابلة مريم ليقتادها قسراً الى عمّها الذي وعدهُ بالمكافأة ، اربعة آلاف غرش ، فأبت ابنته اجابة طلبه ، وبكت على قدميه ضارعةً اليه ألّا يقرّ لاحدٍ بمكانها فاقتنع ومضى .

أتى مرّةً اخرى بعض ذويها الى الدير ، فصادفوا بالقرب منه عدداً من البنات يغسلن الثياب فامعنوا النظر فيهنّ لعلّهم يعثرون عليها بينهنّ فلم يجدوها . وكان دورها بالغسيل في ذاك اليوم ، غير انّ الله ألهم الرئيسة ان لا تدعها تخرج مع البنات ، بدون سابق علم بمجيء اقربائها الذين طلبوا ان يدخلوا الدير ويفتّشوا عنها ، فلم تأذن لهم الرئيسة فعادوا أدراجهم خائبين .

كانت الرئيسة والراهبات يعدنَ مريم بقبولها طالبةً للترهب في احد ديورتهن بباريس بعد اربع سنوات . غير انها استطالت المدّة . واذ كان شوقها شديداً الى لبس الثوب الرهباني ، رأت ان تنخرط في سلك الراهبات المارونيّات ، وعقدت النية على الخروج من دير الراهبات اللعازريّات . فنهضت يوماً وانتزعت

---

[1] نظنّ ان رواية الاخت مسيحيّة عن نفسها : انها قضت في دير راهبات المحبّة سبع سنوات ، أصحّ من رواية وردة ثابت التي قالت انها مكثت خمس سنوات .

غطاء فراشها لتستتر به عن العيون ، وخرجت من الدير خفية بدون ان تأخذ معها شيئاً . وكان بيدها مفتاح الصندوق الذي تُلقى فيه النذور ، وهو ممتلئ من الدراهم ، فلم تمدّ اليه يداً .

سارت في طريقها ، فبلغت بكركي ، وكان وقتئذٍ السيد البطريرك بولس مسعد في القسطنطينية . ولم يكن في بكركي سوى كاهن من الرهبانية الانطونية ، يُدعى القس جبرائيل ، فروت له حكايتها . فاشار عليها ان تذهب الى الديمان ، وتعرض مسئلتها على المطران يوسف المريض ، النائب البطريركي ، فيتدبّر امرها . وبعث اليه بكتابٍ معها يرجوهُ فيه العطف عليها ، وزوّدها ستّة ارغفة . فشكرت جميله ، ومشت قاصدةً الديمان متوكلة على عناية الرحمان .

وصلت الى كنيسة سيدة مرتين في جبيل ، فاستوقفها جنديٌّ وشرع يتهدّدها ويطرح عليها اسئلةً فضولية ، فأرتهُ الكتاب الذي تحملهُ الى المطران ، وحينما لمح عنوانهُ أخلى سبيلها . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، فارتبكت مريم بامرها ، ولعبت برأسها المخاوف وامست مروَّعة القلب مرتعدة الفرائص لا تدري كيف تتوجّه :

وإذا العنايةُ راقبتك عيونُها نَمْ فالمخاوفُ كلُّهنَّ أمانُ

وانها لكذلك ، سخّر الله لرفقتها شاباً من بشرّي ، خادماً في الديمان كان عائداً اليه من بيروت ، فسكّن جأشها وأزال المخاوف من قلبها قائلاً : اتبعيني ولا تخافي . وسارا ليلاً حتى انتهيا الى فدعوس ، بالقرب من البترون ، فباتا تلك الليلة فيها . أمّا مريم فأبتْ ان تنام إلّا في خيمةٍ مهجورة لا فراش فيها ولا غطاء .

ولمّا تبلّجت انوار الفجر ، استأنفا السير الى قرية كفيفان . واذ كان هذا الشابّ معجلاً في الرجوع الى الديمان ، وكان التعب قد أنهك قوى مريم فعجزت عن ان تماشيه ، تركها هناك ومضى يغذّ في طريقه . وكأنّ العناية الالهية أبتْ ان تُهمل هذه الابنة المسكينة ، فقيضت لها رجلاً من حدث الجبة

فرافقته اليها . ومن هناك ذهبت وحدها الى الديمان . وقبل أن تصل اليه ، التقت برجل مهيب ملتح قد جلّلة بياض الشيب تبدو على وجهه سمات الوقار والكمال فابتدرها بهذا الكلام: «اذا سألك المطران اين تريدين الترهُّب فقولي لهُ في دير مار سمعان القرن . » واشار الرجل بيده قائلاً : « هناك دير مار سمعان ، على رأس تلك التلَّة حيث ترين الدخان متصاعداً من الأتُّون » (كان الرهبان وقتئذٍ يرممونه) . ثمَّ ناولها من ذات خاطره غرشين لتبتاع بهما ما يسدُّ جوعها ، وهداها الى طريق الديمان التي ضلّتها . وقد كانت في اشدّ الحاجة الى الاكل لانها ما تبلّغت في ذاك النهار .

وصلت الديمان ، وقابلت المطران المريض وعرضت له أمرها فسألها : اين تريدين الترهُّب ؟ اجابت : في دير مار سمعان القرن . قال : سيحضر عندنا عن قريب الاب افرام جعجع البشرّاوي ، رئيس الرهبانية اللبنانية العام ، فنكلّمه بشأنكِ . وفي اليوم التالي وجَّهها المطران الى دير مار انطونيوس قزحيا ، وسلّمها كتاباً للاخ عبد الاحد البشرّاوي ليقبلها مدّةً في الدير .

حضر الرئيس العام الى الديمان وروى له المطران روايتها واكلّا اليه العناية بها ، ثمَّ قفل راجعاً الى مدرسة بان . وما درت مريم به حتى اسرعت الى مقابلته تستدرّ منه الشفقة عليها ، فارسلها الى دير القرن بمعية رجل وامرأة من قرية بلوزا [1] ، وكتب الى الرئيسة كلمة توصية بها .

(للبحث صلة)

---

١) كان الرجل والمرأة يزورانها في دير القرن من حين الى حين ، وقد زاراها ايضاً في دير الظهر ، وكانا يحبّانها ويعطفان عليها كأنها من ذوي قرباها .

اول مسافر اوربي في مكة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

تحرم شريعة الاسلام ، على غير المسلمين ان يدخلوا منطقتي مكة والمدينة ، وذلك تحت عقابات طائلة قد يكون من جملتها الاعدام . اما هذا التحريم فهو توسيع مبالغ فيه لما ورد في السورة التاسعة من القرآن وهو : « يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا » (القرآن ٩ : ٢٩) ويجدر بنا ان نلاحظ ان القرآن لا يحظّر ذلك على « اهل الكتاب » بل على المشركين ، وانه لا يمنعهم الدخول الى مكة ، بل الاشتراك بالحجّ ومناسكه ، فاذا اتضح هذا قولنا ان المسلمين بالغوا في شرح هذه الآية . وفضلاً عن ذلك فان التاريخ يثبت انه كان لغير المسلمين ، في القرن الاول للهجرة ، مطلق الحرية ليس فقط بان يدخلوا المدينتين المقدّستين ، بل بان يقيموا بهما ما شاؤوا . واننا نرى فيها ، اذ ذاك ، كثير من اليهود والنصارى ، من تجار ، وموسيقيين ، واطباء ، ومهندسين ؛ وكان لهم مقبرة معروفة .

على ان هذه الحرية لم تدم مدةً طويلة ، فحُرّم دخول الحرمين منذ القرن الثاني للهجرة . ولكن لا يمكن القول ان هذه الشريعة لم يخرقها احد بعد القرن الثاني . فان من يجزم بأمر كهذا يبرهن عن جهل بقوّة الجاذبية التي يحدثها في عقول الفضوليين ، وهم دائماً كثيرون ، كلُّ امر مجهول تكتنفه الاسرار . بيد انه ، وان كان عدد الشرقيين ، من غير المسلمين ، الذين عادوا من مكة سالمين ، لا يُستهان به ، فانه لا يمكننا القول نفسه عن مسافري اوربة ، وخصوصاً عن اولئك الذين تركوا في آثارهم ، وصف ما لاقوه في الحرمين . فان عددهم لا يجاوز الخمسة عشر . يخرج منهم ثلاثة او اربعة لا نرى براهين كافية لتصديق مرويّاتهم . وقد كان آخر من زار الحرمين من مسافري اوربة الانكليزي الدون روتر الذي قام برحلة سنة ١٩٢٥—١٩٢٦ .

وقد وصف «مشرق» السنة الفائتة (حزيران، ص ٣٩٠) كتابه في ذلك . وان قلة من نجح من هؤلاء الرحالة في مغامرتهم الصعبة توضح اهتمامنا باول مسافر اوربي زار مكة والمدينة.

في اوائل القرن السادس عشر، كان كريستوف كولومب قد اكتشف اميركة، وكان ڤاسكو دي غاما قد دار حول رأس الرجاء الصالح وافتتح الطريق البحرية الى بلاد الهند العجيبة، فكان الكثيرون يحلمون بكشف الجديد الغريب . في ذاك الزمن، كان يعيش بمدينة بولونية في ايطالية رجل مغامر جريء يدعى لودوڤيكو دي ڤرتيما (Ludovico de Varthema) كان اقصى متمناه ان يزور البلاد الغريبة، فيدرسها، ويعرّفها لاهل اوربة.

ولما كان العالم الجديد قد اكتشف قبله، حوّل نظره جهة الشرق، وعزم على زيارة الجهات المجهولة في جزيرة العرب: المدينة، ومكة، وبلاد اليمن المدعوة «بلاد العرب السعيدة». ومن هناك عزم على ان يسير الى الهند، فالى اجتياز اقصى الحدود التي كان وصل اليها الرحالة قبله. هذا ملخص الخطة التي وضعها لنفسه قبل السفر، وقد قيض له ان يتمم اكثرها . وبعد رجوعه الى وطنه نشر باللغة الايطالية وصفاً مطولاً لرحلته هذه،[1] طبع مرات عديدة وترجم الى اكثر اللغات الاوربية. اما المؤلف فلا نعرف عن حياته شيئاً يذكر، قبل قيامه بالرحلة، الا ما ذكرناه من اسمه ومدينته . بل ترجح انه كان في الثلاثين من عمره اذ ركب البحر من البندقية سنة ١٥٠٣ .

وبعد ان قام مدة قصيرة في القاهرة، اقلع الى بلادنا، فنزل في بيروت وقد اثرت فيه عاصمتنا تأثيراً حسناً، فوصفها «غنية بجميع المرافق، يحيط بها البحر حتى تتكسر امواجه على اقدام اسوارها.» وقد ذكر فيها «الهيكل المقام على الموضع الذي قتل فيه القديس جرجس التنين، ولكنه كان خراباً.» ثم سافر من بيروت الى حلب بطريق طرابلس . ولم يلبث ان رجع فدخل دمشق واقام فيها «أشهراً يتعلم اللغة العربية.» اما ما حفظه من هذه اللغة

1) P. Giudici, *Itinerario di Ludovico de Varthema*, Milano, 1928. وقد استندنا الى هذه الطبعة في النصوص التي نوردها.

فكان خصوصاً اللسان العامي كما تشهد التعابير الكثيرة التي يدخلها كتابه (في الصفحات ١٠٣–١٠٥، ١١٤، ١٢٢، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٢–١٤٤ الخ)، والتي تدل دلالة واضحة على ان ذاك اللسان العامي لم يتغير منذئذ تغيّرا يُذكر.

وكان ان عرف في دمشق باستعداد قافلة الحج للسفر. فخطر له ان يرافقها. وكان قد حصل صداقة بينه وبين قائد المماليك المكلّفين مرافقة الحجّاج وحراستهم والدفاع عنهم لدى هجمات البدو. فدفع رحّالتنا الى القائد المذكور «قيمة جسيمة من الدراهم» فاعطاه هذا ثوباً من البسة المماليك الخاصّة وسهّل له سائر معدّات السفر، فغادرا دمشق مع القافلة في ٨ نيسان ١٥٠٣.

وكان عدد رجال القافلة «٤٠,٠٠٠ من الحجاج[1] وستّين من الحرّاس المماليك.» وقد سارت على الطريق المعروف «بدرب الحجّ»، وهو الطريق الذي سار عليه منذ القديم حجّاج الحرمين من مسلمي سورية. ولم تخرج القافلة عن العادة القديمة ايضاً في محاربة البدو الذين ما فتئوا يطالبون بحقّ المرور، وبثمن مياه آبارهم، حتى حققوا ما قاله عنهم الحديث الذي يسميهم «سرّاق الحجيج». وعلى يومين او ثلاثة من المدينة الى شماليها وصلت القافلة، على قول رحالتنا، «الى جبل يسكنه نحو اربعة او خمسة آلاف يهودي. وهم تقريباً عراة، صغار القامات، اصواتهم كاصوات النساء، لا يأكلون الّا لحوم الضأن. ويشهرون يهوديّتهم. واذا وُفقوا الى القاء القبض على مسلم، فانهم يسلخون جلده حيًّا.» (ص ٩٨)

فما هو ظنّنا بهذا الزعم؟ هل ردّد مسافرنا خرافة كان قد سمعها من الحجّاج، وقد ازهقتهم مساوئ البدو فانتقموا منهم بان اتّهموهم باليهودية؟ ومهما يكن من الامر فان مؤلفي العرب، في القرن الحادي عشر، كالمقدسي مثلًا يشيرون الى وجود جوالي يهودية في وادي القُرى. والحال ان طرف هذا الوادي الجنوبي يقع على يومين او ثلاثة من المدينة . . .

ثم اجتازت القافلة «بحر الرمل»، اي النفود، وقد هبّت عليهم عاصفة سموم. فكانت الريح تثير غمائم الرمال كثيفة حتى ان احدهم لم يكن يرى

١) قد يكون في هذا العدد بعض المبالغة.

رفيقه على عشر خطوات .

كان في اوربة خرافة مشهورة متداولة منذ القرون الوسطى ، مفادها ان «قبر محمد في المدينة معلق في الهواء بفضل جاذبية قطعة عظيمة من المغناطيس.» فكذّب ڤرتيما هذه الخرافة بلهجة لا تحتمل الردّ ، وقال: «لقد شاهدت قبر محمد في المدينة. وقد اقمنا فيها ثلاثة ايام فامكننا ان نزور كلّ شيء..» (ص ٩٩).

وفي خروجهم من المدينة ، تبعوا الطريق المارّة ببدر ، موقع المعركة الشهيرة ، فوصلوا الى مكة في ٤ ايار بعد ان ساروا اربعة اسابيع سيراً شاقاً منذ خروجهم من دمشق . وقد وصف الرحالة مكة فقال : « انها مدينة غاية في الجمال ، كثيرة السكان ، تعدّ نحو ٦,٠٠٠ بيت . منازلها حسنة كمنازلنا . . . اما امير المدينة فهو من اسرة محمد ، متعلّق بسلطان مصر . وله ثلاثة اخوة لا ينفكّون يحاربونه . واما البلاد المجاورة فكأنها وقعت عليها لعنة الله فهي لا تنبت شيئاً من العشب ولا من الشجر ، لكثرة احتياجها الى الماء . وكل الموادّ الغذائية تقريباً تأتيها من القاهرة . وقد شاهدنا من الحجّاج في مكة من أتوا للتجارة ، ومنهم من جاء لنيل مغفرة خطاياه . » (ص ١٠٩ . . .)

ثم يصف ڤرتيما الجامع الكبير فيقول : « هو هيكل جميل جداً يذكر ببناء الكوليزي في رومية [1] ، وان لم يكن مبنياً بمثل حجارته الجميلة ، بل هو مبني باللبن . وعلى بابه يقف باعة الحلي . وفي داخله ، تحت القناطر ، اربعة او خمسة من باعة الطيب . وهواء الجامع مثقل برائحة المسك وغيرها من العطور اللطيفة . وهو مكشوف صحن الدار ، وفي وسطه برج [هو الكعبة] مغطّى بستار من الحرير الاسود . وعلى علوّ قامة الرجل ، باب من الفضة الخالصة (كذا) يدخل منه الى داخل البرج . وفي ٢٤ ايار ، منذ الصباح ، اخذ جميع الحاضرين يطوفون سبع مرات حول البرج المذكور ، ويلمسون ويقبلون كل زاوية من زواياه . واذا سرت اثنتي عشرة خطوة من البرج رأيت بئراً جميلة [هي زمزم] فيها ماء أجاج ، وحولها ستة او ثمانية رجال يستقون للشعب . فاذا اتمّ الحجاج طوافهم سبع مرات ، اقبلوا نحو البئر ، فحنوا ظهورهم ،

١) هو المدرّج القديم في رومية . ولا نرى وجهاً للشبه بين الاثرين.

وقالوا: « بسم الله الرحمن الرحيم استغفر الله »[1] فيرمي الرجال المستقون على كل واحد منهم ثلاث دلاء. فيغسلونه من رأسه الى قدميه.» (ص ١١٢-١١٤).

ثم يصف رحالتنا، ولكن بشيء من الغموض، مناسك الحجّ في مزدلفة، وعرفات، ومنى. فيتكلم عن « تضحية عشرين الف خروف »، وعن « خطبة دامت ساعة كاملة »، وعن الجمرات. ثم بعد ان يعود الى مكة يذكر حمائم الحرم المشهورة، فيقدّر ان عددها ٢٠,٠٠٠ حمامة، ويقول: « يزعمون ان هذه الحمائم من نسل تلك الحمامة التي كلّمت محمدًا بهيئة الروح القدس (كذا!). وهذه الحمائم تطير بكل حرية في جميع انحاء المدينة، فتدخل حوانيت القمح والارز وما شاكل من الحبوب. ولا يجرأ اصحاب الحوانيت على طردها. واذا بلغ عدم الاهتمام باحدهم الى ان يؤذيها، فيكون اذ ذاك انتهاء العالم. واعلموا انهم ينفقون النفقات الباهظة لتغذية هذه الحمائم في الجامع الكبير ».(ص ١١٨)

وبعد ان اكتفى فرتيما من زيارة مكة، فشاهد ما راقه، اراد ان يتابع سفرته الى الهند. على ان صعوبةً شديدة كانت تعترضه، وهي انه، بانخراطه في سلك المماليك، كان عليه أن يعود الى دمشق في حراسة القافلة السورية، بعد انقضاء الحج. ولكنه تخلّص من ذلك بان اتفق مع احد اهالي مكة، فاخفاه هذا في بيته الى ما بعد سفر القافلة بثلاثة ايام. فسار صاحبنا الى جدّه، ميناء مكة، فرأى فيها « منازل جميلة على طراز منازل ايطالية » ووصفها « مدينة فيها حركة تجارية مهمة. على ان كل انواع التجارات فيها بيد المسلمين لان دخولها محظور على النصارى واليهود. اما حاكمها فالامير بركات، شريف مكة. ولا تخرج البلاد شيئاً من المحصولات، لان حاجتها الى الماء شديدة. وكلّ المواد الغذائية الضرورية تأتيها من القاهرة او اليمن او غيرها. والامراض فيها كثيرة يعزوها الجميع الى رداءة المناخ. وفي جدّة نحو ٥,٠٠٠ منزل. امّا المرفأ ففيه نحو مئة مركب بين كبير وصغير ». (ص ١٢٥)

ومن جدّة اقلع فرتيما الى اليمن فقام برحلات جديدة اوصلته الى جزائر الهند، وليس علينا ان نرافقه اليها.

---

١) هكذا ورد في الكتاب بالحرف اللاتيني.

عنترة التاريخ وعنترة الاسطورة

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢

ديانته — اخلاقه وصفاته

نصرانيته

تباينت الآراء في دين عنترة تباينًا في دين اكثر الشعراء الجاهليين . وقد قُيّض لنا في الاعداد التي ظهرت من « الروائع » ان نلخّص بعضها في ما خصّ دين امرئ القيس[١] ، وطرفة[٢] ، وزهير[٣] ، وعمرو بن كلثوم والحرث بن حلّزة[٤] . اما عنترة فاشهر الاقوال في دينه قول المرحوم الاب لويس شيخو الذي جعله من « شعراء النصرانية » وبسط براهينه في عدة ظروف ، بعد ان اجملها في كتابه « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » وهي تردّ الى ما يلي :

١ ــ نصرانية امه الحبشية ، والحبش نصارى كما هومعروف.

٢ ــ الآثار العديدة الدالّة على التوحيد الظاهر في شعره ، الصحيح والمصنوع ؛ والتوحيد ، قبل محمد ، لم يشع في جزيرة العرب الا بفضل النصرانية .

٣ ــ وجوده في خدمة الملك زهير وابنه قيس ، وهما نصرانيان[٥] .

ومهما يكن من صراحة النصرانية في معتقدات عنترة ، فاننا نرى في سلوكه نهجاً حسناً لا نخطئ اذا شبهناه بتأثير الفضائل المسيحية :

---

١) الروائع ٧ : ل
٢) الروائع ٢٥ : ز
٣) الروائع ٢٤ : يد
٤) الروائع ٢٦ : ط
٥) الاب شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، ص ٤٣٦ .

عفته – ترفعه

من ذلك عفته المشهورة التي افتخر بها في بعض ابياته ، وهي ما يحق به الافتخار في محيطه وزمانه ، فقال :

اغشى فتاة الحي ، عند حليلها ، واذا غزا في الجيش لا اغشاها ،
واغض طرفي ، ما بدت لي جارتي ، حتى يواري جارتي مأواها (١

فسار ذلك عنه مسير المثل ، وساعد انتشاره انغماس اكثر ابطال العرب وشعرائهم ، في الجاهلية والاسلام ، في الملاهي والملذات على اختلاف انواعها حتى اصبحت العفة فيهم من الامور المستغربة ، مما دفع ابن عبد ربه الى القول ، عن لسان بعضهم :

« وددت لو ان لنا ، مع اسلامنا ، كرم اخلاق آبائنا في الجاهلية ! الا ترى عنترة الفوارس جاهلي لا دين له[٢] ، والحسن بن هانئ ، اسلامي له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه ، فقال عنترة :

واغض طرفي ، ان بدت لي جارتي ، حتى يواري جارتي مأواها

وقال الحسن بن هانئ ، مع اسلامه :

كان الشباب مطية الجهل ومحسن الضحكات والهزل ... الخ (٣

ولم يكن من نتائج عفة عنترة الترفع عن الملذات المحرمة فحسب ، بل تجاوزت عفته ذلك الى الماديات ، فكان يقرن الى بطشه بالاعداء الترفع عن اغتنام الاسلاب ، فاذا «غشي الوغى» عف عند المغنم» كما قال في المعلقة[٤] ، وكما تردد ذكر ذلك في الكثير من شعره الصحيح والمنحول

سهولة خلقه – كرمه

وكما كان يعف عند اغتنام الاسلاب ، كذلك كان يترفع عن الاساءة

١) اطلب الروائع ٢٧ : ٢٧.
٢) قال ذلك جرياً مع الوهم السائد انه لا دين ولا مدنية يستحقان الذكر في زمن « الجاهلية ».
٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد – الروائع ٩ : ٦١ ٤) المعلقة : ٤٧.

الى الغير ، فكان لطيف المعشر ، سهل المخالقة[١] ، مبتعدا جهده عن الظلم ، الا اذا ظُلم ، وكثيرا ما كان يظلمه قومه ، فيجازيهم اذ ذاك

بظلم باسل ٍ ، مر مذاقته كطعم العلقم [٢]

اما ايام يصفو له الدهر ، فلم يكن يتأبى ما كان يرتاح اليه سراة العرب من مجالس الانس واللهو ، فكان يجيل القداح ، ويعاقر الخمرة الجيدة المصفاة ؛ الا انه كان يفوق رفاقه رزانة وتحفظاً ، حال شربه . فاذا استهلك ماله ، ظلّ محافظاً على شرفه ، واذا صحا من السكر ، لم يندم على تكرّمه السابق ، بل اردف العطاء بالعطاء ، مما يدلّ على ان الكرم فيه سجيّة وليس من مفاعيل السكر[٣] .

واذا اضفنا الى هذا ما اشتهر عن حلم عنترة وصبره وترفعه عن الدنايا جملةً ، فهمنا القول الذي نُسب الى النبي محمد ، اذ أُنشد بيت عنترة :

ولقد ابيت على الطوى واظلّه حتى انال به كريمَ المأكل

فقال : « ما وُصف لي اعرابي قطّ ، فاحببت ان اراه الا عنترة ! »[٤] .

شجاعته – فروسيته

اما شجاعة عنترة فحدّث عنها ولا حرج ، وقد ملأ القصائد العديدة بذكر آثارها ومفاعيلها ، من خوض مخاطر ، واقتحام جيوش ، وقتل ابطال ، واخذ ثارات . الا ان شجاعته هذه ، كما نراها موصوفة في كتب التاريخ ، تظهر بعيدة عن التهوّر المُضحك الخاص بالحمقى من رجال الحرب ، كما انها تظهر بعيدة ايضاً عن الحميّة المجرّدة والمروءة الخالصة التي تدفع رجال «الفروسية» وكبار الابطال الى نجدة المستغيث في اي ظرف كان ، فيرتمون في المخاطر دون حساب للعواقب ، بل دون نظر في من هو هذا المستغيث . مما لا شك فيه ان عنترة كان شجاعاً ، ولكنه كان مقتصداً في شجاعته ، مفكراً في طريقة استعمالها ، لا يبذل منها الا بمقدار ، مجتهداً في استعمال هذا المقدار

١) المعلقة : ٣٦
٢) المعلقة : ٣٧
٣) المعلقة : ٣٨ – ٤٢
٤) الاغاني ٧ : ١٥١ .

القليل لنيل الكثير من التأثير ، كما ذكر عنه صاحب الاغاني ، في سلسلة من الاسانيد ، فقال: قيل لعنترة : « انت اشجع العرب واشدّها ؟ » قال: « لا! » قيل : « فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزماً ، واحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ، ولا ادخل موضعاً لا ارى لي منه مخرجاً . وكنت اعتمد الضعيف الجبان ، فاضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع ، فاثني عليه واقتله . »[1]

سيرة عنتر

هذا « عنترة التاريخ » ، كما تمكنا من معرفته احاديث الرواة وابيات شعره من التي لا يكاد يُشكّ في صحة نسبتها . اما « عنترة الاسطورة » ، او « عنتر » بحذف التاء[2] ، فهو تلك الشخصية المرتفعة حتى ارقى درجات البطولة ، المزدانة باسمى فضائل الفروسية ، الجامعة بين جرأة الشجعان لا يهابون من المخاطر شيئاً ولا يتراجعون امام اجتراح الخوارق والمعجزات ، وعطف السراة المقتدرين يحنون على الارامل والايتام فينصفون المظلوم وينتقمون من الظالم ، مضحّين براحتهم ووقتهم وانفسهم في سبيل ما ينيلهم الفخر الحقيقي والمجد الدائم . هذه الشخصية البارزة ، الخالية من الشوائب ، الظاهرة مثلاً اعلى « للفارس الكامل » ، تبدو لنا في مجلدات القصة الكبيرة المشهورة بين جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مللهم ونحلهم ، المعروفة « بسيرة عنتر » ،

١) الاغاني ٧ : ١٥٨ .

٢) أسقطت تاء التأنيث من اسم « عنترة » لكثرة التداول ، ولان الاسم بصيغة المذكر يحدث مفعولاً اعظم في عقول جمهرة الناس من سماع الاحاديث والقصص . اما ما لاحظه المستشرق هرتمن (Hartmann) ، في معلمة الاسلام « *Encycl. de l'Islam I, 366* » ، من ان اسم « عنترة » يظهر بصيغة المذكر في شرح حماسة ابي تمام (المجلد الاول ، ص ١٠٨) فلا نرى له كبير اهمية ، لان الشارح لا يشير خاصة الى اسم « عنترة » بل هو يشرح اللفظة شرحاً لغوياً في كلامه عن عنترة بن الاخرس فيقول : « قال ابو الفتح : العنتر والعنترة جميعاً الذباب الازرق ، فهو منقول ايضاً . . . وقال ابو العلاء : « عنترة مسمى بالواحد من الذباب ، يقال : عنترة وعنتر في الجمع . . الخ » (حماسة ابي تمام ١ : ١٠٨) — وقد ورد الاسم ، بصيغة المذكر ، في شعر عنترة نفسه ، (المعلقة : ٧١ و ٧٥) وذلك على سبيل الترخيم . ولعلّ هذا من الاسباب التي دفعت القصاصين الى اسقاط تائه .

فتملأ اقسامها فخراً وحماسة ، وكرم اخلاق ، ونبالة مقصد ، وتسمو بمطالعيها الى اشرف العواطف ، اذ تسير بهم على آثار ذاك العبد صاحب النفس الحرّة الابية.

كل هذه الصفات الكاملة لم يخترعها مؤلف القصة ، او مؤلفوها ، بل وجدوا اصولها في ما ذكرناه من المعروف عن اخلاق عنترة وصفاته. ولكنهم اجروا فيها لمخيلتهم العنان ، فتوسعوا في بعضها ، وابدلوا بالبعض الآخر ما كان اكثر ملاءمة للغاية المتوخاة ، وبالغوا في ذكر المعارك الحربية التي خاضها بطلهم ، وزادوا عليها ما كان من شأنه ان يزيد في اظهار بطشه. وهم على ذلك لا يقفون عند حدّ ، ولا يأخذون بتحفّظ ، فاذا اثبتوا جزموا دون تردّد ، واذا نفوا قطعوا دون تمييز ، حتى اصبح « عنترهم » لا يهاب جيشاً مها بلغ عدده ، ولا يخشى مهالك مها تنوّعت اسبابها ، ولا يتراجع امام عقبة مها كان نوعها ، فاذا قاومته الالوف زعق عليها فبدّدها ، واذا صدّته الجان اعمل فيها حسامه فصرع افرادها ، واذا نبا رمحه عن خرق دروع قِرنه رمى به الارض وضرب صدر القرن بقبضته فانفذها من ظهره.

ولما كان لا بدّ من معاكسة تُظهر فضل هذا البطل ، فتقوم مقام الغياهب اذ تحيط بالنور فتزيد في سطوعه ، اخذ القصّاصون يتوسّعون في المصاعب التي لاقاها عنترة في حياته ، وترجع اسبابها الى امرين : لونه ، وحبه لعبلة.

اما لونه فقد يظهر اشدّ سواداً في القصة منه في التاريخ ، وذلك نتيجة ما اشرنا اليه من ولوع القصّاصين بالمبالغة ، فيجلب عليه احتقار الجميع بما يدلّ عليه من رداءة الاصل ، وخبث المولد. فيحتمل عنترة ذلك بكل صبر ، ويكفّر عنه بالاعمال الباهرة والشعر الكثير.

واما حبّه لعبلة فلا نخطئ اذا عددناه الموضوع المهمّ في القصة ، لان مآتي عنترة جميعها ، سواء كانت في الحرب او في السلم ، تدور حول غاية واحدة وهي الاقتران بعبلة. فضلاً عمّا سبّب له هذا الحب من احتقار عمه مالك وابنه عمرو ، ومن مناظرة عمارة بن زياد « معدن الخبث والفساد » واخيه الربيع ،

فحقدهما الشديد ؛ الى غير ذلك مما يتضافر كله على تشييد العقبات كؤوداً في سبيل البطل الذي ينتصر عليها جميعاً ، فيفوز بالفضل الاسمى ، والفخر الارفع ، مرتقياً الى اعلى منصب في محيطه فيصبح « الحصن المشيد لآل عبس » يدافع عنهم في حياته ، وبعد وفاته ايضاً ، اذ يتخيل الراوي تلك الخاتمة الفاجعة لحياة البطل المجيد ، فيأخذ برواية ابن الكلبي عن موت عنترة جريحاً بسهم الاسد الرهيص ، ويحوّر فيها ما شاءت مخيلته ، فيصبح الاسد الرهيص بطلاً شديداً كان عنترة قد وتره بقلعه عينيه ، فغدا يستنح الفرص للانتقام ، متمرناً على الرماية ، فالاصابة ، لدى سماعه صوتاً او حركة ، حتى انه اذ يشعر بحس عنترة يرميه بسهم مسموم ، فيقطع مطاه . اما عنترة فيحس بقشعريرة الموت تسري في عروقه ، فيركب جواده ملتثماً ، ويقف على باب المضيق مستنداً الى رمحه ، حتى يجوز قومه العقبة ويبعدوا عن العدو ، والفضل « لحصنهم » الذي يحميهم حتى في مماته . ثم يبقى الجسد منتصباً على ظهر « الابجر » الساكن ، والاعداء يرقبونه عن بعد ولا يجرأون على الدنو منه ، الى ان يطول بهم الانتظار ، ويخطر لاحدهم استعمال حيلة تخرج الجواد من جموده ، فيتمايل جسد البطل الاسود ، ويسقط على الحضيض .

هذا المشهد الجميل كان حقيقاً باختتام تلك الحياة الملأى بالمفاخر . ولقد اخذ بقلوب جميع من وقفوا عليه ، فأعجب به الغربيون بعد الشرقيين ، منذ ترجمت القصة الى لغاتهم حتى ايامنا هذه ، وقد اعاد ذكراه المرحوم شكري غانم في روايته الافرنسية الشهيرة « عنتر » التي عرضت مشهد وفاة ذاك العبد بكل ما يستحق من ابهة وعظمة على اشهر مسارح باريس . وقد ارتفع الروائي اللبناني ببطله فوق الدرجات التي اوصله اليها القصاص فاضاف الى شجاعته ، وكرمه ، واخلاصه ، وحلمه ، صفة نادرة في ذاك العصر ، الا وهي روح الوطنية التي تدفعه الى السعي في سبيل توحيد القبائل العربية في حكم ملك واحد . واذ لا يمكنه الموت المفاجئ من تحقيق تلك الوحدة ، يتنبأ عنها ، قبيل وفاته ، في مقاطع من اروع الشعر واشجاه ، يختمها بقوله :

Et, des déserts sans fin, les peuplades arabes

Surgiront, au lever de leur croissant nacré![1]

. . .

هذا « عنترة الاسطورة » كما يبدو لنا واضحاً في « القصة » وما اليها من الاحاديث . اما مصدر هذه الحكايات ، وتحديد زمان نشأتها ومكانها ، واول من باشر تأليفها، فمن الصعب الجزم فيه .

لا ريب في ان العرب كانوا ، كسائر الشعوب ، يتغنون بامجاد ابطالهم الاقدمين ، وينسبون اليهم من الخوارق ما كان يتضخم عصراً فعصراً ، قاصدين ان يقيموا منهم امثلة سامية للشجاعة والكرم وسائر صفات الرجولية . وقد ورد في آثارهم القديمة شيء من هذه الحكايات عن عنترة ؛ فانهم كانوا يتناشدون اشعاره في صدر الاسلام ، ويتناقلون غرائب مواقعه وحوادث بطشه اضراماً للحماسة في قلوب الجنود ابان الحرب ، او تفكهةً وتسليةً في ايام السلم .

فكانت تلك الاخبار المتفرّقة ، التي بقي شيء منها في كتب المحاضرات ، والتي كانت في اكثرها لا تبعد عن الحقيقة ، بمثابة نواة اجتمع حولها اساطير جمّة لعدّة مؤلفين او قصّاصين ، اطلقوا فيها العنان لمخيلتهم وشعورهم ، كما قدّمنا ، فراجت عند الشعب ، وتنوقلت من عصر الى عصر ، ومن مكان الى آخر ، وهي عرضة للزيادة والنقصان ؛ حتى قيّض لها رجل على شيء من العلم بتاريخ الجاهلية وما اليه من العادات والاخلاق والآداب ، وعلى حصّة من الذوق في التأليف ، فجمع اشتاتها ، وضمّها في شبه وحدة ادبية ، مؤلفاً منها تلك القصة الحماسية الكبيرة المعروفة « بسيرة عنتر » . فمن هو هـذا المؤلف ؟

في ابتداء بعض السياقات من القصة ، يرد اسم الاصمعي ، او ابي عبيدة ، او جهينة الاخبار ، او غيرهم من الرواة ، وهي تُعزى في اولها الى الاصمعي . فهل من صلة بينها وبينه ، او بينها وبين احد معاصريه من العلماء المعروفين ؟

(١) Chekri - Ganem, *Antar. Paris, 1910, Acte IV, sc. 3*.

انه لمن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، ان نجيب بالايجاب ، لان اسلوب القصة يختلف كل الاختلاف عن اسلوب ذاك العصر ، ولان فيها من الهفوات التاريخية ، وانواع الغفلات ، والخلط ، والركاكة ، وضعف التأليف ما ينفي هذه الصلة . ولعل المؤلف اراد ان يزيد روايته ثقة ، فاسندها الى الاصمعي ومن على شاكلته من الرواة المشهورين بالاطلاع على تاريخ العرب وطرق معيشتهم .

هذا وقد ورد في احدى طبعاتها البيروتية انها من وضع يوسف ابن اسماعيل المصري . وهو رجل اظهر البحث انه كان يعيش في مصر ، ايام الخليفة العزيز بالله الفاطمي (٩٧٥ - ٩٩٦ م) ، اي في اواخر القرن العاشر للمسيح ، ويتنادر باخبار العرب وحوادثهم . وكان ان حدث ريبة في بلاط الخليفة المذكور ، فلهج بها الناس كثيراً حتى ساءه ذلك ، فاشار على يوسف ان ينشر بين القوم ما يشغلهم . فباشر يوسف كتابة القصة وتوزيعها حتى شغل الناس بها عن امر الخليفة . وكان من تلطفه في التشويق ان قسم الكتاب الى عدة اجزاء بلغ بها البعض ٧٢ ، والتزم في كل جزء ان يقطع الكلام عند معظم الامر ، فيتطلب المطالع الجزء التالي .

وهناك رأي آخر يستند الى قول ابن ابي أصيبعة ، ومفاده ان واضع القصة هو ابو المؤيد محمد بن المجلي بن الصائغ الجزري الطبيب المعروف « بالعنتري » ، لانه « كان في اول امره يكتب احاديث عنتر العبسي فصار مشهوراً بنسبته اليه »[1] . اما زمن ابن الصائغ هذا فيمكننا تحديده بما نعرف من انه كتب رسالة الى حجة الدين مروان ، وزير الاتابك زنكي المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة ، اي سنة ١١٤٥ م[2] . فيكون من ادباء منتصف القرن الثاني عشر .

ومهما يكن من نصيب ابن الصائغ في التأليف ، فان هذا القول يرجح ما قلناه من ان القصة لم ينفرد بوضعها مؤلف واحد ، بل كانت نتيجة عمل طويل

١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء – طبعة ١٨٨٢ مصر - الجزء ١ ، ص ٢٦٠

٢) راجع *J. Asiatique*, 1838, I, 386

غفل ، وروايات مختلفة مشاعة، لا يمكننا حصر زمان نشأتها ، اتى عليها يوسف ابن اسماعيل في اواخر القرن العاشر فجمع متفرقها على رسم رآه موافقاً ؛ ثم قد يكون لابن الصائغ ، الذي اتى بعده بمائتي سنة ، يدٌ في تبويب حوادثها وتقسيمها ، كما قد يكون يدٌ لغيره ايضاً مما لم نعرفهم . يعزز ذلك ما نراه من التباين في ما وصل الينا من رواياتها المختلفة ، وكلها تُردّ الى ثلاث : « السيرة الحجازية » وهي اطولها ، « والسيرة الشامية » ، « والسيرة العراقية » وهي لا تختلف كثيراً عن الثانية .

والقصة ، في مجملها ، مكتوبة باسلوب سهل مسجّع ، فيها كثير من التلميح الى حوادث العرب القديمة ، وحروبهم ، وامثالهم ، واشعارهم . وقد نالت حظاً وافراً من الاعجاب والانتشار في الشرق والغرب . فكان متكلمو العربية في سورية ومصر وبلاد المغرب ، ولا يزالون، يحيون لياليهم في القهاوي او في بيوتهم لسماع القصاصين يروون حوادث بطلهم المحبوب . ومما يدل على شغفهم في ذلك ما رواه اسكندر اغا ابكاريوس قال :

« بلغنا عن رجل من اهل حمص كان يحضر كل ليلة الى حلقة القصّاص يسمع فصلاً من قصة عنترة . ففي احدى الليالي تأخر في حانوته الى ما بعد المغرب ، فحضر الى هناك بدون عشاء . وكان في تلك الليلة سياق حرب عنتر مع كسرى ، فقرأ القصّاص الى ان وقع عنتر في الاسر عند الفرس ، فحبسوه ووضعوا القيد في رجلهِ . وهناك قطع الكلام ، وانفضّت الناس ، فدخل على الرجل امر عظيم واسودت الدنيا في عينيهِ ، وذهب الى بيته حزيناً كئيباً . فقدمت له زوجتهُ الطعام ، فرفس المائدة برجلهِ ، فتكسرت الصحون وانصبّ ما فيها على فرش البيت ، وشتم المرأة شتماً قبيحاً ، فصادمتهُ في الكلام ، فضربها ضرباً شديداً ، وخرج يدور في الاسواق ، وهو لا يقر لهُ قرار . ثم غلب عليهِ الحال فذهب الى بيت القصّاص ، فوجده نائماً ، فايقظهُ وقال لهُ : « قد وضعت الرجل في السجن مقيداً ، واتيت تنام مستريح البال ! فارجوك ان تكمل لي هذا السياق الى ان تخرجه من السجن ، فانني لا اقدر ان انام ولا يطيب عيشي ما دام على هذه الحال . وانظر ما تجمعهُ من الجمهور في ليلتك ، فانا اعطيك اياه الآن . فاخذ القصّاص الكتاب ، وقرأ لهُ باقي السياق حتى خرج عنترة من السجن . فقال له : « اقرّ الله عينيك وأراح بالك . الآن طابت نفسي ، وزالت همومي ، فخذ هذه الدراهم ، ولك الفضل . ثم انصرف الى بيته مسروراً ، وطلب الطعام واعتذر للمرأة بان القصّاص وضع لهُ القيد في رجل عنتر ، وهي جاءته بالطعام ليأكل ، فكيف يمكنهُ ان يذوق طعاماً وعنتر محبوس مقيد قال : « واما الان فقد ذهبت الى بيت القصّاص ،

وقرأ لي باقي الحديث الى ان اخرجه من السجن ، والحمد لله ، قد طابت نفسي ، فهاتي ما عندك من الطعام واعذريني عما فرط مني . »[١]

في الربع الاول من القرن الماضي ، وقف المستشرق كاردَنْ دي كاردون (Cardin de Cardonne) على نسخة منها في القسطنطينية ، فحملها الى باريس حيث كتب عنها دي پرسڤال الابن عدة مقالات في المجلة الاسيوية ، ونشر بعض فصولها في « المنتخبات الشرقية » (Chrestomathies Orientales) سنة ١٨٤١ ، وفيها يقول : « يرى المطالع في سيرة عنترة صورة أمينة لحياة عرب البادية الذين لم تتأثر اخلاقهم بكرور الزمن . ففيها يرى صفاتهم جميعها مصوّرة بكل دقة من اكرام للضيف ، ورغبة في الأثنار ، وحب ، وسخاء ، وحماسة تدفعهم الى الغزو والنهب ، وشغف طبيعي بالشعر . فهي هي الروايات الهوميرية عن حروب العرب القديمة وايامهم قبل محمد ، وعن ابطالهم الاقدمين . ثم ان الانشاء اللبق المتنوّع ، والاخلاق الظاهرة بقوّة والمحدّدة بفنّ ، تزيد في قيمة هذا التأليف . فهي على الجملة « الياذة العرب » . وقد زاد كليمان هوار (Huart) على قوله . انه على هذه الطريقة كان اسكندر دوماس (Dumas) الاب يكتب تاريخ فرنسة[٢] .

وقد ترجم القسم الكبير منها الى الفرنسوية في طبعات مختلفة من مطوّلة ومختصرة خمسة مستشرقين هم : دي كاردون ، ودي پرسڤال المذكوران ، وشربونو (Cherbonneau) ، ودوغا (Dugat) ، ودوڤيك (Devic) . وكان هاملتون (Terrik Hamilton) قد سبق وترجم نحو ثلثها الى الانكليزية ونشره في اربعة مجلدات ، في لندن سنة ١٨٢٠ . ولها غير ذلك ترجمات الى اللغات المختلفة كالالمانية والتركية . ومن شاء الاطلاع على عناوين طبعاتها وترجماتها بالتفصيل الوافي فعليه بكتاب المستشرق شوڤن في مآخذ الكتب العربية[٣] .

---

١) اسكندر آغا ابكاريوس : منية النفس في اشعار عنتر عبس ، ص ٥ - ٦

٢) اطلب Cl. Huart, *Littérature arabe*, 1923, p. 367

٣) V. Chauvin, *Bibliographie des ouvrages arabes*, III, 113 .

اما النص العربي فله عدة طبعات منها الطبعة التي بدأ بها سليمان الجزائري والاب برقاد (Bourgade) في ذيل جريدة « برجيس باريس » واخذا بنشرها على حدة . ولكن لم يظهر منها الا جزءان من اثني عشر ، وذلك سنة ١٨٦٥ و ١٨٦٦ ثم طبعت « السيرة الشامية » في المطبعة اللبنانية ليوحنا غرزوزي في بيروت ، فظهرت سنة ١٨٧١ في ٥٢ جزءاً كل جزء يشتمل على ٣ كتب ما عدا الاخير فعلى كتابين ، وذلك في ٩ مجلدات . وقد طبعت ايضاً في المطبعة الادبية سنة ١٨٨٣ – ١٨٨٥ ، في ٦ مجلدات و ١٥٥ كتاباً . اما « السيرة الحجازية » فطبعت في مصر سنة ١٣٠٦ – ١٣١١ هـ (١٨٨٨–١٨٩٣) في ٣٢ جزءاً . ثم توالت طبعاتها متعددة .

آثاره

الديوان

مما لا شك فيه ان عنترة اشتهر بشعره اشتهاره بفروسيته ، بل هو شاعراً اشهر منه فارساً عند المؤرخين . على ان هذه الشهرة لا ترتكز على معلقته وحدها ، ولكن على سائر شعره ايضاً ، وهو متداول معروف منذ القرن الثامن حتى ان ابن سلام الجمحي ، المتوفى في اواسط القرن التاسع ، ذكر ان له « شعراً كثيراً »[1] تناقله الرواة ، وفي مقدمتهم الاصمعي ، حتى اجتمع له ديوان ذكره حاجي خلفا في فهرسته[2] . الا اننا لا نعلم ما هي الصلة بين هذا الديوان والديوان الذي طبع مرات في ايامنا مشروحاً وبدون شرح ، لاننا نرى في هذا الاخير كثيراً من القصائد التي لا تمكن نسبتها الى عنترة لأسباب ستبسط في الكلام عليها بعيد هذا .

وان احدث هذه الطبعات الطبعة المصرية المشروحة بقلم اديب مصري ،

---

١) ابن سلّام الجمحي : طبقات الشعراء ، ص ٢٥

٢) حاجي خلفا : كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون ، طبعة Flügel ، ٣ : ٢٩٨ ، تحت رقم ٥٥٨٦

بعنوان « شرح ديوان عنتر بن شدّاد » ، وهي مبنيّة على ما نشره المرحوم الاب شيخو في « شعراء النصرانية »[1] سنة ١٨٩٠ ، من شعر عنترة الصحيح والمنحول ، وعلى الديوان الذي طبعه لاوّل مرة في بيروت اسكندر اغا ابكاريوس سنة ١٨٦٤ ، ثم سنة ١٨٨١ ، بعنوان « كتاب منية النفس في اشعار عنتر عبس » ، وتعدّدت طبعاته في بيروت ايضاً واشهرها طبعات خليل الخوري ، ومكتبة صادر ، وفيه كل ما نُسب الى عنترة من الشعر مرتباً على الابجدية مما يبلغ نحو ١٥٠٠ بيت ، مأخوذة عن كتب الادب وعن القصة ايضاً . اما شعر عنترة الذي لا يستند الى القصة فقد اهتم به المستشرق ابن الورد (Ahlwardt) فجمع منه نحو ٣٣٥ بيتاً نشرها مرتبةً على الابجدية في لندن سنة ١٨٧٠ في كتابه الموسوم ، بـ « العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهلين » مع دواوين النابغة ، وطرفة ، وعلقمة ، وزهير ، وامرئ القيس . واردفها بتعليقتين ذكر في اولاهما ما وقف عليه في كتب الادب القديمة مما لا يدخل في ما رواه الاصمعي ، وابو عمرو بن العلاء ، والمفضل ، وابو سعيد السكري ، من الشعر المنحول الى عنترة فكان نحو السبعين بيتاً ؛ وفي الثانية ما وقف عليه من ذاك الشعر المنحول في الكتب المتأخرة ، وهو لا يتجاوز الابيات العشرة .

صحة نسبته

وهنا يجب علينا ان نقف متسائلين عن صحة نسبة هذه القصائد ، مجتهدين في التمييز بين شعر « عنترة التاريخ » وشعر « عنترة الاسطورة » ، اذ لا شكّ ان مؤلفي القصة كان لهم اليد الطولى في صنع القصائد العديدة التي نحاوها بطلهم ، لاسيما ما يُروى منها قبل مبارزة مهمة ، او على اثر معركة شهيرة ، او في اثناء سفرة طويلة . هذا وستكون طريقتنا في محاولة هذا التمييز على نوعين: طريق النقد الخارجي او التاريخي ، وطريق النقد الداخلي او الادبي.

اما الاولى فقد لا تعودنا الى الكثير من النتائج الراهنة اذ لا يمكننا تحديد زمن النحل على الاطلاق ، ولكنها تفيدنا فائدة جلّى في افراد قصائد القصة عمّا تقدّمها ، فالاستنتاج بان هذه اقرب الى الصحة لورود ذكر لها ، او لبعض

---

١) الصفحة ٧٩٤–٨٨٣

ابياتها ، في كتب تقدّم وضعها زمن انشاء القصة . ونحن اذا اعتبرنا يوسف ابن اسماعيل المصري مؤلفاً اشتات تلك الرواية ، ومخرجاً لها على ما يقابح الصورة التي نعرفها بها ، لزمنا ان نفتش في الكتب التي سبقت زمن يوسف ، وهو اواخر القرن العاشر للمسيح ، حتى اذا وجدنا فيها شيئاً من شعر عنترة اقررنا مبدئياً انه من غير صنع القصّاصين. ثم ان لم نرَ سبباً لتجريح رواته ، او زعماً بنسبته الى غير عنترة ، امكننا الاستنتاج ، وان موقتاً ، بانه ثابت صحيح .

واما الطريق الثانية ، او طريق النقد الداخلي ، فتظهر فائدتها اذا ما وصلنا الى هذه النقطة من الاستنتاج التاريخي . وذلك يكون بان تدرس هذه القصائد التي رجّحنا نسبتها بالاستناد الى التاريخ ، فنستوعب صفاتها ، ونفهم روحها وشخصيتها جامعين ذلك الى ما نعرفه من روح الشعر الجاهلي الاجمالية . ثم نطبّق عليه سائر الشعر المنسوب الى عنترة مما لم نتمكن من تحقّق تاريخ وضعه ، فما وافق منه تلك الروح السائدة في الشعر التاريخي رجّحنا صحته ، وما لم يوافق منه، رجّحنا نحله او جزمنا بصنعه ، على حسب ابتعاده عن روح الشعر العنتري خاصة ، والشعر الجاهلي عامّة .

فاذا وضحت هذه الخطة قلنا ان اكثر الشعر المطبوع في مجموعة ابن الورد ، قد ورد شيءٌ من ابياته في الكتب السابقة وضع القصة . وفي مقدمة ذلك المعلّقة ، فقد ذكرت كل ابياتها مجملة او متفرقة في جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي[١] ، وطبقات الشعراء لابن سلّام الجمحي[٢] ، والشعر والشعراء لابن قتيبة[٣] ، والعقد الفريد لابن عبد ربه،[٤] والكامل للمبرّد ،[٥] وتهذيب الالفاظ لابن السكيت،[٦] والاغاني للاصبهاني ،[٧] وأمالي القالي[٨] . فيمكننا

---

١) طبعة مصر ١٣٣٠ هـ . ص ١٨٨-١٩٩ . ٢) طبعة Hell ، ص ٣٥
٣) طبعة de Goeje ، ص ١٢٠-١٢١ . ٤) في الروائع ٩ : ٩٧ .
٥) طبعة رَيت Wright ، ص ٤ ، ٨ ، ٥٤ ، ٩٦ ، ٢٦١ ، ٣٦٦ ، ٤٤١ ، ٥٠٣ ، ٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٥٨ . ٦) طبعة شيخو ، ص ٤٣٣ ، ٤٦٤ ٧) طبعة بولاق ، ٩ : ١٠٦ ؛ ٢ : ١٢٧ ؛ ٧ : ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ ٨ : ١٢٤ ، ١٢٥ ... . ٨) طبعة مصر ٣ : ٣٨ ، ١٤٦ .

الاخذ اذاً بصحة نسبة المعلقة الّا بعض ابيات فيها كالمطلع الذي يدفعه اكثر الرواة ان يكون لعنترة ، ومنهم الاصمعي وابن الاعرابي ، واول القصيدة عندهما: « يا دار عبلة ... »[1] وكالابيات التي تُوسّع فيها بمعاني عنترة كسلسلة «يدعون عنتر والسيوف كأنها...، والسهام كأنها...، والدروع كأنها...»[2] وكالبيتين اللطيفين الملحقين بها مؤخراً : « ولقد ذكرتك ... »[3].

وكذا القول عن القسم الاكبر من قصيدتيه اللاميتين المنشورتين في الروائع ٢٧: (ص ١٧ – ٢٥) وهائيته الفخرية (ص ٢٥ – ٢٨) ، وقصيدته في يوم عُراعر (ص ١٨) ، وحائيته في هجاء الجعد ،[4] وبائيته في يوم الفروق[5] ، فاننا نرى الكثير من ابياتها واردة في ما تقدم ذكره من الكتب وفي غيرها من المجاميع السابقة القرن العاشر كأمالي القالي[6] ، والكامل[7] ، وتهذيب الالفاظ[8] ، والعقد الفريد[9] ، والنوادر لابي زيد الانصاري[10] ، والاغاني في مواضع عدة.

فاذا اتخذنا هذا الشعر ، الراجحة نسبته بفضل النقد الخارجي ، مصدراً نستمدّ منه روح شاعرية عنترة ، ومقياساً نعرض عليه سائر شعره المنسوب فنستخرج منه اصول نقدنا الداخلي ونطبقها على ذاك الشعر ؛ اذا قمنا بهذا العمل ، نتحقق ان ما بقي من الشعر العنتري بيّن النحل ، ظاهر الصنعة ، وانه لجدير بنا ان نخلّص شاعرنا منه ، لما فيه من مباينة لروح شعره الحقيقي ، فضلاً عن كونه متأخر الوضع لم يظهر في كتب الادب الّا بعد تأليف القصّة .

بقي علينا ان نبحث في قيمة هذا الشعر المنحول ، وفي الاساليب التي اتخذها

---

١) الاغاني ٨ : ١٣٥ – وشرح الانباري للمعلقة طبعة *Rescher* ، ص ٤ – وابن سلّام : ك.م. ص ٣٥، وهو يذكر المعلقة بمطلعها : « يا دار عبلة ».

٢) اطلب الروائع ٢٧ : ١٥.

٣) الديوان : شرح اديب مصري ، ص ٢٢٢ ، – وابن الورد : ك . م . *p. 113*.

٤) ابن الورد : ك. م. ص ٣٥–٣٦.

٥) ابن الورد: ك.م. ص ٥١–٥٢.

٦) الطبعة المذكورة ، ٢ : ٧٢.

٧) الطبعة المذكورة ، ١٧٥ ، ٢٦٤ ، ٣٠٠ ، ٣٥٠.

٨) الطبعة المذكورة ، ص ٥٩٣ ، ٦٢٤.

٩) طبعة بولاق ، ١ : ٤٠ – والروائع ٩ : ٩١.

١٠) طبعة بيروت ، ص ١٢٢.

الناحلون والمثل التي ساروا عليها في وضعهم ، وفي ايّ عصر جرى ذلك على التقريب ، فنقول :

لا يلبث دارس شعر عنترة المنحول ان يتحقّق تباين شخصيات واضعيه ، واختلاف عصورهم سواء كان ذلك في معنى الشعر اي موضوعاته ، او في مبناه ، فيقيّد ملاحظاته لدى قراءة كل قصيدة ، ويجمع ذلك ، ويقابل ، ويوازن ، واذا به ينتهي وقد قسم القصائد الى اربعة اقسام من حيث روح الشعر ، ومن حيث اسلوبه ايضاً :

يرى اولاً قسماً مهماً احتذي فيه بشعر عنترة نفسه من حيث وصف المعارك ، والفخر بالاعمال الحميدة ، وعلوّ الهمة ، وبيض الفعال التي من شأنها ان تمحو سواد الجلد ، وتُسبل الستر على دناءة الأصل . وقصائد هذا القسم اكثر من ان نشير الى مطالعها . على انه لا يمكننا حصر زمن تأليفها لان فيها المتين القديم ، والمتوسط ، والركيك المتأخر الآخذ بقسط من اغلاط المولّدين والمحدثين .

وهناك قسم ثانٍ يقترن فيه وصف الشجاعة العنترية بايراد الحكم العامّة والافكار الشاملة ، فكأن واضعيه ساروا فيه على اسلوب المتنبي مشوباً باسلوب شاعرنا ، فتوقفوا الى القصائد المشهورة من امثال « حكم سيوفك »[1] و« لا يحمل الحقد »[2] و« لغير العلا مني القِلا والتجنُّب »[3] وما على شكلها . وبعضها لا يبعد عن نفَس صفيّ الدين الحلّي في بعض حكمياته وفخرياته .

وكأن الناحلين ساروا في القسم الثالث على طريقة عمرو بن كلثوم في المبالغات ولم يكونوا من متانة الانشاء على حظّ وافٍ ، فاتى في اقوالهم كثير من مضحكات الرقة كقولهم :

ملأْنا سائر الاقطار خوفاً ... فاضحى العالمون لنا عبيدا
وجاوزنا الثريّاً في علاها ... ولم نترك لقاصدنا وفودا
اذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ ... تخرُّ له اعادينا سجودا ... الخ[4]

١) شعراء النصرانية ٨٦١ .
٢) شعراء النصرانية ٨١٨ .
٣) 〃 〃 ٨١٩ .
٤) 〃 〃 ٨٢٨ .

وكهذا :

ونحن العادلون اذا حكمنا ، ونحن المشفقون على الرعيّة

ونحن المنصفون اذا دعينا الى طعن الرماح السمهريّة

ونحن النالبون اذا حملنا على الخيل الجياد الاعوجيّة

ونحن الموقدون لكل حرب ونصلاها باقئدة جريّة

ملأنا الارض خوفاً من سطانا وهابتنا الملوك الكسرويّة ... (١

ولا يمكن ان يتقدم وضع هذا الشعر عصر الانحطاط .

اما القسم الرابع ففيه مطالع جذّابة وتعابير غاية في الرقة ولطف الشعور تدفعنا الى التفكير بالبهاء زهير ، وبابي فراس ، وبمن اليهم من شعراء العصر العباسي الثالث والرابع ، يقترن ذلك احياناً بنوع من التشكي العذب على طريقة الطف الشعراء الغزلين ، كما نرى في المطالع الآتية :

لأيّ حبيب يحسن الرأي والودُّ وأكثر هذا الناس ليس لهم عهدُ ! (٢

و اعادي صرف دهر لا يُعادى واحتمل القطيعة والبعادا ! (٢

و اذا فاض دمعي واستهلّ على خدي (٣

نضيف الى هذا القسم ما لا يمكن الارتقاء بزمن وضعه الى ما قبل العصر العباسي الثالث لما فيه من تكلّف الجناس كهذا البيت :

لقد علم القبائل ان قومي لهم حدٌّ اذا لبس الحديدُ (٤

او هذا :

اصدّ منه الزور خوف ازورارِه وارضى اسماع الهُجر خشيةَ هجرِه (٥

قيمة شعره

لا نطيل الكلام في قيمة عنترة ، بعد ان افضنا في موضوعات شعره ، وما اختصّ به من طريقة تبعه عليها بعض النظامين فنحلوه من اشعارهم الشيء الكثير . على انه يجدر بنا ، وقد انهينا هذا الدرس ، ان نشير الى

١) شعراء النصرانية ٨٨١.
٢) شعراء النصرانية ٨٢٩.
٣) شعراء النصرانية ٨٢٢.
٤) ابن الاثير : المثل السائر ، ص ٤٥٦.
٥) ابن الورد : ك. م. ص ١٨٠.

ما امتازت به شخصية شاعرنا من اسلوب فخر استحدثه لنفسه ، حتى عُرف به ، على كثرة الشعر الفخري آنذاك ، فاصبح كعلامة فارقة تسم بطولته فتظهرها بارزة بين جمهرة الابطال الاقدمين . وشرح ذلك ان عنترة كان عارفاً بقوة بطشه ، بصيراً بوصف شجاعته ومواقعه ، فاخترع لنفسه تلك الوسيلة لتبيان مقدرته ، وهي ان يصف اولاً عدوه فيصوره اشجع الفرسان ، واكملهم صفات للحرب ، ثم يذكر انه قتله بضربة سيف او طعنة رمح ، فينال فخراً اسمى ومجداً اعظم[1] ، فكان في ذلك مبتكراً.

وكان مبتكراً ايضاً في مطالعه التي خرج في اكثرها عن العادة المتبعة قبله في تقديم النسيب[2] ، وفي تصاويره الجميلة التامة . ولعل اظهرها جدة ، بالنسبة الى الجاهلية ، تلك الابيات الاربعة التي يصف فيها امرأة يُرسل اليها جاريته «لتتجسس اخبارها» ، فيضع امامنا مشهداً مصوراً بلطف وفن لم نتعودهما الا في شعر عمر بن ابي ربيعة[3] .

وقد رافقه هذا الابتكار في مبنى شعره فلم يتراجع امام استعمال التضمين ، وهو نادر في الشعر القديم ، بل اطلق لفنه العنان في استعماله ، وكثيراً ما نجح فيه كقوله :

فان يك عزٌ في قضاعة ثابتٌ   فانَّ لنا ، برحرحان وأسقفٍ ،
كتائبَ شهباً فوق كلِّ كتيبةٍ   لواءٌ كظل الطائر المتصرِّف

فيمكننا الإجمال قائلين : ان عُدَّ عنترة شاعر الفخر والحماسة بلا منازع ، فانه شاعر الابتكار والشخصية ايضاً .

---

١) المعلقة : ٤٨ و ٤١ ؛ و ٥٢-٥٩ - واطلب الروائع ٢ : ٢٢.
٢) اطلب الروائع ٢٧ : ٢٥ - واكثر مطالع الديوان في طبعة ابن الورد.
٣) اطلب ، في طبعة ابن الورد ، الابيات ٦٤-٦٨ من المعلقة ، ص ٤٨.

الثورة العربية في الحرب الكبرى

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

اصطلح الجغرافيون على تسمية شبه الجزيرة ، الواقعة في طرف آسية الصغرى الجنوبي ، بلاد العرب ، او عرابية (*Arabia*) ، كما قالوا فرنسة وايطالية واسبانية ، فأوهموا ان القطر الواقع بين الاوقيانوس الهندي والبحر الاحمر هو موطن امة واحدة : لغةً واصلاً وادارةً وشعباً ومصالح اقتصادية وادبيةً ، شأنَ البلاد ذات الوحدة المؤلفة من اتحاد العناصر ، واتفاق الآراء والقلوب . وقد يتجسم ذلك الوهم في عقل العوامّ ، اذا ما سمعوا اقوال الدعاة الى الجامعة العربية الكبرى ، المناشدين كل من ينطق بالضاد في مشارق الارض ومغاربها ، الى لمّ شتاتهم تحت لواء القومية العربية ؛ والقومية العربية في اصلها انما هي نواة فارغة . لان قلبها هو الجزيرة ، والجزيرة ليست دار امة واحدة . بل هناك قبائل لا يُحصى عددها ، منقسمة بعضها على بعض ، فضلاً عما يقسم بينها من مواعر المسالك ومتسعات الفلوات في هضاب وسهول وبطون وحزون ، لا يعيش فيها ابن آدم في الغالب ، الّا بالغزو ؛ وليس العيش والارتزاق بالغزو الا حياة فتن مقيمة وحروب مستديمة تلك الحالة معهودة منذ القدم في تاريخ الجزيرة ، وهي لا تزال في يومنا مخيّمة على بلاد العرب .

كيف تألفت فلوبريم ؟

لمّا حلّ لورنس ، الكولونيل الانكليزي ، مرفأ جدة ، في تشرين الاول

سنة ١٩١٦ ، موفدًا من قبل الحكومة البريطانية ليسعى في الوقوف على افكار الشريف الحسين بن علي ، وفي البحث على وسائل ضمّ قبائل الحجاز الى حزب المتحالفين ، فيسلّح العرب ويطلقهم على الاتراك ؛ لم تكن حالة القبائل القاطنة في الحجاز وعلى الحدود السورية غير التي عهدناها في التاريخ ، وغير التي وصفها الشريف حسين اذ قال : « وماذا في شبه الجزيرة ؟ غير الامراء الاعداء والقبائل المتمرّدة والصحارى والقفار ؟ »[1] فكان من حيل لورنس ودهائه وصفاته الفريدة أنه فهم نفسية العرب ، وحلّ منها محلًا رفيعاً سلطه عليها ، فارتبط بصداقة الامير فيصل وزوّده بالذخيرة والمال ، والف بواسطته قلوب البدو ، وجمعها وشد عزائمها ، وساقها من مرحلة الى مرحلة ، ومن مناوشة الى مناوشة ، الى ان دوّخ الاتراك وسلبهم راحتهم على جناحهم الشرقي ، وساعد اللنبي القائد العام على جبهة فلسطين ، في فوزه النهائي الباهر ودخل دمشق ، عاصمة الامويين ، دخول الفاتح الظافر سنة ١٩١٨ .

وما مضت عشر سنوات على تلك الحوادث حتى نشر لورنس وصفها في كتاب عنوانه « الثورة في البادية » (١٩١٦–١٩١٨) . ونُقل ذلك الكتاب من اللغة الانكليزية الى الافرنسية ، وتصرّف به اخيرًا السيد شاكر خليل نصار ، فاقتطف زبدته معربةً وعرضها على القرّاء تحت عنوان « لورنس والعرب » ، ودخلت مذكرات لورنس في سلسلة المؤلفات الموضوعة ليُعول عليها في تأليف تاريخ الحرب العام . وهي معدن يحوي شتى التعليات عن عرب الحجاز ، وبلاد معان والسرحان ، وعن اراضيهم واخلاقهم ، وعن تطورات الوقائع في تلك الناحية المجهولة من نواحي الحرب الكونية.

وللكولونيل لورنس الانكليزي نظرات شخصية وتصميات غريبة حاول ان يجريها في الامر الواقع ، كانت ترمي الى انشاء الدولة العربية الجامعة . فزرع فكرتها في قلوب اعراب لم تخطر لهم في بال ، وحاول سحابة سنتين ان ينفذ تلك الفكرة في العمل حتى اقترب من النجاح ، ولكنه لم ينجح ،

---

١) راجع ملوك العرب للريحاني ١ : ٦٥ : صادر · بيروت ١٩٢٤–١٩٢٥

وذهبت آماله اضغاث احلام . على ان لمذكراته قيمتها التاريخية والادبية ، وهي مرآة الثورة العربية وترجمانها . وان ترق رواية لورنس القراء الانكليز ، فلا اقلّ من ان تلفت انظارنا ، اذ انها مسرح تختلف عليه صور الصحارى وامرائها وسكانها .

في طلب الزعيم

اول من التقى به لورنس من الامراء العرب كان الامير عبد الله ، ثاني اولاد الشريف حسين . قصد الى جدة ليسلم على لورنس ، فوصل راكباً فرساً بيضاء ، محفوفاً بعبيده . دخل ووجهه يسطع باشعة نور الفخر ! كيف لا ؟ وقد كسر الحامية التركية في مدينة الطائف ، ونال استحسان القوم . فابشرت الوجوه لقدومه واستلفتت منه عطفاً وابتسامة .

اما لورنس فتفرس فيه فلم يجد فيه ضالته المنشودة ، وحول عنه النظر الى رجل غيره ، قدير على ان يكون زعيم الثورة العربية ونبيها . من هو ذلك الرجل ؟ واين هو ؟ العله علي ابن الشريف البكر ؟ كلا ! نعم لقد اكرم علي ضيافة القائد البريطاني عند قدومه اليه في الرابغ ، لكنّ اخلاقه لا تنم عن الصفات الضرورية للامر والحكم والتدبير والمغامرة في سبيل النصر . ترك لورنس الاخوين الاولين ، ومضى قاصداً الى معسكر فيصل ، ابن الشريف الثالث . وكانت الطريق اليه صعبة مملةً في حمارة القيظ . فقطعها لورنس بلا ملل ولا فتور الى ان بلغ الحمراء بين مكة والمدينة ووصف قدومه على الامير العربي وصفاً قدا الفه كتابنا العرب ونحن نعربه ليكون القارئ به على بصيرة من اسلوب المؤلف ، ويتعرف منه الى شخصية فيصل :

« فويق بلدة « الوسطى » انشغر الوادي عن عرض زها ٤٠٠ متر ، وكشف على قاع صحصح ورمل رسيب . وبرزت الصخور من حمر وسود على اعالي المنحدرات كانها الجدران المخرمة ، ورؤوسها كالسكاكين . وقعت عليها اشعة الشمس وقوعها على الصفحات المعدنية فانعكست وتطايرت شظايا ، فزاد وهيجها بقية الرطوبة المنبعثة من الاشجار والعشب . ونظرنا ، واذا رجال

فيصل وخيله في المراعي. والعسكر مخيّم في كل جرف من الصخور المحاذية للطريق ، وفي كل دغل من الادغال . بادروا دليلي بالسلام فعلت الاصوات بالترحاب . وانتبه الدليل وردّ السلام وعجل سيره على امل الوصول سريعاً والانطلاق الى شأنه بعد القيام بمهمته نحوي.

« سرنا والحمراء ، مقام فيصل ، ممتدة على يسارنا ، وبيوتها المئة ، على ما رأيت ، متوارية في البساتين ، متفرقة بين اطلال لا ينيف علوها على العشرين قدماً. قطعنا ساقية المخاضة في الوادي ، وجانبنا حديقة جنة غناء وارتقينا ذروةً من الـذرى ، حتى بلغنا الى باب دار يؤدي الى بيت واطئ مستطيل . فبركت الجمال وكلم الدليل الحرس . وكان واقفاً بالحراسة عبد وبيده سيف فضي القبضة ، فادخلنا . فنظرت فاذا برجل مرتد ثياباً بيضاً ، واقف كالشبح على باب البيت ، بين عاموديه القائمين ، ولم اكن رأيته عمري قط ، ولكن ما وقع نظري عليه الا اشعرت انه هو هو ضالتي المنشودة والزعيم القمين بان يسير بالثورة العربية الى النصر المبين.

« برز فيصل متشحاً بالحرير الابيض الفضفاض ، منتصباً كالعامود : طويل القامة ، مطرقاً الى الارض ، اسود اللحية ، كامد الوجـه ، مقنعاً بالجمود . ووجهه مع ذلك يتلوّن بالوان تحفظ وحذر مدهش . وقف ويداه على قبضة خنجره .

« فسلمت عليه.

« فادخلني غرفة الضيوف وتنحى وجلس القرفصاء بالقرب من الباب ، وما ان انست عيناي بعتمة الغرفة الا اكتشفتا في زواياها وجوهاً صامتة وابصاراً شاخصةً تارةً اليّ ، وطوراً الى فيصل.

« وتأمل الشريف السلاح بين يديه ، ثم كلمني وقال :

« خير ، ان شاء الله .

« فقلت : يوم قائظ .

« قال : وكم من الزمان على الطريق .

« فاخبرته ، فقال ان المدة قصيرة بالنسبة للفصل وحره . ثم قال :

« وما رأيك في مقامنا في وادي الصفراء .

« فقلت : لا بأس به ، ولكن شتان بينه وبين الشام !

« وما كان انقضاض الصاعقة في وسط الجماعة ليحدث التأثير الذي احدثته اللفظة في قلوب الحاضرين . وكنت لتحسبهم كانهم قبضوا ، وانحبست انفاسهم في سكوت دام دقيقة » . . .

على تلك الصورة مثل لورنس الحوادث في مذكراته .

هذا ، ولو اتيح لزعماء الحملات العربية التي سارت للفتح في مستهل التاريخ الهجري ، ان يجلس بينهم كاتب جلوس لورنس في مؤتمر الحمراء ، لعرفنا كيف كانوا يحنون الى ارض الشام ويتوقون اليها . وهي التي وصفها لهم روادهم : ارض الخمر والخير ، والديباج والحرير ؛ فما اطيب ثمارها واعذب مياهها وابل هواءها . اولا يجدر بهم ان ينسوا المشاحنات القديمة ويتفقوا عليها مرتعاً ومغنماً . ولكن ما اشسعها عن رمالهم بوناً ، وما ابعدها عن رغائبهم منالاً !

معدات الثورة العربية

بلغ لورنس محطة الآمال ، ووجد قائد الثورة . ولكن اين رجالها ؟ ومن ينظمهم ويقودهم ، ومن يمدهم بالمال والذخيرة ؟

جمع فيصل جيشاً متفاوت العدد ، بين السبعة والثمانية آلاف ، وهم رجال بدو لا ضابط لهم ، ولا عهد في الفن الحربي الحديث . لا سلاح لهم الا ما يتخذه النفر له من بندقية يفتش عنها في بيته فيحملها مدة ، ثم يعود على آله ? فيسلمها غيره ، وعلى تلك الطريقة يتناوبون . وكان المتزوجون من الجند يعودون الى عيالهم من غير ان يستأذنوا قوادهم .

وربما هجرت عشيرة برمتها معسكر الجيش وارتدت على اعقابها عاكفة على الراحة ، ولم يكن بين العسكر صلة نظام ولا قيد . وكان بعضهم معادين لبعض مضمرين في قلوبهم الاحقاد والشرور . فيتباعدون عن الملاقاة اتقاء المشاحنات ودفعاً الاذى . ولم يكن في معسكر فيصل من الاسلحة المجهزة

الا البنادق اليابانية الغير المتقنة الصنع ، السريعة العطب والانفجار في ايدي صاحبها ، واربعة مدافع قديمة من طراز كروب ، لا ترمي قنابلها الى ابعد من ثلاثة آلاف متر ، ولا تقوى على مقاومة المدافع التركية الرامية الى ما وراء التسعة آلاف متر . وليس للعرب ديوان ذخيرة ، ولا ديوان يعهد اليه بأمر النقليات ، بل كان المقاتلون يتدبرون شؤونهم بأمر النقل كل واحد بذاته . اما خزينة المال فحدّث عنها ولا حرج . كان فيصل قد وضع صندوقاً ، واقام عليه حرسه الخاص ، وكان الصندوق ثقيلاً مختوماً فيحمل على جمل ويرحل مع قواد الحملة اينما رحلوا ، ويحطّ تحت خيامهم اينما حطوا ، وكان الاعراب يتوهمونه صندوق الذهب ، ولكن كان ملؤه الحجارة.

تلك الحالة السيئة لم تكن لتسمحْ زعيم الثورة العربيـة على مغامرة الحرب لولا ذكاء لورنس ودهاؤه . فانه اخذ على عاتقه امر اصلاح ذات البين بين الامراء ، فاستجلب مئات الالوف من الليرات الانكليزية من القـاهرة ، ووزع الاصفر الرنان بين العرب ، واطلق في ميدانهم «فرسان القديس جرجس» فالّف القلوب . ولم يتكلم لورنس على تلك العطايا في كتابه الا همساً لكن ذكرها فيه واضح . وتلك المرابح وغيرها من المغانم التي غنمها اصحاب الثورة على الاتراك وبما وصلت اليـه ايديهم من سلب ونهب ، هي التي كانت في الغالب تحول دون فكّ العصبة التي بذل لورنس قصارى جهده في احكام عقدها . فبذل المال وتعهد بالاسلحة والذخيرة والزاد على ان يقدم العرب الرجال ويتألفوا ويسيروا تحت لواء واحد .

امراء العرب ووفودهم

فتح عرب الشريف مدينة الوجه على شاطئ البحر الاحمر بمساعدة لورنس والمراكب الانكليزية . وضرب فيصل سرادقه الفخم الجميل على بعد ميـل من البحر ، وخيم العساكر في منخفضات الرمال اتقاء الحر . وقامت الروّاد في الصحراء تدعو العرب الى الاجتماع حول الشريف ، وما عتّم ان تحركت القبائل وسارت اليه الركبان من كل صوب وفجّ . ذكرهم لورنس : منهم بنو عجيل ،

وبنو عطية ، وعرب البلي والجهينة والحويطات والعطية والرولا . ووصفهم وصف الكاتب النحرير المحيي ذكرى الرجال في مخيلة القراء . قال في نوري الشعلان ، امير الرولا :

« قطع نوري شوطاً من عمره ، وحكم في قبيلة عنزة ثلاثين سنة ، ولم ينل نوري سطوته من نسبه ، وان يكن من نبلاء الرولا ، ولم يستهو قلوب رجاله اليه ، وليس هو القائد المتبدع المفدّى . لكنه شديد البأس صعب المراس . بطش باخويه غيلة ، فهابه العرب . وحالف الشرارات وغيرها من القبائل ، فلم تخالف له امراً في متسعات اراضيها . ليس نوري صاحب دهاء وحيل ، شأن غيره من الشيوخ ، بل يطلق كلامه فوراً وينفذه كالسهم الصائب فلا يقف بوجهه معارض ولا مقاوم . »

وكان نوري متصلاً بالاتراك موالياً لهم ، وحالف مع ذلك الشريف فيصل ، ومده بمئات الجمال . وعاهد لورنس الّا يتعارض لمرور العرب الثوار في بلاد السرحان ، بين الجوف والازرق ، شرقي البحر الميت . وتوسط بين زعيم الثورة ومستشاره لورنس وعرف اليها عودة ابا طي امير الحويطات ، من ليس له ندّ ولا نظير في شبه الجزيرة العربية .

عودة ابو طي قائد باسل يساوي وحده كتيبة الفرسان بطشاً وبأساً : طويل القامة ، مربع الكتفين ، منتصب القوام ، سريع الحركة ، نضير الاعضاء لدنها . جاوز الخمسين من عمره ، وجُرح ثلاث عشرة مرة ، وقتل من الاعراب سبعين ، ومن الاتراك ما لم يُحصِ عدده . مقدام على الغزو والسلب ، مقحام المخاطر ، خواض المنايا ، داهية زمانه ، ذلق اللسان ، حلو النوادر ، تزوج بثماني وعشرين امرأة . صادق لورنس ودرّبه على اسلوب العيش ، وعلى القتال في الصحراء .

وهوذا الشريف شاكر ، معشوق عرب العتيبة وحبيبهم لانهم عهدوا فيه صفات الفروسية والبطولة العربية . لا يشقّ له غبار ، ولا يبارى في رمي الرصاص والشجاعة والغنى والعز . وهو حريص على استهواء قلوب البدو بظاهره الخشنة وزيّه البسيط واخلاقه البدوية . يترك رأسه مرتعاً للحشرات ويضحك قائلاً : « لا يمنع الكلأ عن النعم الّا البخيل . »

واقبل الى زعيم الثورة غيرهم من الامراء: ابو زعال ابن عم عودة ، وامراء الشرارات ، وضيف الله ابو تيور ابن عم احمد بن غزي ، من رحالة عرب معان ، ونواف بن نوري الشعلان ، وابو تجيجه ، وغيرهم.

وكان قدوم زعماء العرب على فيصل يهيج في قلوب الرجال اجمعين عواطف التحمس والتآلف. فيغتنم الشريف فرصة ليستحلفهم على القرآن « انهم يكونون معه حيثما يكون ، فيصبرون اذا صبر ، ويرحلون اذا رحل ، وينبذون طاعة الاتراك ، ويصادقون العربي اينما وجدوه اكان في بغداد ، او في حلب ، او في الشام ، او في شبه الجزيرة ، وانهم يفضلون استقلال شبه جزيرة العرب على الحياة والآل والمال ».

وظل فيصل سحابة سنتين امام العرب ورشيدهم وقاضيهم . يدخل الاحزاب عليه ليحكم فيهم ، ويصلح ذات البين فيقوم بمهمته خير القيام من وراء جبهة القتال ولم يتعرض للمعارك ولم يقاس الاهوال التي قاساها غيره من الامراء . ولكن مهمته السلمية رفعت مكانته ، فقويت شوكته وعلا نجمه ، وخفق علمه على رؤوس الاعراب المنضمين اليه فاصبحوا امة واحدة فتألفت قلوبهم او كادت . وصاروا كالجيش الجرار.

على ان جيش العرب لن يكون كسائر الجيوش المنظمة . فكر لورنس في امرهم ، فاذا هم رجال صحارى لا ينقادون الى نظام ، ولا يقف لهم صف بوجه عدو . فالاولى به الا يسألهم ما لا طاقة لهم باحتماله بل يجاريهم على اميالهم ، ويسير واياهم في حرب الخداع والمواربة . فلم يضيق عليهم لئلا يخمد اوارهم ، ولم يحبسهم ضمن حدود منطقة واحدة ، بل تركهم يتطايرون كالشرارات المحرقة او كالذباب اللاذعة ، ينهالون على العدو على غفلة منه ويفتكون فيه فتكاً ثم يغيبون كالبرق . فصاروا للاتراك شغلاً شغلهم ، وهماً نخر عظامهم وعرقل حركاتهم وانهك قواهم على الجبهة الفلسطينية امام القائد اللنبي .

الحملة على العقبة

وتوالت حملات العرب وتجددت مرارًا ، ومنها ما كانت حرب خدعة ، ومنها

حرب سجال ، حيث يكون القرن كفوءا لقرنه . وكان لورنس الدافع اليها حيناً عن اتفاق مع القائد العام ، وحيناً تعلة للعرب لئلا يسأموا البعد عن الاوطان ، ويتحدثوا بهجر الجيش . وقد يطول بنا المقال في سرد قصص تلك الحملات ، فحسبنا ذكر السير على العقبة ، ليقف منه القارئ على بعض المشقات التي تكبدها لورنس في بلوغ مأربه . سافر بصحبة عودة ابي طي ورجاله مسافة ١,٤٠٠ ميلاً . شدوا الرحال ، وساروا ليل نهار في هواء كأنه لهيب الجحيم . حالفهم الجوع والعطش ، ودبّت برفقتهم افاعي الصخور ، وعشش البقّ والبراغيث والقمل في ثيابهم لا يبيت لهم الّا عند عرب الحويطات ، وتبّاً لهم من مضيفين ثقلاء يتهافتون على نزيلهم ، متطفلين مستقصين اخباره ، ساعة يكون بمسيس الحاجة الى الراحة .

اجتاز لورنس ورفاقه المفاوز ، وقاربوا عمان واعلنوا قدومهم باطلاق الرصاص ، ونسفوا ثمانية جسور ، وعطلوا الخط الحديدي على مسافة طويلة . فانتبه الاتراك من غفلتهم وفزعوا ، وفهموا انهم في خدعة عند استصغارهم شأن العرب . فتحفزوا لقتالهم وقطع دابرهم في جملتهم على العقبة . وشدّ عزائم الاتراك قدوم طابور من الجند القوقاسي الى معان . وتأهب لورنس من جهته للاحتكاك بهم ، فوزّع العرب على اطرافهم واطلق سراحهم ، فطاروا كالبزاة الكواسر وانقضوا على الاتراك وافقدوهم رشدهم ، ثم جمع لورنس جموعه وهجموا على الاتراك هجوماً عاماً فكسروهم ، واثخنوا فيهم ، وهزموهم شرّ هزيمة . وكان عدد القتلى من الاتراك ثلاثمائة . اما العرب فلم يفقدوا الا رجلين ، واسروا ١٥٠ تركياً ، وغنموا الغنائم الوافرة ودخلوا العقبة ظافرين . فانقطع الاتراك عنها ، وامنت ترعة السويس مخاطر حملاتهم عليها ، وتقربت المواصلات بين العرب وبين القاهرة . فدعا لورنس فيصل واقرّه في العقبة ، واقامه قائداً عامًا للعرب اجمعين بالرغم عن معارضة الشريف حسين . ولمّ الاتراك شعثهم ، واشتد ظهرهم بقدوم القائد الالماني فلكنهايم الى معان واخذوا يطمحون باسترداد العقبة . فصار لورنس يرسل اليهم الطيارات البريطانية تمطرهم وابل القنابل ، ودبر الحيل عليهم ليضطرهم الى تبديد قواهم . فكان العرب يهاجمونهم من

شتى الانحاء ويشغلونهم عن الحذر واتقاء المكائد التي كان لورنس يكيدها للقطارات السائرة من دمشق الى المدينة .

نسف القطار

كان بوسع لورنس منذ اوائل الحرب ان يقطع الخط الحديدي الواصل بين المدينة ودمشق قطعاً باتاً . لكنه فضل ابقاءه فخاً وشبكة لاصطياد القطارات المسافرة لتموين الحامية التركية في المدينة . وكان يقطعه في نقطه الخطيرة وعلى الخصوص في ممرّ الجسور ، فيضطرّ الاتراك الى ترميمها وتصليحها بمشقات دونها خرط القتاد .

ووصف لورنس في كتابه نسفه قطاراً من قطارات الاتراك ، وعربنا صفحة وصفه ، لما رأينا فيها من شديد الوقع على القراء : بينما كان الاتراك منشغلين بدفع غارات العرب عنهم ، سار لورنس ورجلين من الجند الانكليزي ، وجمع مئة رجل من عرب الحويطات ، ومضى الى الخط الحديدي حيث الجسر ممدود بعد اعوجاج الخط ، فوضع الغام الديناميت تحت الجسر وسلحها بالقنابل ، ووصل جهاز الانفجار بسلك كهربائي مربوط بمحطة خفية واقام حارساً على مرتفع عن بُعد ، لينذر بقدوم القطار عند ظهوره في الافق . قال لورنس :

« اشار الحارس الينا بان الساعة قد دنت وان القطار آتٍ الينا . نعم ! لقد اتى ، وعلى رأسه قاطرتان . سمعنا صوت صفيرهما يشقّ عنان السماء ، ورأيناهما يجرّان الحافلات مجهزةً بانواع الاسلحة والذخيرة . علا الاتراك اسطحتها ووقفوا عليها وراء متاريس من اكياس الرمل . وتقرب القطار الينا واعوجَ سيره مع اعوجاج الخط . وما كان قد خطر على بالي امر وجود قاطرتين على رأسه . فغيرت افكاري وقررت اطلاق القوة المفرقعة تحت القاطرة الثانية حتى اذا نجت الاولى فلا تقوَ على جرّ باقي الحافلات .

« وما هي دقيقة حتى وصل القطار ومرت القاطرة الاولى على الجسر ثم الثانية فرفعت يدي بالاشارة المعهودة بيني وبين الرجل الموكل على المفتاح الكهربائي . فحدث ضجيج هائل ، وغاب الخط عن نظرنا في عمود تراب

ودخان ملأ الفضاء طولاً وعرضاً.

« واصطك الحديد بالحديد، وتطايرت القطع المعدنية، ومنها دولاب من دواليب القاطرة، فانه تصاعد وتعلى بحركة رحوية ثم هبط وراءنا. وعقب صوت الانفجارات سكوتٌ كانه الموت، وهبت الريح نحونا فساقت الينا عمود الدخان، وحولت لونه من الاسود القاتم الى الابرش الشفاف. ثم هجم العرب على الاتراك. وهرب هؤلاء لاجئين الى ما وراء الصخور والرشاشات تحصدهم حصيداً، وتقطعت حافلات القطار وسقطت على جانبي الخط ... »

دخول العرب دمشق

في ١ تشرين الثاني ١٩١٧، سقطت بئر سبع في ايدي الحلفاء. وفي ٧ منه سقطت غزة وعسقلان، وفي ٩ و ١٧ يافا. ولم يمض الشهر على هذه الحوادث حتى دخل الحلفاء القدس. اما لورنس فكان ينتظر في برد الشتاء ساعة النصر النهائي. وها ان الساعة ازفت لدخول العرب في هجمات الحرب الاخيرة، شنوا الغارات متواترة على الخط الحديدي، فقطعوه تقطيعاً على مسافة مئة كيلو متر، ونسفوا ٧٩ جسراً. ونالوا من المغانم ما لم يحلموا به حتى اشبعوا جشعهم. وفي ٢١ شباط، فتح اللنبي اريحا وتلا ذلك الفتح فتحُ السلط. ثم هاجم اللنبي الاتراك على جبهة امتدت من الاردن الى البحر. وعول على عرب لورنس ليتقي شرّ العدو على جناحه الشرقي. ودعاهم الى اللقاء واياهم في درعا. ولم يخالف لورنس الميعاد. ففي ١٦ ايلول ١٩١٨ وقف على ابواب درعا. وتوالت انتصارات اللنبي في الناصرة وجنوبي بحيرة طبرية وعلى الاردن، فكسر الجيش التركي السابع والثامن واباده عن بكرة ابيه. واصبح لورنس على قاب قوسين من دمشق فلم ينتظر اوامر اللنبي. رأى الثمر ناضجاً فابى الا ان يقطفه بيده. سار الى دمشق ودخلها مع رجاله ولم يصبر على قدوم فيصل اليها، ودبر شؤونها الى ان دخلتها جنود الحلفاء محرّريها الحقيقيين.

سر هرم الملك خوفو

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

ان الدول تدول ، وظلها يتقلص من على الارض ويزول ؛ ولكن معالم حضارتها وعرفانها تبقى دهوراً متطاولة بعد زوالها . ومن هذه المعالم الاهرام التي لم تهرم مع تقادم عهدها وطول مدتها . فالاهرام آثار مصرية قديمة من عاديات امة نالت حظاً كبيراً من الحضارة ، واستحكمت بها عوائدها بما كان لملوكها من الطول والسطوة والتهوّس بتشييد المباني العظيمة . وهي متفاوتة في الكبر تناهز الثمانين في مصر ، والمئة في النوبة . واشهرها اهرام الجيزة على النيل ، ازاء مدينة القاهرة القديمة ، لا تزيد على التسعة واكبرها هرم خوفو (Chéops) احد ملوك الدولة الرابعة ، الذي عاش في اواسط الالف الخامس قبل المسيح على رأي بعضهم . ومن بعده يأتي هرم كفرن (Chéphren) اخي خوفو ، ثم هرم منكَوري بن خوفو او كمنيس (Chemmis) الذي عاش على ما يقال قبل حرب طروادة بعشرة اجيال. فكلامنا في هذا البحث على هرم خوفو الذي علوّه الآن ١٣٨ متراً ، واتساع قاعدته ٢٢٧ ، المعدود بين عجائب العالم . على ان العلماء ذهبوا مذاهب شتى في تأويل بناء الاهرام . ولكن من الثابت ان بعضها اتخذ لدفن الملوك ؛ والدليل على ذلك النواويس والموميات التي عُثر عليها في جوفها . وكانت اهرام الجيزة قديماً مطلية بالشيد والصوان المحبب الا ان العرب نزعوا عنها طلاءها وعرّوها منه بعد رسوخ قدمهم في البلاد.

وهنا يحضرنا سؤال مهم : هل هذه الاهرام بُنيت في الاصل لتكون مدافن فقط ، ام كان لبُناتها غاية اخرى في مغالاتها والتفنن في تشييدها ؟

فهلمّ ايها القارئ الكريم نتتبع اقوال الاب مردو في الجواب على هذه المسئلة الوعرة العويصة ، ونستخلص زبدتها لما فيه من تنوير الاذهان والفوائد الحسان :

ذهب هذا العلامة في كتابه « الغاز العلم » الى ان المصريين الاقدمين كان لهم غاية علمية فنية في بناء الاهرام ، اذ ان من الحماقة ، على رأيه ، استهلاك الاموال واتلافها على بنايات عظيمة ليُودع في جوفها موميا ملك يابسة محنطة مربطة بخيوط ملفوفة بلفائف . فالعقل لا يكاد يصدق هذا الزعم . فكل من الاهرام له منافذ ومجازات ومقاصير ظاهرة وباطنة في غاية الدقة والاحكام ، صرف الصناع وكدهم الى اخفاء مداخلها حرصاً على صيانة القبر والثاوي به من الانتهاك . ونسبة اوضاعها في الغالب تناوح الجهات الاربع . بيد انهم لم يراعوا دائماً هذه النسبة في اوضاعها ، كما اننا لا نراعي في بناء كنائسنا توجيهها الى الشرق . ثم ان جدران المنافذ والمقاصير مغشاة بكتابات هيروغليفية تعرب عن مآثر الدفين . فاذا كانت هذه الاهرام ، ولاسيما الاكبر ، لم يُبنَ مدفناً ، فما هي الغاية اذن من بنائه ؟

ما زال الجواب على هذا السؤال سرا مكنوناً لم يدرك الى الآن ولم يُمط حجابه . فلعل الكهنة المصريين الاقدمين ، علماء عصرهم وائمة وقتهم ، ارادوا بذلك تخليد العلوم التي اتصلوا اليها في الهيئة ، وفهم القوانين لحساب احوال الكواكب وحركاتها وتعديلها ، والوقوف على مواضعها واشكالها ، ومراكزها ، واقبالها وادبارها ، وكيفياتها واجناسها ، وتركيب الافلاك في طبقاتها ، ومعرفة الازياج في ما يختص بكل كوكب ، من طريق حركته في وضعه ، من سرعة وبطء ، واستقامة ورجوع . فالانسان اليوم يفتخر ويتبجح باكتشافاته وما بلغت اليه معرفته ، ولكن قل لمن عرف شيئاً : غابت عنك اشياء .

فكيف مسح اولئك العلماء الارض ، واستشفوا اسرار السماء ، وهم خلاء من آلات الرصد ؟

ان سر هرم خوفو بقي مكتوماً الى اخريات القرن الثامن عشر . فلما

ارادت بعثة نابوليون اجراء مسح مصر ورسم زواياها اتخذت هذا الهرم قاعدة لاعمالها يقوم مقام دائرة معدل النهار المركزية ، واساساً لعروض البلاد . وقد قضوا اشد العجب اذ تحققوا ان الخطوط الممتدة من هذا الهرم تلتقي في وجه ، وتشمل مثلث النيل ، وان دائرة معدل النهار ، اي الخط الممتد من الشمال الى الجنوب ، يمرّ بقمة الهرم عينه ، ويقسم مثلث النيل الى شطرين متساويين

فهل يا ترى هذا الوضع ابن الاتفاق ، ام هو متعمد مقصود ينبني على مبادئ العلوم الهندسية ، ويتوقف على الحذق في فن الهندسة ومعرفة الجغرافية ؟

واذا نظرنا الى عامة خطوط دائرة معدل النهار وتأملناها كلها ، رأينا خط الهرم الاكبر على غاية الكمال ، اذ انه يمر بالجملة بالارضين الصالحة للسكن ، ويشطرها شطرين متساويين ، ولا يمر بالبحور الا قليلاً . ثم اننا اذا رسمنا شكل دائرة متوازنة تنتهي الى خط الاستواء وتمر بالدرجة الثلاثين عرضاً ، رأينا ايضاً ان هذه الدائرة تشمل اراضي اكثر من غيرها . والحال أن عرض قمة هذا الهرم تقاربها ، اذ ان درجته ٢٩ ، و ٥٨ دقيقة و ٥١ ثانية.

على ان بعضهم نسب الى وضع هرم خوفو نقصاً في الدقة والكمال ، ولكن الامر ليس كذلك. لان مهندسه تنبّه عند وضعه لما يسمّونه «الانكسار الجوي» . فان كثافة طبقات الهواء تميل بشعاع النور وقت نفوذه اياها بعض الميل . فاذن وضع الهرم على غاية الاحكام والاتقان . واذا كان في وضعه بعض الميل او الحيد والانحراف فهو قليل لا يزيد على ٢٢ من الثانية . فانظر ايها القارئ الى هذا الإحكام الذي يحيّر العقل ، واستدلّ به على فتك اولئك الاقوام في الفنون والعلوم والتفنن فيها والاحاطة بمبادئها وقواعدها ، والوقوف على مسائلها واستنباط فروعها من اصولها حتى اربوا على المتأخرين وفاتوهم. وقد روى هيرودوت ان الكهنة المصريين افادوه وجه النسب الحاصلة بين جانب قاعدة الهرم وعلوه ، وكون المربّع القائم على علوّ عمودي قائم يوازي سطح جوانبه المثلثة الزوايا كما اتفقت عليه القياسات.

ثم ان بين الدوائر والقطوع (*diamètre*) نسبة معروفة . وذلك اننا اذا اردنا معرفة طول الدائرة ضربنا القطع بعدد ٣,١٤١٦ ، وزدنا جوانب قاعدة

الهرم ، التي كانت في الاصل ٨٠٥,٢٣ من كل جانب فكانت دائرته كلها ٩٣١ مترًا و ٢٢ . فاذا قسمنا هذا العدد مرتين على علو الهرم او على ١٤٨ مترًا و ٢٠٨ حصلنا على ٣,١٤١٦ اي على النسبة الحاصلة بين الدائرة والقطع . فاذن كان الكهنة المصريون عارفين بعدة مسائل معرفة في غاية الدقة والضبط

ولكن هل كانوا يعرفون علم المناظرة ؟[1]

الجواب : في سنة ١٩٠٥ زار الاب مورو قرطاجنة ورأى في متحف الآباء البيض حجرًا كريمًا منقوشًا فيه حصان يحكّ اذنه في غاية الدقة واتقان الصناعة . وبعد الفحص الطويل ، أُعجب باحكام نقشه واستدل ، باتقان صناعته ، على ان خواص العدسيات كانت في القديم معروفة . ثم انه شاهد بلورة مقطوعة بحسن صنعة وفن تكبير الاشياء . فاستخدمها لفحص الحجر وازداد رسوخًا في رأيه . فاذن كان المجهر معروفًا في القديم ، ولعل المرقب والنظارة ايضًا كانا معروفين .

واذا تدبرنا الآن ما بذل الفلكيون المتأخرون من الجهد لمعرفة المسافة القائمة بين الارض والشمس ، توصلنا الى حقيقة اخرى . اعلم ان اليونانيين في مبتدأ ابحاثهم توهموا الشمس توازي البلوبنز (Péloponèse) في كبرها ، وخمنوا بعدها عن الارض ١٥ مليون كيلومتر . ثم ان اريسترك الساموسي قال بثمانية ملايين كيلومتر وشايعه على رأيه بطليموس وكوبرنيك وتيخو براهي . واما كبلر فقال بثمانية وخمسين مليون كيلومتر . وفي عهد الملك لويس الرابع عشر اوصلوه الى ١٢٥ مليون ثم الى ١٨٦٤ ، وفي آخر الامر قرّ رأيهم على ١٤٩,٤٠٠,٠٠٠ . فاذا ضربنا علو الهرم الاكبر بمليون كان الحاصل ١٤٨,٢٠٨,٠٠٠ ، وهي المسافة القائمة بين الارض والشمس على وجه التقريب . ولعل المصريين الاقدمين ارادوا تخليد حل هذه المسئلة العويصة ببنائهم هرم خوفو .

ولم يقف الفلكيون المصريون عند هذا الحد من الاكتشاف والعلوم بل عدوا عنه ، اذ ان الراجح في الراي انهم قاسوا الارض وعرفوا اتساعها . وقد

---

١) المناظرة يقابلها بالافرنسية *optique* وهو علم على ما حدّه ابن خلدون في مقدمته المطبوعة بالمطبعة الادبية ١٩٠٠ في بيروت : يتبين بـه اسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها . طالع صفحة ٤٨٧ .

اشتهر في هذه الآونة الاخيرة الفلكي كلارك (Clarke) الذي استخرج من القياسات الحديثة شعاع الارض القطبي البالغ ٦،٣٥٦،٥٢١ مترًا ، والحال ان هذا القياس هو عين الذراع الهرمية اعني ٠،٦٣٥٦٥٢١ مضروباً بعشرة ملايين. فعلى هذا النحو يكون المصريون قاسوا على وجه التقريب درجات مختلفة من دائرة معدّل النهار ، واتخذوا قاعدة لقياساتهم الجزء العاشر من المليون من شعاع الارض القطبي الذي لا يتغير في الوف من السنين . لعمري ان هذه الاتفاقات لغريبة في بابها.

ثم اننا اذا انتقلنا من هذا الى حساب السنين والاشهر والايام ، رأينا فيه ما يحمل على العجب ، اي اننا اذا قسنا جانب الهرم الاكبر بالذراع التي استعملوها وقت بنائه ، وجدنا فيه مدة السنة النجمية ، اي الوقت الذي تحتاج الشمس اليه للرجوع الى النقطة عينها من السماء ؛ اعني ٣٦٥ يوماً و ٢٥٦٣ . امّا السنة المدنية التي لم يتوفق اليونان والرومان الى تعيينها بالضبط ، فاننا نجدها بضرب عدد ٣،١٤١٦ بطول المقصورة الظاهرة المتقدمة مقصورة الملك الموضوعة في الاصل على اقدار الاباهيم الهرمية ،والحاصل ٣٦٥ يوماً و ٢٤٢ . فاضرب الآن الابهام الهرمي بمئة مليار ، فيكون لك المسافة التي تقطعها الارض في ٢٤ ساعة.

ثم ان لناووس مقصورة الملك سرًا . فهذا الناووس الذي لم يهيأ لدفن الموتى اشكاله تشبه قبة عهد العبرانيين . وهذا سر مكنون . فمن نقل عن الآخر ؟ ولماذا هذا الشبه ؟ اما مدخل الهرم فينظر الى النجمة القطبية التي كانوا يعيّنونها حينئذٍ بهذا الاسم ، وقد وجّهوه اليها بعد ملاحظة حركة رجوع نقط الاعتدال الذي بموجبه يتفق وقوع قطب السماء والنجوم عينها بعد ٢٥٧٩٦ سنة . وقد توفق هرشل وبياتزي سميث الى معرفة ذلك ، ولكن المصريين السابقون ، والله اعلم.

وصف بناء هرم اوناس (1)

ان تواريخ بناء الاهرام احترقت في جملة ما احترق حين استيلاء الرعاة على منفيس . ولكن لحسن الحظ قد نجا من الحريق اخبار اعمال الملك اوناس ،

(1) عن تاريخ سبرو : «في عهد رعمسيس واشور بانيبال» ، ١٩٢٣ ، ص ١٤١ ، بتصرف.

احد ملوك الدولة الخامسة ، ووصف بنائه لهرمه . واليك ذلك:

«في السنة الثانية ، والخامس والعشرين من الشهر الثالث من الشتاء ، في عهد ملك مصر العليا والسفلى اوناس الذي يعطي الحياة دائماً كالشمس . في ذلك اليوم بينما كان هذا الملك جالساً على سريره الذهب وعلى راسه تاجه ، اذ اخبروه بان وكيل اعمال المدفن ، وزعيم الرسأمين ، ومقدّم قطاعي الاحجار ، ورئيس البنائين ، بالباب يستأذنون ليخبروه بخروجهم الى الجبل ونفضهم اياه من كل جوانبه طلباً لتخيّر المكان الموافق لبناء هرم له بين اهرام الملوك ، وحشر قطاعي الاحجار ، وجمع الايدي للعمل ، والبقر للنقل ، واختيار النقاشين ، وانتقاء المصورين . فاوعز الى حاجبه بادخالهم ليراهم ويحكم على عملهم . فدخلوا الى حضرة الاله رافعين ايديهم للسجود وهاتفين له . ثم سجدوا امام وجهه الجميل وصرخوا : « انك تشبه في افعالك اباك الاله الشمس ، وكل ما يرغب فيه قلبك يتمّ في الحال . فمرنا بلا تريّث بما تشاء ايها الملك مولانا . »

«ثم ان وكيل اعمال المدفن تكلم فقال: « ايها المولى الملك ، يا شمسنا وسيدنا ، ان المكان الحسن الذي يمكنك ان تجعل فيه اقامتك هو الى الجانب الجنوبي الغربي من الهرم الحجري الذي ابتناه ملك مصر العليا والسفلى زوزيري. فالمكان يغطيه الرمل ، وبمعزل عن آبار الموتى وقبور الامراء . فهنالك يمكننا بناء اثرك ولا تحل بنا لعنة الآلهة وسخط الارواح الشريفة الذين عاشوا سابقاً .» ثم عرض على الملك الواح المهندسين مرسوماً فيها اشكال المقاصير والمنافذ ، واطوالها وعروضها ، وادراج البردي الحاوية رسوم التصاوير المعدة لتنميق المعبد وقال : « لتأمر جلالتك رئيس قطاعي الاحجار فيقطعوا من جبل تروجة الحجر الابيض الجميل الذي يستعمله زعيم البنائين في بناء مخادعك . واما احجار الابواب والاعتاب واسداد المنافذ واعمدة المعبد فارسل رسلك الى كل البلاد التي فيها الصوان المحبّب ، وارسل مع الرسول الذي يقصد الفنتين ، وابهيت الشلال ، جنوداً وملاحين واقوى سفينة ، ليأتي بالحجارة الجميلة سالمة .

« فاجابه الملك : « حسناً حسناً ! ان ما ذكرت اعظم من كل شيء في العالم .» ثم امر باحضار رئيس السحرة وسأله : « هل الاوضاع التي عينوها للاقامة

السعيدة مرضية لآلهة الغرب؟» فاجاب: «انها مرضية يا سيدنا ومولانا الملك.» فقال الملك: «وباي اسم نسمّي الاقامة السعيدة؟» فاجاب الساحر: «نسميها اوناس ذا الاماكن الجميلة.» وعلى اثر ذلك استدعى الملك صديقه، ناظر الغابات المختصة بالمملكة، وامره بالسفر الى الفنتين وابيت الشلال في سفينتين حربيتين بجنودهما، وسفينة نقل قوية جدًا، وقطع الصوان المحبب الذي يُحتاج اليه لبناء مقاصير الهرم والمعبد وامر خازنه وقال: «احضر لي قلائد الذهب والفتخ، واحضر لي ذهباً ذهباً كثيراً.» فاتاه بما اراد، فوزع المخانق والفتخ على رؤساء البنائين والرسامين وقطاعي الاحجار الذين اختاروا للملك موضع الاقامة السعيدة. فسُرّوا جدا جدًا وسجدوا لمولاهم منبطحين. ثم نهضوا وخرجوا متقهقرين منحنين هاتفين وقصدوا الى الجبل لانجاز امر الملك.»

ولمّا كان الفرعون عندهم الهًا وابن اله، نازلًا من السماء ليسوس البشر، وجب له السجود والاكرام حياً وميتاً، وارصاد الكهنة لخدمته والاموال لتأبيد عبادته، واتخاذ موضع حريز لصيانة جسده وقرينته على الدوام، ومعبد تقام فيه الصلوات وتجعل فيه القرابين، واهراء لخزن الاقوات والغلات.

فاوناس شرع في حياته يتخير الاحبار والخدام والكهنة الذين يقومون بعبادته، واضاف اليهم الصناع والعبيد والحاشية والحشم والخبازين والقصابين والسقائين وخزّان الاقوات الخ، واقطع رئيس الكهنة الذي عينه الاراضي التي ارادها لتكون وقفاً على عبادته، وملّكاً لهرمه فترسل اليه بعد وفاته البقر السمان والطيور والسمك واللبن والسمن والبقول والثمار والازهار والجعة والنبيذ وخبز السميذ وحلواء اللوز والتين والاقراص المعجونة بالعسل وانواع الحلويات، وارصد الوكلاء والنظار والحساب والمهندسين وجعلهم تحت امرة انبيائه لسياسة هذه الاقطاعات والقيام عليها في حياته.

وما مضت بضعة اشهر حتى حفرت اسس الهرم وآن وقت مباشرة البناء. فاعلن المنجمون والسحرة ان اليوم العاشر من الشهر الثاني موافق لاقامة فروض العبادة المصاحبة لوضع الاساس، فنهض الملك صباحاً وجلس في محفته الذهب وسار يريد جبل منوف بين الاغاني والاهازيج. واذ بلغ مكان دار قراره ترجل

وبسط يديه الى ابيه اوزيريس الاله الاكبر للسجود ، ثم اخذ الخيط ومسح الموضع ورز اوتادًا من خشب الجميز في زواياه الاربع ، وخط بمنكاش بين الاوتاد خطوطاً دالة على مواضع الأسس ، وترك مكاناً للباب ؛ ثم فرش الرمل الاصفر مخلوطاً بالعقيق والينع والحجارة البراقة تحت المدماك الاسفل ، ووضع الحجر الاول في موضعه بواسطة عتلة خشب صلب ؛ ومن بعد ذلك اتوه باربعة ثيران : أبيض ، واسود ، واصهب ، وارقط ، فذبحها وقدم افخاذها لالهة الجهات الاربع ، وركب محفته وعاد الى قصره بين الاغاني والاهازيج.

وفي اليوم الثاني باشر العملة اعمالهم بجد ونشاط يبعثان على اعتقاد تمام العمل في ثلاث او اربع سنين . وفي اثناء ذلك ، كان اوناس يزور العمال الفينة بعد الفينة ، وينشطهم ويستحثهم ويستهمهم بلين الكلام ولطيف القول ، ويوزع عليهم الكراث والبصل والثوم والقثاء . وفي السنة الثانية عشرة ، في اليوم الثاني من الشهر الرابع ، شهر الزرع ، بينما كان اوناس في هيكل منوف أخبر بقدوم رئيس بنائي المدفن وسائر رؤساء العمل . ولما دخلوا عليه قالوا له : « ايها الملك مولانا ان الهرم الذي اوعزت الينا ببنائه قد تمّ حقيقة ، فجدرانه القويمة بُنيت بحجر ترّوجة الجميل ، والمنافذ والاسداد بالصوان المخبب ، ونقوشه وتداويره استقرت على غاية الاتقان ، وابوابه صُنعت من خشب السنط المصفح بالبرونز . فلتشأ جلالتك الذهاب لترى عمل ايدينا . » فقام الملك اوناس وخرج يريد الجبل ، فرأى كل شيء على ما وصف له رؤساء العمل ، واجهر بالثناء الطيب عليهم ، وابدى لهم وجه الاستحسان ، وافاض فيهم العطاء ، وطوقهم المنن ، واسنى لهم الجوائز والصلات ، وامر بتوزيع الاقوات على العملة ، وعين لكل واحد منهم اربعة ارغفة وجرتين جعة ، فهتفوا باسمه ودعوا له ثم تلا الصلوات للآلهة آبائه شكرًا لهم على منهم عليه ، وهو حي يطأ الارض ، بانجاز دار قراره السعيدة . ولما اتى على صلاته رجع الى منفيس ودخل قصره واخذ يفرح ويسر مع نسائه واولاده .

رفع المياه

بقلم انطوان باز
المهندس من المكتب الافرنسي ، في بيروت
ومن مدرسة الكهرباء العليا في باريس

٢

انابيب الماء

يُستخدم ، لرفع المياه ، في الطلمبات الحديثة ، انابيب من الحديد المصبوب ، او الافضل من الفولاذ الملبس بالتوتيا ويُعرف « بالحديد المزيبق » . وثخانة هذه الانابيب ، من الداخل ، تتراوح بين نصف الانش للطلمبات المنزلية الصغيرة ، والثمانية او العشرة آناش لطلمبات الري الضخمة . والانش ، كما هو معروف ، مقياس انكليزي ، قدره ٢,٥٤ سنتيمترًا ، شاع استعماله في بلادنا ، لانابيب الماء ، بسبب علاقاتنا التجارية في ذلك الصنف ، مع انكلترة والمانية وما اليهما من البلدان . اما قطع الانابيب طولاً ، ففي الغالب ١٥ قدماً اي ما يعادل الاربعة امتار ونصف المتر تقريباً . فاذا احتيج الى اكثر من ذلك الطول ، تحكم الانابيب بعضها الى بعض بواسطة وصل لولبي .

تُنزل انبوبة المص عمودية في البئر ، بحيث لا يزيد طولها عن الستة او الثمانية امتار . ويجب ان يُترك ، على الاقل ، ثلاثون سنتيمترًا بين قعر البئر ومؤخر الانبوبة كي لا تصعد فيها الرمال فتعطل الطلمبة . ويجعل في طرف انبوبة المص الاسفل آلة تعرف « بالصبّاب » هي كناية عن مصراع يفتح الى فوق ، غلافه شبكة حديدية توقف الاوساخ . وفائدة المصراع ان يحفظ ، في انبوبة المص ، كمية من الماء ، فيسهل تسيير الطلمبة ، عند استخدامها ثانية ، لفراغ الانبوبة من الهواء .

اما انابيب الرفع فتخرج من الطلمبة الى مكان الاستخدام ، اما عمودية واما مع سطح الارض ، حسب انحدارها. ويجب ، في تخطيط تلك الانابيب ، النظر الى امرين : التخفيف من طولها ، والاقلال من عدد الزوايا ما امكن ،

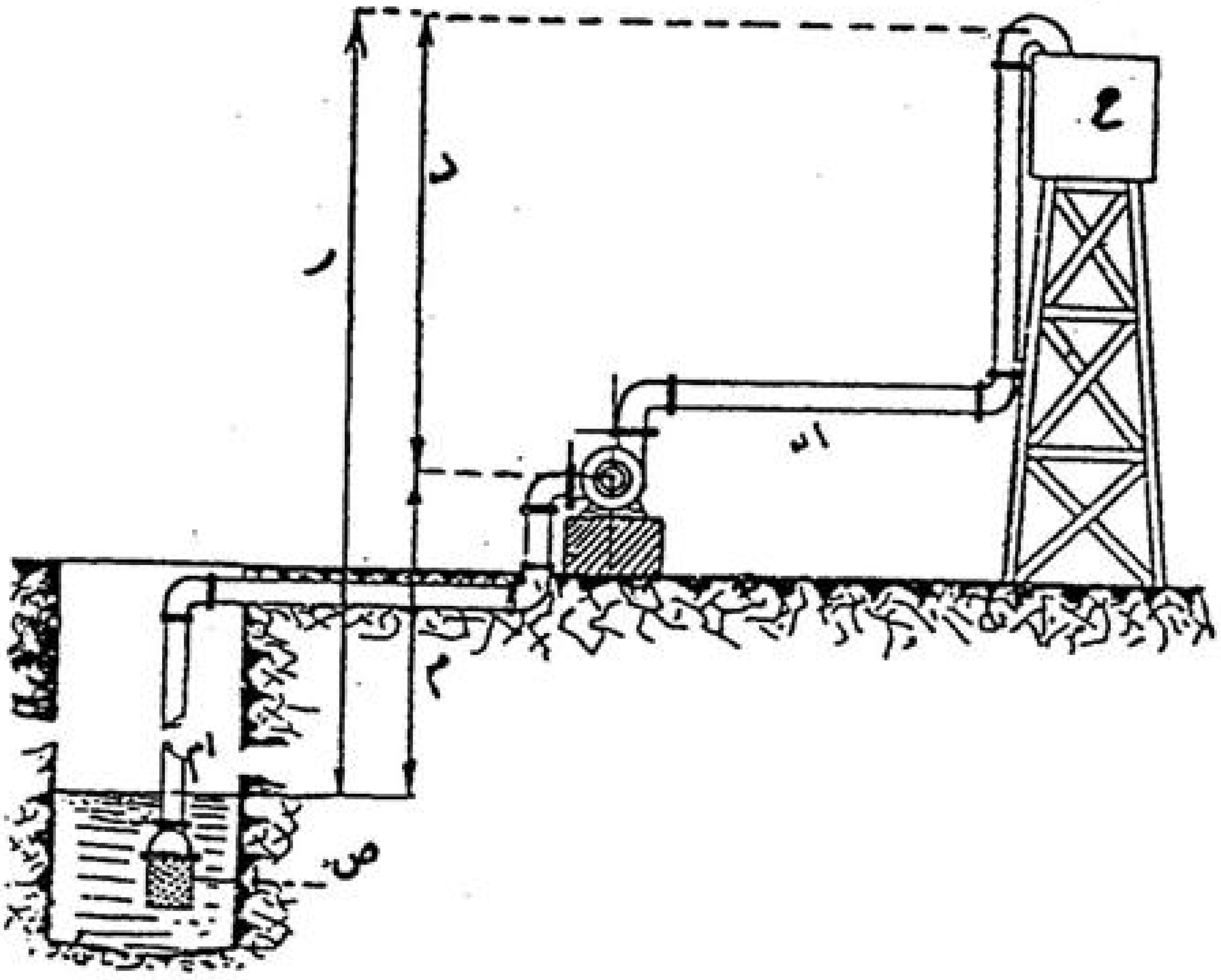

الرسم ١ م : علوّ المصّ – د : علوّ الدفع – ر: علوّ الرفع والمصّ والدفع – ام : انبوبة المص – اد : انبوبة الدفع – ص : « الصبّاب » – ح : الجاووز

لان احتكاك حُبيبات الماء ، في انبوبة الرفع وفي الزوايا ، يستغرق قوة تزيد بطول الانابيب وعدد الاكواع وضيق زاويتها ، لذلك كثيراً ما تفضَّل الزوايا المفتوحة اذا كان لا بُدَّ منها . ويرى القارئ ، في الشكل الآتي ، تأثير طول الانابيب في تحديد قوة المحرك والطريقة المستعملة لتخفيض تلك القوة.

لراهبات المحبة ، في بيروت ، بقعة من الارض قرب فرن الشباك تحتوي على حرج من الصنوبر ، وقطعة خصبة لزرع الفاكهة والبقول. وقد ادّى البحث الى ايجاد مياه غزيرة في زاوية الارض الشمالية الغربية ، مصدرها ماء النبع الممتد قرب تلك الارض من عن يمين خط الترامواي الكهربائي . فبنيت في ذلك المكان بئر عميقة ، قطرها خمسة امتار ، طلع بها الماء ، في الشتاء

الماضي ، الى ثمانية امتار ونيف ومركز هذه البئر يبعد اربعمائة متر عن حاووز لجمع مياه الري ، قديم البناء ، في الجهة المعاكسة من الارض . اما العلو العمودي بين سطح البئر وسطح الحاووز فاثنا عشر مترًا . وقد كلفت تركيز طلمبة صناعية تسحب عن ثمانية امتار من البئر ، وترفع الى الحاووز مقدار ١٨ مترًا مكعباً في الساعة ، اي خمسة ليترات في الثانية . فوجدت ان فوهة الطلمبة ، المعمولة لتلك الكمية من الماء تعادل سبعة سنتيمترات ، اي ٢ $\frac{3}{4}$ من الانش ، ممّا اوجبَ ، لولا طول انابيب الدفع ان تكون ، ثخانة الانابيب كذلك اي سبعة سنتيمترات ايضاً .

لكنَّ الحساب الهندي بيّن ان مقاومة هذه الانابيب ، لتلك الكمية من الماء ، يوازي علوًا قدره خمسة سنتيمترات ، لكل متر واحد من الانابيب . فلو كان طول الانابيب ، مصاً ودفعاً ، عشرين مترًا لكان احتكاك الماء فيما يوازي ٥ × ٢٠ = ١٠٠ سنتيمترًا اي مترًا واحدًا من العلو . ولو عدّلنا ان قوة المحرك لادارة الطلمبة ، تابعة لعلو الرفع وهو عشرون مترًا لزادت القوة ، بسبب احتكاك جبيات الماء في الانابيب ، بنسبة $\frac{1}{20}$ وهو شيء زهيد . اما طول الانابيب اربعمائة متر لا عشرين ، والخسارة فيها توازي على المعدل السابق ٥ × ٤٠٠ = ٢٠٠٠ سنتيمترًا او عشرين مترًا عوضاً عن المتر الواحد . فتكون زيادة القوة اذًا بنسبة $\frac{20}{20}$ اي مرتين . ولا يُستهان بهذا الفرق اذا عرف القارئ ان الحصان الواحد يصرف من القوة الكهربائية ، على حسب بيعها في بيروت ، ما يُعادل عشرة غروش سورية في الساعة ، وان الطلمبة المنوّه عنها تستلزم عادة ثلاثة احصنة . فلو زادت القوة مرتين ، بسبب الانابيب ، لاستغرق فرقُ القوة ثلاثين غرشاً سورياً في الساعة الواحدة .

ولمّا كان من الثابت ، في فن الهندسة ، ان مقاومة الانابيب ، لكمية معلومة من الماء ، تنقص بزيادة قطرها . اضطررنا ، في المشروع المذكور ، الى وضع انابيب قطرها عشرة سنتيمترات عوضاً عن السبعة . وقد اعطت القاعدة الهندسية لتلك الثخانة وكمية خمسة ليترات من الماء في الثانية ، خسارةً في العلو توازي $\frac{7,50}{1000}$ من المتر لكل متر من الانابيب ، فتكون الخسارة للاربعمائة

متر $\frac{٧٫٥٠}{١٠٠٠}$ × ٤٠٠ = ٣ امتار ، عوضاً عن العشرين ، وزيادة القوة ٣/٢٠ اي ١٥ بالمائة . ولولا غلاء ثمن الانابيب لكنا جعلنا قطرها ١٢ سنتمترًا ، انما اكتفينا بما ذكر وهو عدد مقبول.

تحديد قوة المحرك

لقد استنتجنا ، مما سبق ، اهمية قطر الانابيب من جهة تحديد القوة . فلنبحث الآن في كيفية ذلك التحديد ولنأخذ لنا مثلاً مشروع راهبات المحبة المنوه عنه .

إنَّ قوةَ المحركِ للطلمبة تابعة لكمية الماء المنوي رفعها ، ولعلوّ الرفع ، مصاً كان ام دفعاً . ولمّا كان تحديد الحصان ، كمقياس القوة : « القوة اللازمة لرفع ٧٥ ليترًا من الماء في الثانية الى علوّ متر واحد عمودي» او « رفع ليتر واحدٍ من الماء في الثانية الى علو ٧٥ مترًا عمودياً » تحسب قوة المحرك بان تضرب عدد ليترات الماء المنوي استخراجها في الثانية بعلو الرفع العمودي وتقسم الحاصل بالعدد٧٥ . وهذه القوة هي القوة المبدئية ، اي خلا الخسارة في الانابيب وفي الطلمبة . ولتعويض الخسارة في الانابيب يُزاد العلو المبدئي بمقدار الهبوط الناتج عن احتكاك الماء في الانابيب وهذا ما تعطيه ايانا قاعدة هندسية لا سبيل الى تبيانها الآن . اما الخسارة في الطلمبة فتتراوح بين الاربعين والخمسين في المائة « للسانتريفوج » ، واربعين وثلاثين في المائة للطلمبات ذات المدك . وتطبيقاً للقاعدة ، ذكرنا ادناه حساب القوة في طلمبة فرن الشباك لراهبات المحبة:

كمية الماء المنوي استخراجها في الثانية	٥ ليترات
علوّ المصّ	٨ امتار
علوّ الدفع المبدئي	١٢ مترًا
علوّ الرفع مصاً ودفعاً	٢٠ «
قطر الانابيب	١٠ سنتمترات
طول الانابيب	٤٠٠ متر
هبوط العلوّ الناتج عن الانابيب	٣ امتار
علو الرفع الواقعي	٢٣ مترًا

القوة المبدئية اللازمة $\frac{٢٠ \times ٥}{٧٥} = ١\frac{١}{٣}$ حصاناً

القوة فيا في الخسارة في الانابيب $\frac{٢٣ \times ٥}{٧٥} = ١\frac{١}{٢}$ حصاناً

القوة فيا في الخسارة في الانابيب والخسارة في

الطلمبة على تعديل انتاج الطلمبة ٥٠ بالماية $١\frac{١}{٢} \times ٢ = ٣$ احصنة

هذا اذا ضربنا صفحاً عن الخسارة في زوايا الانابيب ، لذلك آثرنا ، في ذاك المشروع ، استخدام محرك قوته اربعة احصنة عوضاً عن الثلاثة . وليس في ذلك ندامة لان المحرك الذي انتقيناه كهربائي ، والمحركات الكهربائية ، خلافاً للمحركات النارية ، لا تصرف من الكهرباء الّا بقدر ما يُطلب منها من القوة . فلو استلزم رفع الخمسة ليترات من الماء في الثانية ثلاثة احصنة وثلث الحصان مثلاً ، لما صرف المحرك الّا ما يوازي هذه القوة ، ولو كان مصنوعاً لاربعة احصنة . اما لو كان مصنوعاً لثلاثة احصنة فقط لسار بعجز وزادت حرارته بزيادة التيار الكهربائي فتعطل .

انواع المحركات الصناعية

إنّ المحركات الصناعية لادارة الطلمبات على نوعين : المحركات الكهربائية ، والمحركات النارية على اختلاف اشكالها ، كالتي تسير باشتعال البنزين او الكاز او الزيت والوسخ ويعرف « بالمازوت » . ولا مشاحّة اليوم في ان المحركات الكهربائية هي الاصلح لادارة الطلمبات ، نظراً لسهولتها ورخص اثمانها ، اما لا يستغنى احياناً عن المحركات النارية لغلاء الكهرباء ، كما هي الحالة في بلادنا ، او لعدم وجودها كما في سهول الريّ والقرى الغير المتمتعة بفوائد الكهرباء . والاحسن ، في المحركات النارية ، استخدام محركات الكاز او البنزين للقوات التحت العشرة احصنة ، ومحركات « المازوت » للعشرة احصنة فما فوق ، ومحركات المازوت اغلى ثمناً من محركات الكاز اما هي اكثر اقتصاداً للفرق الفادح بين سعر المازوت وسعر الكاز او البنزين .

يوقع المحرك غالباً فوق صفيحة من الحديد المصبوب فيدير الطلمبة رأساً بدون قشاط ، والرسم ٥ يمثل مجموعاً كهربائياً كهذا ، قوته ربع الحصان يستخدم في البيوت لرفع المياه ، يرى المحرك الكهربائي لجهة اليمين والطلمبة امامه لجهة الشمال .

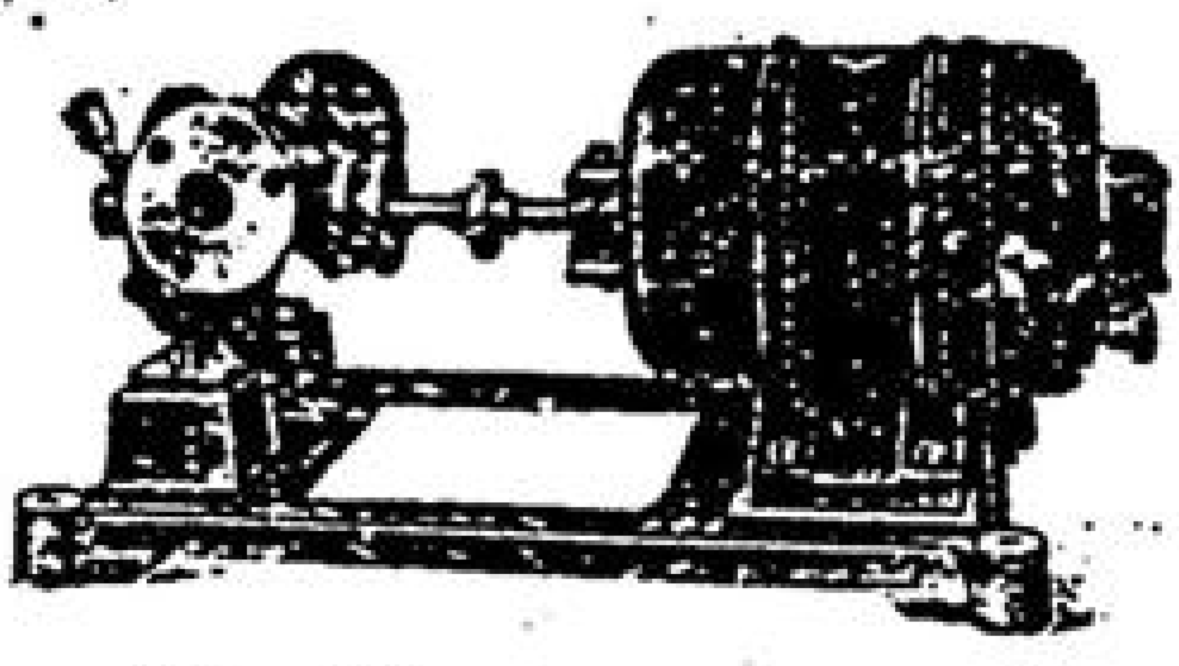
الرسم ٥ : مجموع طلمبة كهربائية لاحتياجات المنزل قوتها ربع الحصان

ويجوز ان تدار الطلمبة بواسطة قشاط من جلد او غيره يلف فوق بكرتها وبكرة المحرك . وهذه الطريقة لا تستعمل الا في مواقع خصوصية كما لو وجدت الطلمبة وخالف عدد دوراتها دورات المحرك ، فصعب ادارتها رأساً لانها تدور حينئذ بسرعة المحرك فيخف انتاجها او تتعطل . فلو كانت الطلمبة مصنوعة مثلاً لالف وخمسمائة دورة في الدقيقة ووقعت رأساً مع محرك يدور الف دورة ، لدارت الطلمبة الف دورة ، ولم تصعد من الماء الا القليل . اما في القشاط فيمكن ادارة الطلمبة على سرعتها ، ولو اختلفت عنها سرعة المحرك ، وذلك بتعديل بكرتها نسبة لبكرة المحرك (انظر الرسم ٣)

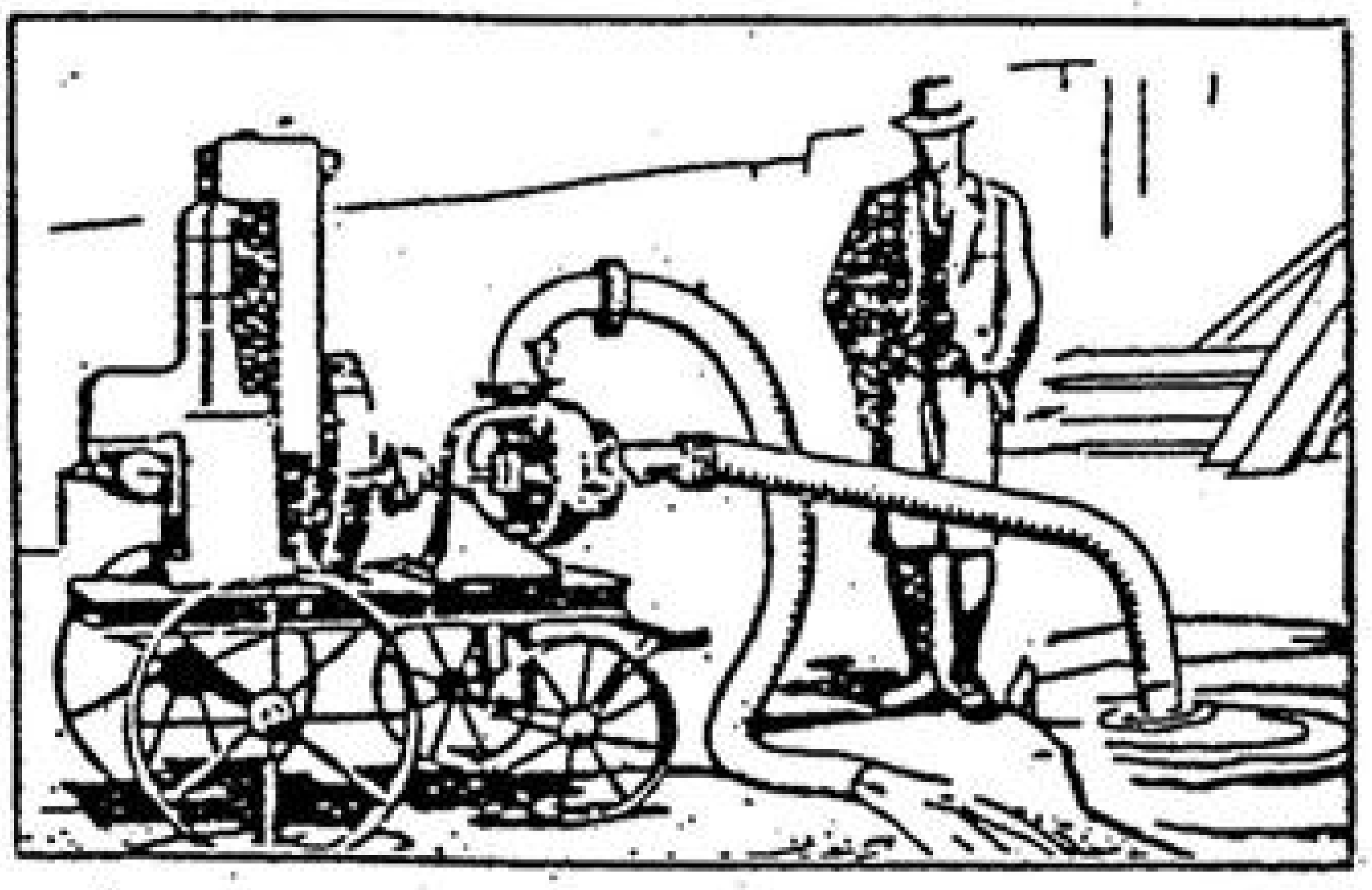
الرسم ٦ : مجموع طلمبة ومحرك على البنزين ؛ نقال

ومن المحركات ما وقع ، مع الطلمبة ، على عجلة نقالة ، لاستخدامها حيث يلزم. والرسم ٦ يمثل مجموعاً نقالاً قوته حصانان ونصف الحصان ، جلبناه لشركة الماء في بيروت ، يستعمل عند اصلاح انابيب الدفع من الضبيه الى بيروت ، لمص المياه المتدفقة من الانابيب ودفعها بعيداً ، تسهيلاً للعمل .

ومن غريب ما رأيت ، لاستخدامها في المنازل الخالية من الكهرباء ، طلمبة صغيرة يديرها محرك على الهواء السخن . يكفي لادارة المحرك ان تشعل تحته الآلة المعروفة « بالبريموس » فيتمدد الهواء ، ضمن الاسطوانة ، بواسطة الحرارة ، فيدفع المدك رواحاً واياباً ، فيدير الطلمبة . وقوة هذا المجموع تكفي لرفع ٣٨٠ ليتراً من الماء الى علو سبعة امتار (مصاً ودفعاً)

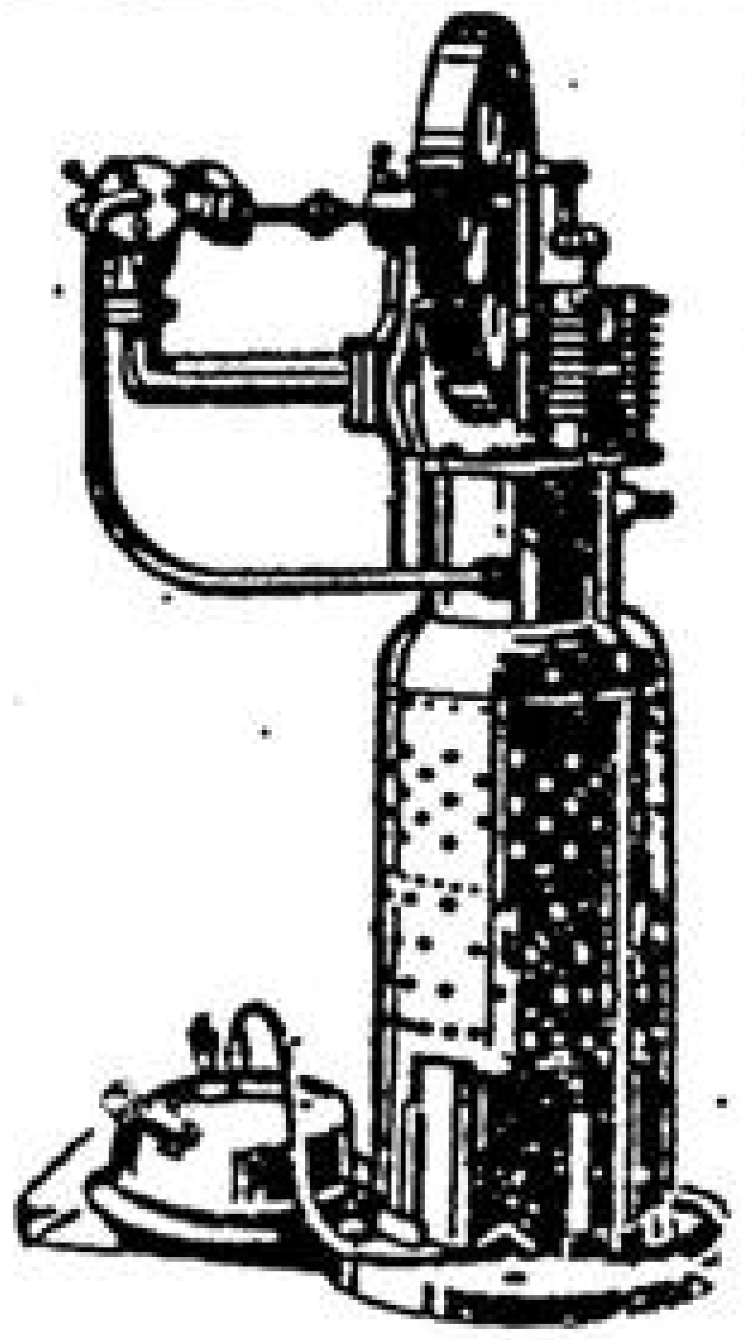

الرسم ٧ : مجموع طلمبة منزلية

او ٢٧٠ ليترًا الى عشرة امتار او ١٨٠ ليترًا الى ستة عشر مترًا . وقد مثلنا المجموع بالرسم ٧ .

والاسهل للبيوت ، فيما لو توفرت الكهرباء ، استخدام مجموع كهربائي «اوتوماتيكي» اي مجموع يسير ويقف من تلقاء ذاته كلّما خفَّ الماء في الحاووز الجامع الذي يدفع اليه الماء ، او فاض منه . والالة المسيّرة سبّاح ، يجعل في الحاووز حكم في اعلاه مفتاحٌ كهربائي . فاذا نزل سطح الماء بفروغ الحاووز ، نزل السبّاح واقفل المفتاح الكهربائي ، فسار التيّار في المحرك ، فدار ورفع المياه ، حتى اذا ارتفع سطح الماء في الحاووز ، علا السباح وقطع المجرى فوقف المحرك ، ويحرك على الهواء السخن باشمال البريموس تحته .

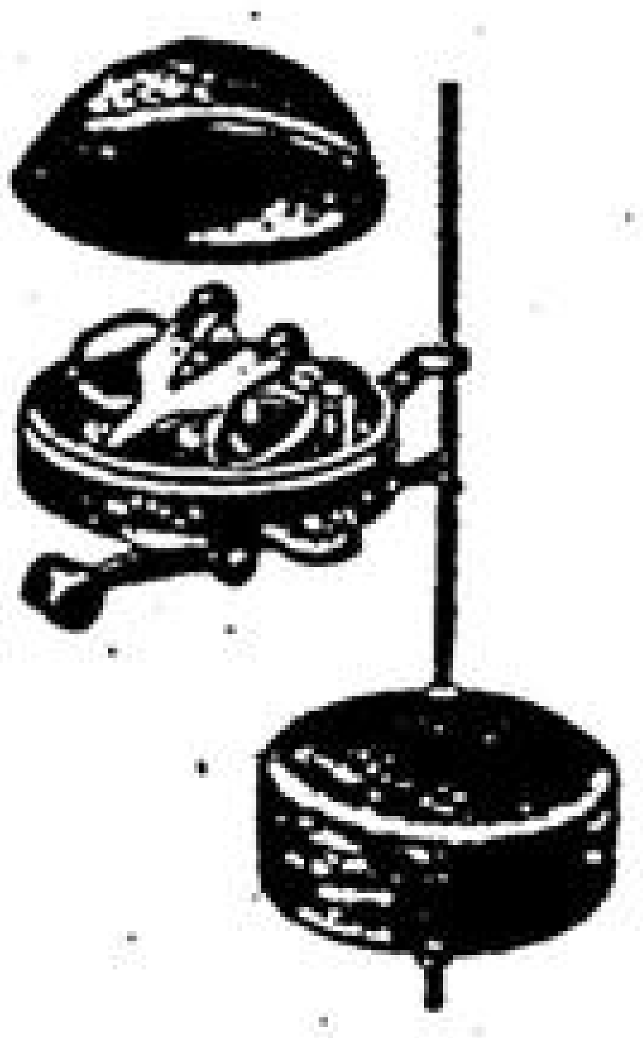

الرسم ٨ : السبّاح وفوقه المفتاح الكهربائي -

وهلم جرًا . وقد مُثّل ذلك السبّاح مع مفتاحه الكهربائي في الرسم ٨

امّا الرسم ٩ فيمثل مقطعاً لمنزل ذي اربع طوابق جُعل في اسفله المجموع «الاوتوماتيكي» محكوماً بالسبّاح وفيه يُرفع الماء من البئر الى الحاووز الجامع حيث يتشعّب منه الى كل فروع المنزل .

وقبل الختام لا بُدَّ لنا من كلمة عن المراوح الهوائية ، وقد كثر استعمالها ، في بعض الجهات الكثيرة الارياح ، لرفع مياه الري وغيرها (راجع مقالة المشرق ٢٧[١٩٢٩]٠٤٠) غير ان انتاج تلك المحركات لا يحسن الّا اذا بلغت سرعة الهواء الثلاثة او الاربعة امتار في الثانية . وتزيد قوة المراوح بزيادة قطرها ، لسرعة من الهواء محدودة ، كما يظهر من الجدول التالي .

قطر المروحة سنتيمترات	سرعة الهواء امتار في الثانية	كمية الماء ليترات في الساعة	علو الرفع امتار
٢٧٥	٤	٠٠٥٠٠	٢٠
٣٢٥	〃	٠١٠٠٠	〃
٤٠٠	〃	٠٢٠٠٠	〃
٤٨٠	〃	٠٣٥٠٠	〃
٥٧٠	〃	٠٥٠٠٠	〃
٧٥٠	〃	١٠٠٠٠	〃
١٠٠٠	〃	٢٠٠٠٠	〃

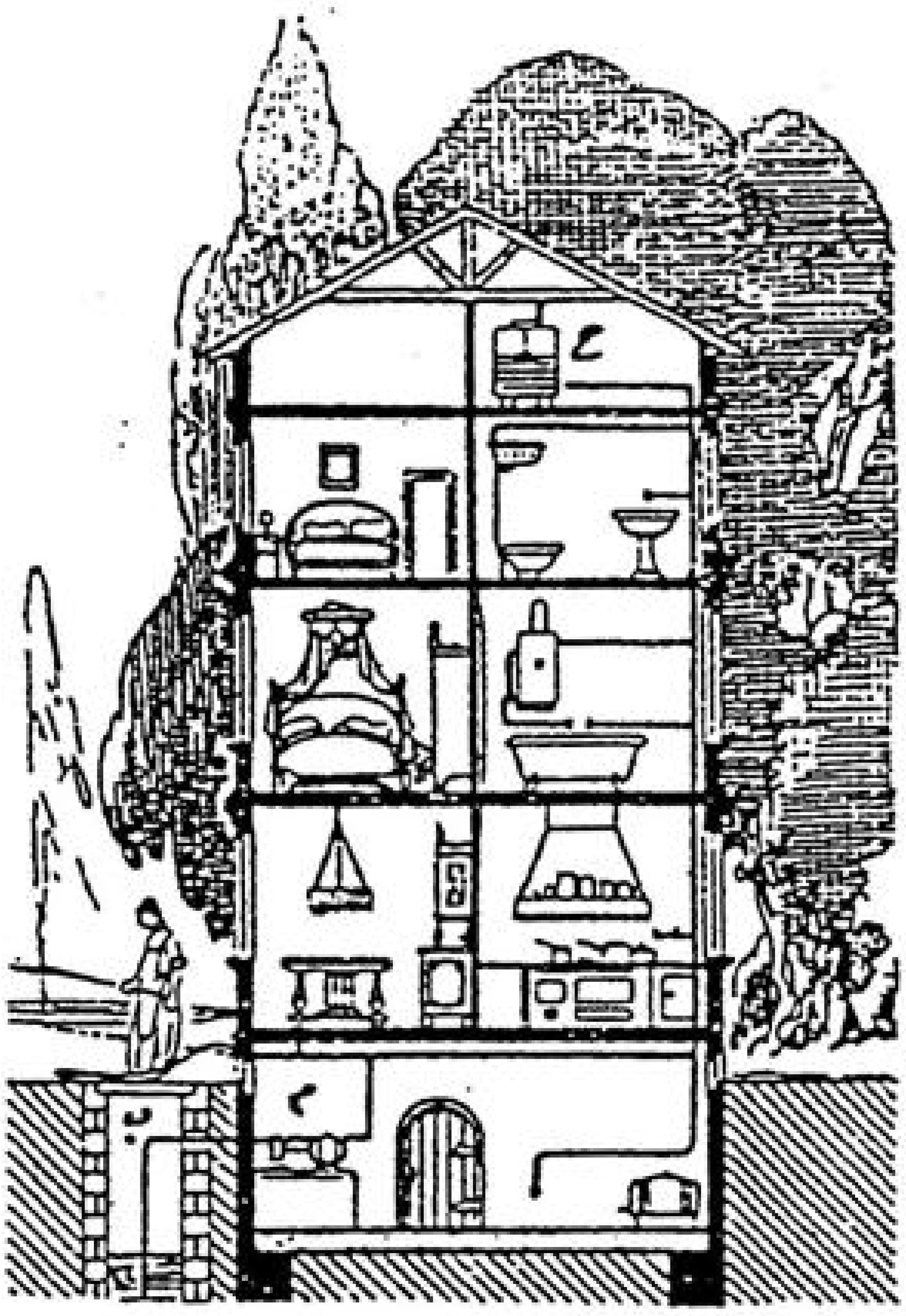

الرسم ٩ :
رفع المياه في المنازل بواسطة مجموع كهربائي اوتوماتيكي
ب : البئر
م : المجموع
ح : الحاووز وضمنه السبّاح

هذه لمحة عن كيفية رفع المياه والقواعد التابعة لها . عسى ان يكون منها لقراء المشرق بعض الفائدة .

القاتل

رواية

بقلم الاب توتل اليسوعي

الفجيعة

يوم الاثنين الواقع في ٢١ كانون الاول سنة ١٩٢٥ ، الساعة الرابعة بعد نصف الليل ، كان قطار بيروت قد غادر محطة شتورة وانحدر مسرعاً ، وقد اطلق سراحه من قيود الخط الحديدي المسنّن ، وهبط اواخر سفوح لبنان الغربي قاصداً الى رياق ، حيث قطار حلب بانتظاره . وان الخط يميل ويعوجّ قبيل ان يمتدّ منبسطاً في سهل البقاع ليبلغ محطة سعدنايل . فانطلق عليه القطار من شتورة باشدّ سرعته ، قاذفاً شرارات النار من مدخنته ، وقد لعبت بها الريح الشمالية الهابّة من سهول بعلبك . فاستيقظ المسافرون لحركة القطار السريعة ، واخذ القاصدون منهم الى المعلقة يتفقدون امتعتهم ويتأهبون للنزول ؛ لما دوّى في الفضاء صوت صفارة القاطرة متهدّجاً متقطعاً ، وبعد بضع ثوانٍ وقف القطار بغتةً .

فذعر الركاب لوقوفه في غير موضعه وميعاده ، في ذلك الليل الحالك ، وفي زمهرير كانون . واشرفوا من الحافلات ، فرأوا رئيس القطار قد نزل من الحافلة الاخيرة ومشى متوجهاً نحو القاطرة ، والسائق نصّاراً قد خرج من جهته ايضاً ، وهرول مسرعاً ، وبيده مصباح نحو مؤخر القطار ، فلاقى رئيس القطار ، فقال :

— يا لها من مصيبة دهماء . . لقد هوى رفيقي مهنّا الوقاد من القاطرة ، وسقط

في الفضاء ، ولا بد انه وقع على جانب الخط في مسافة قريبة منا.

ما سمع الركاب كلام نصار الا تنخى رجالهم ، ونزلوا فانضموا الى عمال القطار ومشوا الى الوراء مفتشين. ولم يلبثوا ان وجدوا على الحضيض ، غير بعيد عن الجسر ، انساناً طريحاً ، مشدوخ الرأس ، مهشم الاضلاع ، فرفعوه فاذا هو الوقاد مهنا ، وقد صار جثة هامدة . فحملوها ووضعوها في احدى غرف حافلات الدرجة الاولى ، وظل بقربه بعض رجال المروءة والشهامة يحرسونه ، بينما كان السائق نصار يحدث بكيفية وقوع الخطب ، قال :

—عند التواء القطار ونزوله سهل البقاع ، كان مهنا قد فتح الاتون وطرح فيه الفحم واغلقه ، منحنياً ؛ ثم انتصب ، ووجهه محمى من وهج النار . ثم انعطف على جانب القاطرة ليراقب حركة سيرها فلفحه الزمهرير فاداخه وصرعه ، وما رأيته الا غاب عن نظري في الظلام.

فارتاع القوم للخبر ، وصدقوا كلام السائق ، وترحموا على الوقاد المسكين ، وتمثلوا بالاقوال التي تخطر على بال العامة في مثل تلك الاحايين ، فقال بعضهم : « نصيبه ! » ؛ وقال غيرهم : « اذا حلّ القدر فلا ينفع الحذر ! » وندبته بعض النساء ممن تذكرن لرؤيته احزانهن وامواتهن .

شعر رئيس القطار بوجوب الوصول الى المعلقة ، فرياق ، في الميعاد المعهود ، فاستحث الناس على دخول الحافلات ، وساعده على ذلك العامل المؤشر التذاكر ؛ وما مضى ربع ساعة الا كان القطار قد قطع المعلقة وحط في رياق. وفي الحال فككت القاطرة التي سقط منها الوقاد وحجز عليها في مستودع خاص.

في دار العدلية

وفي ضحوة ذلك النهار كان مدير الامن العام في مكتبه في بيروت ، لما دعي بالجرس الى القبض على سماعة الهاتف . فاذا بصوت من ادارة سكة حديد دمشق وحماة وملحقاتها ينعي اليه الوقاد مهنا ، احد اهالي قرية وادي المر ، ويفصل له اطوار الحادثة كما ذكرناها.

وما مضت ساعة الا قام المدير وركب سيارته قاصداً الى دار العدلية ،

ودخل على المدعي العام ليتذاكر واياه في بعض الشؤون ، وكاد امر وفاة مهنّا الوقّاد يغيب عن فكره ، لما التقى برجل واقف امام المدعي العام . كان اسم الرجل مراداً ، وهو صاحب المطعم الواقع بالقرب من المحطة في بيروت ؛ وعنده يأكل ، عادةً ، عمال السكة الحديدية ، فيجلسون في حانوته ويتحدثون الى ان تأزف ساعة سفرهم ، فيسافرون . ومراد يسمع عنهم الاخبار ومن جملة ما سمعه اليوم خبر سقوط مهنا من القاطرة ، فرابه الامر ولم يصدق تفاصيل الحادثة ، كما رواها الناس عن السائق نصار . فجاء طالباً مواجهة المدعي العام ، وقال :

— قبل ان يسافر القطار البارحة في نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ، سهر في مطعمي نصار ومهنا ، فاكلا وشربا وتحدثا . ثم ما عتما ان دخلا في جدال عنيف كان موضوعه الانتخابات للمجلس النيابي التي جرت في احدى قواعد الجبل . كان نصار زعيم الناخبين الثانويين المناصرين لحزب السيد انطونيوس ورفاقه ، ومهنا زعيم الحزب المناصر للسيد حبيب ورفاقه . فانكر مهنا على نصار تحزّبه في الانتخابات ، فأدى الجدال الى رمي مهنا رفيقه نصاراً بقبعته على وجهه . فنهض للحال نصار وخرج ، وهو يقول : « لاشربنّ دماك » . قال صاحب المطعم : وغاب الاثنان عن نظري متوغلين في جمهور الركاب وعدد المركبات والسيارات .

فاهتم المدعي العام بالقضية ، واستحضر السائق . وما مضى زمان الا وقف نصار امامه فاستنطقه ، فقال :

— صدق صاحب المطعم فيما رواه . نعم تعشّيت ، وسهرت البارحة في مطعمه مع رفيقي مهنا . وكلانا من ضيعة واحدة ، ورفيقا عمل وكدّ واحد . ولم تكن مجادلتنا غير التي الفنا عقدها كلما جلسنا الى سفرة الطعام والشراب ، وهل يتحدث ابناء قرية واحدة الا بشؤون ضيعتهم ؟ اما كون رفيقي رماني بقبعته فهو لا طائل تحته ، ولم احقد عليه في ذلك ، بل انفقت من كيسي ثمن عشائه وعشائي . فدخلنا المطعم متصافيين ، وخرجنا متصافيين . ولا صحة لشهادة من قال اني توعدت مهنا بشرب دماه !

وكان مراد واقفاً سامعاً للحديث ، فتلظّى غيظاً ، واصرّ على تكرار

شهادته. وتحرج المقام لان الشهادة لا تقوم بواحد... على ان المدعي العام امر بتوقيف نصار، فاوقف.

واخذ رجال التحري يبحثون في كيفية وقوع الحادثة. وكانوا مع تعقّبهم آثارها يتحققون ان مهنا لم يمت حتف انفه، بل قضى ضحية جريمة مدبّرة عن سابق معرفة وتعمّد، دلتهم على ذلك آثار الدم الثابتة في ثياب السائق، وعلى القاطرة، فسألوا عنها نصاراً فقال:

— لما رفعت جثة مهنا، كان الدم يتدفق من رأسه تدفقاً، فتلطخت به يداي وثيابي، وحملت منه القاطرة ما حملت، فظل اثره عليها.

وكان رئيس القطار وكثيرون من المسافرين قد اجمعوا على القول ان صفير القاطرة كان قد سبق اعمال الضابطات في دواليب القطار، وان ذلك الصفير شقّ عنان السماء متهدّجاً، كأنه لهفات المستغيث، او نفسات المحتضر، مما كان ينمّ عن عراك وكفاح حول مفتاح الصفّارة. فسئل نصار عن علاته فقال:

— لما رأيت رفيقي هاوياً في الليل، اقشعرّ بدني، ومددت يدي الى مفتاح الصفارة، واطلقت فيها البخار مروّعاً مرتجفاً، فتهدّج صوتها.

فقال المدعي العام: ولِمَ لم تعمل الضابطات اولاً؟ الم يكن امرها اعجل من الصفير؟

— نعمّ، ولكن سبق السيف العذل، فطيّر لبي، وافقدت رشدي...

وان تلك الجوابات لمقنعة. على ان وراءها سؤالات كانت تولد الغازاً ومشاكل، قال المدعي العام:

— لما دوى صوت الصفير في الفضاء، كان رأس القطار قد بلغ جسر نهر سعدنايل، هذا ما يشهد عليه اثنان من المسافرين كانا يشرفان من النوافذ الى الخارج، فمن المحتم اذن ان يكون مهنا قد وقع قبل الجسر، بما انه هوى قبل صفير القاطرة. ولكن لم يعثروا عليه الا بعد الجسر بئات من الامتار، وغير بعيد عن موضع وقوف القطار بين الجسر ومحطة سعدنايل.

فقال نصار: لعلّ مهنا، عند سقوطه من القاطرة، علق بيد من ايديها الحديدية، او بناب من الانياب الشاكية بها الماكنات البخارية، فسحب على

مسافة ما ، وسقط فتهشم .

فلم يقتنع المدعي العام بالجواب ، لكنه لم يرفضه بتاتاً .

وشرّح الاطباء الجثة ، بعد يومين من وقوع الحادثة ، فاسفر التشريح عن ثلاثة اضلاع مكسرة ، وعن تجوّف في اسفل الرأس ، كانه موقع مطرقة مربعة قوية . فبلغوا نتيجة عملهم رجال التحري ، فسافر هؤلاء وفتشوا عن الآلات الموضوعة في القاطرة المشؤومة ، فلم يعثروا فيها على ما يزيدهم علماً في الامر الواقع . لكنهم افتقدوا المطرقة المستعملة لتهشيم الفحم الحجري فلم يجدوها .

فرابهم الامر ولم يجرأ نصار على اتهام سارق بسرقتها ، لان القاطرة باتت تحت المراقبة الشديدة منذ قدومها الاخير الى رياق . وكان ولا بد لنصار من حلّ المشكل المولد من فقدانها ، فقال :

— قد يكون مهنّا قبض عليها ، وهو منحن الى الخارج قبيل سقوطه ، فافلتت من يديه ووقعت بين الدواليب فتحطمت وباد اثرها .

فمضوا وبحثوا عن بواقي المطرقة على المسافة التي وقعت فيها الكارثة ، فلم يقفوا لها على اثر ، ورأوا من الراجح ان نصارًا اخفى الآلة المؤدية الى الكشف عن الحقيقة . وفتحوا موقد القاطرة وبحثوا في الرماد ، فوجدوا حديدة محروقة . فقال المدعي العام تلك هي المطرقة . ولعله اصاب في قوله . لكن البرهان على صدقه لم يكن جليًا واضحاً .

في محكمة الجنايات

وتناولت الصحافة القضية وذهبت مذاهبها في تعليلها . فشاع امرها في البلاد . وما مضت ايام على وقوع الفجيعة الا عُدت من القضايا الجنائية ورفعت الى الحكومة . فالتأمت في دار المدلية هيأة القضاء .

واكتظ المجلس بالحاضرين من حكام ، ومحلّفين ، ومحامين ، وشهود ، ورجال شرطة ، ومتفرجين ، وغيرهم .

وكان نصار ومهنّا كلاهما من ذوي المكانة والشأن في بلدتها . وبلدتها

من اهم قرى الجبل عدد سكان، وموقعاً، وموارد؛ زينتها الطبيعة بمزايا بديعة جمعت فيها محاسن قرى كثيرة: فهي تشرف من الاعالي على البحار، وتباهي بانواع الاشجار من صنوبر وتفاح وكرز ومشمش، وتكتسي بالكرمة، وتترصع بعناقيد عنبها العسجدي، وتطارب لخرير مياه تنصب ليل نهار وتشحن بانحدارها من القوى ما يكفي لتوليد تيارات كهربائية قمينة بتنوير المدن وتشغيل المعامل.

وان هذه المزايا تجعل بلدة الرجلين جنة عدن وحقيقة بان تدعى « وادي النعيم »، لولا الغيوم السوداء المخيمة عليها، المعكرة صفاء جوها، الذاهبة برونقها وبيانها، المهددة بالرعد والزوابع والدمار؛ وما تلك الغيوم، في الحقيقة، الا انقسام الاهلين ومعاداتهم بعضهم لبعض. ولذلك دعيت قريتهم « وادي المر ».

روى شيوخهم ان ذلك الانقسام عريق في القدم، سابق لقدوم آل نصار ومهنا الى تلك الديار. وحدثوا في تلك البلدة عن ايام سبقت العهد الهجري والفتح العربي، انه كان فيها حزبان يتقاتلان على الزعامة وعلى ضبط موارد الرزق وكان الحزبان يتخذان من الحروب الناشبة آنذاك بين الفرس والبيزنطيين والملتحمة وقائعها في سورية ولبنان، فرصة يتحيز فيها كل منها ظاهراً الى دولة من الدولتين الكبيرتين، وكانا في الواقع يتسلحان احدهما على خصمه، وهما في جوار قريب ومنطقة واحدة. وتتابعت الايام على تلك الحالة ولم تغيرها. وحدث جلاء شعوب عن البلاد وقدوم غيرها اليها. وابدلت القرى سكانها بغيرهم، ولم تبدل باخلاقهم ونزعاتهم. وحلت فيها اسرتا نصار ومهنا، فاصطبغت كل اسرة بلون من الوان البدع الدينية التي نشأت في القرن الخامس والسادس الميلادي. ولم يصلح الفتح العربي ذات البين بين الفريقين، بل ساعد على التفريق التام بينها اذ جعل لكل فريق امتيازات خاصة فقسمتهم الى طائفتين. ومضت الايام وانقرضت الاعوام والعصور، وتطور الزمان، وحالة القرية لم تتغير. وأدّى أمر ذلك الانقسام المزمن الى ازمة اشتدت وطأتها في السنين الاخيرة حتى بلغت الى الحد الذي وصلنا اليه، وامامنا قتيل مختبط بدمائه.

كل يعلم ما كان من امر الانتخابات النيابية التي اجرتها الحكومة اللبنانية سنة ١٩٢٥ ، حيث اشترى المرشحون اصوات ناخبيهم بالاصفر الرنان. فالذين فازوا بالانتخاب تسنى لهم ان يستعيضوا ، عن نفقاتهم ، فيما هم يتربعون في دست النيابة. اما المنخذلون فمادوا يحرقون الارم ويحفظون حنقهم وصدورهم تخفق فيها مراجل البغضاء ، فتنتفخ وتتورم الى ان تمسها شرارة فتفرقع وتدفع الى ارتكاب الجرائم تشفياً وانتقاماً.

وكان مهنّا زعيم حزبه ، في وادي المرّ ، ورئيس الناخبين الثانويين . فسار على رأس قومه يوم الانتخاب ، وكان ذلق اللسان فصيحاً شاعرًا ، فجعل يلقي الاقوال ويقول الاشعار . وكانت الاغاني تزيد في هيجان الناس وتثير منهم عواطف الانتقام . وان ننسَ لا ننسَ ما بلغ مسامعنا من ادوار ذلك الغناء ، والجمهور المتدفق تدفق المياه الجرارة في الشوارع يرفع على الاكتاف زعيمه وهو ينشد الشعر العامي والناس تردّ عليه باللازمة :

يا مهنّا لا تهتم نحن زلمك نشرب دم

وكان بعض المتفرّجين يبتسمون لدى تلك المشاهد ويطربون لتلك الاناشيد. لكن امرها لم ينتهِ بالسلام . لان المعركة الانتخابية اسفرت عن مناوشات وجرحى وقتلى في بعض القرى . اما في قرية وادي المر فهدأت نارها وخمدت تحت الرماد الى ان وقعت الفجيعة التي ذكرناها.

واتهم آل مهنّا نصارًا بالقتل ، ورفعوا شكواهم الى الحكومة . وقام آل نصار فارتقبوا المحامين للدفاع عن ابنهم . وانقلب مجلس الحكومة ساحة معركة يسفر امرها لا عن معرفة البريء من المجرم ، ولكن عن تفوّق حزب على حزب ، وأسرة على أسرة ، وطائفة على طائفة.

على انه كان في مصاف الحكام رجل ذو فطنة واستقامة ومقدرة اسمه السيد ابراهيم . ولم يكن من المتوظفين في القضاء ، لكنه دعي الى حضور الدعوى ليبدي فيها رأيه ، ويكون مرشدًا حكيماً يهتدي به القضاة الى الحكم بالعدل والاستقامة.

وكان ابراهيم يقف على تفاصيل القضية ويرجح في قلبه ان نصارًا جانياً

قاتلًا ، لكنه لم يقتل عن تعمد ، ولكن زيغانًا وتهورًا !

وكان يعتبر نصارًا ، على ما سمعه عنه ، كالانسان الذي سماه الرومان في اصطلاحهم الحقوقي *impotens* ، او العاجز ، اي الغير متمتع بكامل قواه ، الواجب نبذه من المجتمع البشري لانه لا يستطيع ضبط النفس عن اهوائها الامارة بالسوء .

جلس ابراهيم في مقدمة المحلفين من اعضاء المحكمة واتوا بالمتهم ، فما القى عليه نظره الا تغيرت سرائره وتبددت غيوم الهواجس من قلبه . اول ما وقف نصار بين يدي الحكام ، ادهشهم برباطة جأشه وهدوءه المجرد من كل غطرسة وعجرفة . كانت اماراته امارات انسان حسن الخَلق والخُلق ، ذكي ، نظيف ، هادئ ، رزين . امن الممكن ان يكون ضميره مثقلًا بالجريمة ؟

اختلف الشهود على المحكمة سحابة يومين ، واجمعت شهاداتهم على تأييد الادلة التي رفعها اليها المستنطق ، وحاول الاستاذ خطار الخليل ، المحامي عن نصار ، ان يرمي الشبهة على صدق مراد ، صاحب المطعم ، ليكذب شهادته . فلم ينجح في جذب المجلس الى رأيه .

ومن البديهي ان المرء لا يكذب ان كذب الا لداعٍ ما . ولا داعي يدفع صاحب المطعم الى الشهادة بالزور ، وهو مع ذلك يصر معلنًا على اعلانه على رؤوس الملأ انه سمع نصارًا يتهدد مهنا « بشرب دماه » . وهذا الاصرار في الاثبات لا مفسر له سوى ان مرادًا يشهد بما سمعه ويبديه بلا زيادة ولا نقصان . وقد اعاد شهادته مرارًا وايدها بالأيمان المحرّجة .

وثقلت وطأة الساعة على القضاة في جوٍ مسموم بانفاس مئات الحاضرين المحتشدين في قاعة الحكم ، وتكهرب الجو وتلعثمت الالسنة في الافواه وضاقت الصدور وتوترت الاعصاب . وكان الحضور في القاعة متحمسين كل لحزبه ، فتظاهروا بالضجيج والصخب حتى الجأوا رئيس المحكمة الى رفع الجلسة مرتين . وكان على المحلفين ان ينظروا في تلك المعمعة الى القضية بعين صافية ، والقضية مبهمة غامضة وقد غشتها خطابات المحامين ومغالطهم بظلام حجب حقائقها عن البصيرة .

وكانت الساعة رهيبةً امام الله وامــام البشر . وليست هي للمناظرات والتفكير ، بل للحكم والقضاء والتدبير . وكانت القضيــة مبسوطة امام المجلس على هذه الصورة :

ان التهمة الواقعة على نصار مثبتة بادلة راهنة وثيقة ، ولكن دونها موانع ادبية راجحة . لقد شهدوا على نصار بالاستبداد برأيه والمطــالبة بحقوقه بعنف وشراسة . وقالوا ان له سوابق في بلــدته حيث لا يقف بوجهه خصم ولا معارض . ولكن ، أيتخذ من ذلك سبب كافٍ لتأثيمه ؟ امن المعقول ان يتخذ الرجل من جدال بسيط في قضية انتخابات قروية داعياً للحقد والنقمة واقتــل رفيقه اغتيالًا عن تصميم وتعمد ، بطرقة الحديد ، وهو على ذلــك يخترع الاختراعات الكاذبة ازالة للشبهة عن نفسه بحكاية مستغربة يقصها على الناس ؟ كلها ان تلك الحكاية ليست مختلقة بل واقعية . والا فهل من الممكن ان يحفظ نصار هدوءه ورباطة جأشه وصفاء سريرته الدالة عليها اماراته الوضاحة ؟ فضلًا عن انه لم يتردد بكلامه البتة ، ولم يبدِ كلمةً واحدةً مغالطــة لما سبق من كلامه عن براءته .

وكانت افكار الحكام تتقلب على احرّ من جمر بين الشك واليقين . كيف لا ؟ وعار عليهم ان يحكموا لنصــار او عليه ، وهم على غير يقين من معرفة الحقيقة .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وان بزعة الحاكم نحو الوطن ، ان هو برأ المذنب ليست دونها تعــلّا ان حكم على البري . وكم من قاضٍ في مثل تلك الساعة يفضــل لو اتيح له ان يبقى بمعزل عن تلك المسؤولية ، مرتاحاً في خلايا مكتبــه ، عاكفاً على الدروس والمطالعة في عالم النظريات ! حقًا ان حمل القضاء لثقيــل على البشر ، ومقامهم مقام الديان بين الناس . ومع ذلك فالقضاء واجب لازب ، والعــدل اساس الملك والعمران !

تأمل السيد ابراهيم حراجة الحالة وقال :

— هناك مغمضات يجب الجلاء عنها فاسأل المحكمة المحترمة اعادة النظر في

الحجج والبينات عى ان نبلغ كامل التحقيق فلا يبقى مجال للريبة في كيفية ارتكاب الجريمة.

وكان السيد ابرهيم يرى ان تعلُق الجثة بالقاطرة على مسافة مئات الامتار قبل سقوطها امر مستحيل . لكنه ابى الا ان يدعم رأيه بعلة راهنة فركب وسائر المحلّفين سيارة اقلتهم على جناح السرعة ، من بيروت على طريق الشام ، الى اعالي لبنان ، الى رياق ، حيث ملتقى الخطوط الحديدية ، ودخلوا المستودع الذي حجزت فيه القاطرة ، فتفقدوا شؤونها وتحققوا ان الوقّاد عند سقوطه منها لم يعقه عائق ، بل هبط توًا الى الحضيض ، واجمعوا على ان نصارًا لم يصدق فيما قاله عن تعلق مهنا بشائكات القاطرة.

وطلب السيد ابراهيم معاينة قطعة الحديد المحترقة التي كشف عليهما في الرماد ، فوضعت في الميزان ، فقدر وزنها مقدار وزن الآلة المستعملة في الشركة ، والمطارق المستعملة في تهشيم الفحم كلها على طراز واحد . فعادت اذًا لجنة القضاء الى بيروت ، وهي على يقين ان نصارًا قاتل.

او لا يكون بريئاً ؟

عقدت المحكمة جلسة جديدة ، ووقف المدعي العام ساردًا تفاصيل الجريمة ، وسأل القضاة القسط في الحكم ، واليك ملخص خطابه:

نصار رجل عنيد ، متكبر ، حقود . خرج من معمعة الانتخابات في الصيف الماضي ، ومراجل البغضاء تغلي في قلبه ، فضغط عليها وصبر . وصار ينظر الى مهنا شزرًا نظره لعدوه الشخصي الذي سلبه نفوذه وجاهه في بلدته ، متذكرًا الحزازات القديمة التي قسمت بين آل نصار وآل مهنا . ولم يسبر مهنا المسكين غور البغضاء المحفوظة عليه في قلب خصمه ، ولم يذكر قول الشاعر :

اذا كان في صدر ابن عمك احنة   فلا تستثرها ، سوف يبدو دفينها ،

فاثارها ، ورمى بقبعته نصارًا بينا كانا على العشاء في المطعم . فتركت الاهانة في صدر نصار نيران الحقد . فسكت على ان يستنسخ الفرصة في حينها فيشفي غليله . وها ان الساعة دقت ، وكلاهما على القاطرة في الليل الدامس ،

والقطار يتسرب ويتلوّى كالافعى في سهول البقاع . وفتح الوقاد باب الاتون ، وانحنى ليقحم فيه الفحم ، وتناول عن المطرقة . فقبض عليها نصار ورفعها واسقطها من اعالي رأسه على مؤخر جمجمة رفيقه فشدخوا . ولم تكن تلك الضربة لتقضي على مهنا ، وهو جباري البنية قويّ الاضلاع ، فانتصب وحاول القبض على مفتاح الصفير . فمدّ اليه يده ومسّه ، فتحرك وسُمع صوت الصفير ، ثم تقطع لان نصارًا حال دون انطلاقه . وحدث عراك . وما هي هنيهة ألا سقط الوقاد مصروعاً . فطرحه رفيقه السائق خارج القاطرة ودسّ المطرقة في الاتون ، وهي الشاهد الوحيد على الجريمة . ثم اعمل الضوابط في القطار ، ومسح يديه الداميتين ، واخذ مصباحه ومضى في طريقه يلاقي رئيس القطار الذي اتى لمقابلته . فارتكب اذن نصار الجريمة عن سابق علم وتعمّد.

ووقف رجلان للدفاع وهما الاستاذ رشيد ابو يوسف والاستاذ خطار الخليل ودعم الاول خطابه بأن حجة الخصوم واهية . وقال ان بيناتها لمن يحدق اليها اجمالًا تظهر كانها الجبال الراسيات . امـا حقيقتها لمن يتبصر بها واحدةً واحدة فهي اوهى من خيط العنكبوت.

ثم اردف : «وما عسى ان تكون تلك البينات ?

«شهد صاحب المطعم ، وشهادته مردودة لانها صادرة عن رجل فرد ؛ فضلًا عن ان الشاهد من المدمنين على شرب الخمرة ، وهو ممن لا يعوّل على كلامهم . اما الدماء الثابتة آثارها على ثياب نصار ، وعلى اطراف القاطرة ، فعلاتها انها انتقلت من ايدي نصار بعد حمله رفيقه المهشم الرأس . ولا حجة على نصار تكون جثة مهنا-سقطت بعد الجسر ، وقد يكون المقتول قبل سقوطه قد تشبّث باليد الحديدية الملتصقة بجانب القاطرة . فتعلق في الفضاء بضع ثوان ، ثم هبط بعد مئتين او ثلثمئة متر عن المكان الذي هوى منه.

« اما المطرقة الحديدية فلا يبعد عن العقل ان يكون الوقّاد طرحها سهوًا في الاتون مع الفحم.

« أمن العدل اذن ، والحالة هذه ، ان يتخذ القضاة من تلك البينات حجة دامغة ، والبينات باطلة اساساً ، وتفسيرها عن غير طريق الجريمة معقول مقبول.

وختم المحامي الاول دفاعه قائلاً : « لا اسألكم العفو عن نصار ، ايها السادة ، ولكن اسألكم الفطنة . فاذا قضيتم فاقضوا عن برهان وعن يقين.»

ووقف الاستاذ الخليل ، وهو المحامي الثاني ، وتناول القضية من وجوهها الادبية . وكان لسناً فصيحاً يؤاتيه الكلام ، فيستميل القلوب النافرة ، ويرد الاهواء الشاردة ، وكان اختصاصياً بالقضايا الجنائية يتخذ منبر الخطابة سلماً يتسلق به سماء الزهو والعجرفة ؛ فيحل كلامه من قلوب العامة محلاً رفيعاً . اما الخاصة فقد تعرض عنه ، لانها تأبى ان تقتنع الا بالبراهين الصادقة ، اما المغالطات والسفسطات فتثير استهجانها واشمئزازها .

حاول المحامي الاول الاستاذ رشيد ابو يوسف التبيان أن بينات الجريمة لم تتحقق مادياً . اما الاستاذ الخليل فتخطى الى ابعد من ذلك ، واخذ يبرهن عن عدم امكان وقوع الجريمة ادبياً . وخلاصة كلامه أن نصاراً رجل دين ، ابو عائلة صالحة ، وله سنون عديدة عاملاً في شركة السكة الحديدية ، ولم تلحق به شائبة قط . وهو وكيل كنيسة قريته ، ويمثل طائفته في الانتخابات ، فهو اعلى مكانة من ان يتنازل الى ارتكاب الجريمة الفظيعة المتهم بها قال :

« كلا ، ثم كلا ! لا يتحول الحمل الى وحش ضار بلمحة العين . لا عاقل يصدق هذه الاكاذيب ، ولن يصدقها احد . والحقيقة هي ان البغض الدافع الطائفة المعادية لطائفة نصار والحزب المقاوم لحزبه ، هو الداعي الحقيقي لالقاء الشبهة عليه . وليس الخصام ، في ساعتنا هذه ، بين شخص وشخص ؛ انما هو بين طائفة وطائفة ، وسياسة وسياسة ، واسرة واسرة . وان يكن نصار مذنباً ، فذنبه لا لكونه قتل مهنا ، ولكن لكونه فاز بالانتخابات ، ورفع لواء قومه ، ونكس اعلام حزب مهنا .»

وكان بهو المحكمة مكتظاً بالسامعين من ذوي نصار واقربائه ، فانطلقوا بالتصفيق والاستحسان لما سمعوا المحامي يتكلم بفصاحته المعهودة . وكان قوم من الناس واقفين خارج المحكمة مزدحمين على ابوابها ، لم يجدوا مجالاً الى دخولها ، فظاهروا وصفقوا من الخارج لما بلغهم صدى كلام الاستاذ الخليل . واتخذ هذا من المظاهرة فرصة للتصرف باهواء العامة طبقاً لمرامه فقال للقضاة :

«ان انتم حكمتم على نصار ظلمتموه. واعلموا ان الشعب اعلنه بريئاً، وانما صوت الشعب صوت الله.»

فدوى المجلس بتصفيق العامة، ونهض الرئيس وخرج، وتبعه الاعضاء للمذاكرة، وكانوا اثني عشر، عليهم العمدة في تقرير الحكم وكان السؤال مطروحاً عليهم كما يلي:

«هل قتل نصار مهناً ام لا؟»

فانقسموا في الجواب: ثلاثة منهم قالوا نعم، واربعة قالوا لا، والباقون امتنعوا عن التصويت. واخذوا بالمذاكرة الشرعية. فتكلم فيهم السيد ابراهيم وقال:

لا يغرنكم سادتي، ما سمعتموه من اقوال الاستاذ الخليل، وهو لا يليق بمجلس مسؤول عن نظام البلاد وحياة العباد. لقد كان خالجني الريب لما سمعت دفاع الاستاذ رشيد ابي يوسف، وصرت اتردد في واجب الحكم على نصار. ولكن لما تدفق الاستاذ الخليل كالتيار الجارف مهيجاً اهواء الرعاع مغتصباً ضمائر القضاة، مهولاً اياهم بسخط الشعب عليهم ان لم يبرزوا القاتل، اشعرت بوهن حجته. ان القلوب المستقيمة تأبى الرضى بالكذب والبهتان. وقد يكون من الجنون ان نعفو عن المذنب الاثيم تصدية لصوت المحامي المطرب ولفصاحته الرنانة. لا لا ان لسان الحال يشهد للحقيقة. لقد وقعت جريمة فظيعة فلا بد من عقاب مقترفها. وليس للنزعات الطائفية في القضية ناقة ولا جمل.

أثر كلام السيد ابراهيم في قلوب الاعضاء المحلفين، وجذب الى رأيه اصوات المترددين في حكمهم فاسفرت المذاكرة عن تأثيم نصار بسبعة اصوات ضد خمسة. وعادت هيئة القضاة الى المجلس فوقف السيد ابراهيم واسترعى الاسماع ولفظ الحكم. وعقب اصدار الحكم هدوء كانه السابق الزوبعة، فزاد في هيبة المقام. ولم يتله انفجار ولا تظاهر بل سكوت وجمود، كسكوت المقابر وجمود الليل. وخيل للسامعين انهم يسمعون صوت وخز الضمير ينخر النفوس. وانتصب نصار، والتقى نظره بنظر السيد ابراهيم، فلم ينكس البصر، وقال برباطة جأش وثبات:

— لقد حكمت عليَّ ظلماً . وانك لفي ضلال . والله العظيم ، اني بريء ، وولدي غير حقيق بان يدعى ابن القاتل !

ثم شهق وانقطع صوته بالنحيب ، فهبط على كرسيه مغرقاً بالدموع .

وانحل المجلس ، وصرف رجال الدرك الجماعة . وعاد القضاة كل منهم الى بيته وآله . ودخل السيد ابراهيم مخدعه واجماً ، اليم الفؤاد ، وقد ساورته الشكوك ، وتوزعته الفكر . وحاول الرقاد فهجره فتمثل بقول بشر

فبتُّ مسهّداً أرقاً كأني   تمشّت في مفاصلي العُقار

ويل للظالمين !

ومضى على الحكم اربعة ايام تناوبت فيها نفس السيد ابراهيم ساعات الانحطاط والهواجس ، ولم تفارق مخيلته صورة نصار ، لما وقف في المحكمة متظلماً ، محدّداً اليه نظره ، ملقياً عليه تبعة الحكم الجائر ، ومنادياً ببراءته على رؤوس الملا .

تكلم ، وكان في كلامه لهجة الصدق والاستقامة . فتصدت له جوانح السيد ابراهيم ، واضطربت . وصار اذا اعاد في ذاكرته تفاصيل الحادثة ، اعتراه الوسواس ، ودفعه الى الريبة في عدالة الحكم الذي اصدره . وقال في نفسه : لقد اشعرت ببراءة الرجل وربما كنت برأته لولا سماعي مدافعة الاستاذ الخليل التي اثارت فيَّ اشمئزازاً ونقمة تحولت بدافع رد الفعل الى قساوة في القضاء . ولم يتمالك نفسه ان مضى قاصداً صديقه الاستاذ رشيد ابا يوسف المحامي . فبادره الاستاذ وقال :

— اراك مكتئباً حزيناً شاحب الوجه كانك سهرت الليالي .

فقال السيد ابراهيم : صدقت . وهمي العظيم كوني جرمت رجلاً بريئاً .

— الراجح عندي انه مجرم !

— ومع ذلك ، فقد دافعتَ عنه . اذن انك امي ضلال ؟

— عزيزي ، فاتك ان واجب حرفتي يربط لساني عن الكلام لو ان نصاراً اسرَّ اليَّ بذنبه ، لحفظته في دفائن قلبي عنك وعن اي خليقة كانت . ولكن ،

في الحقيقة ، لا اعرف عن الحادثة غير ما تعرفه . واما مدافعتي عن نصار فقد قضى بها الواجب وقت بها كما علمت . وعلى كل الاحوال ان يكن هذا الرجل قد ارتكب الجناية فانه لداهية من الدواهي . لانه في مختلف المواقف ، لم يبدِ علامة وهن ، ولم يلفظ لفظة واحدة دالة على مواربته وكتمانه وخداعه . فقد يمثل دور البريء وهو اثيم ، على اتم الحذاقة والفن . فاطرح عنك الهموم والهواجس . فان تبرير المرء نفسه لا يقيم حجة وبيّنة له . وانا ، الذي دافعت عنه بالامس ، اعترف لك اليوم ان حجتي كانت واهية .

— ولكن انا . . . انا المسؤول عن اصدار حكم الاعدام وقد دفعت اليه زملائي اثناء المذاكرة .

— لم احضر المذاكرة ، ولكن لا اتردد في القول انك المسؤول عن قرارها النهائي .

— اذًا انا المذنب ؟

— مذنب ؟ كلا ثم كلا . لقد امرك ضميرك فطاوعته فحسب . وقد يضلّ الضمير ولا جُنحة عليه ، ان صدر الضلال عن نية صالحة . اما انت فقد حكمت طبقًا لما رأيته اقرب الى الحقيقة .

— وهل كنتَ تحكم بغير الحكم الذي اصدرتهُ ، او كنت في مكاني ؟

فسكت الاستاذ رشيد ابو يوسف كأنه حائر في امره . ثم قال :

— لا شاهدَ في القضية الا رجل واحد ، فشهادته مردودة ، وقد ردها المتهم وانكرها بعزم وشدة . والرأي الارجح عندي هو ان يطلق سراحه .

فزاد هذا الكلام في اضطراب السيد ابراهيم وسكت . فقال المحامي :

— لم تفت الفرصة فترجع عن تدارك الاول . وبلغني ان الاستاذ الخليل يحاول ان ينال عفو رئيس الجمهورية عن المحكوم عليه ، فأيذن لي بعرض امر وسواسك وندمك على الحكم الذي اصدرته ، وانا قمين بان نصارًا ينال العفو .

كاد السيد ابراهيم يقبل بالنصيحة . ولعل غيره ممن هو اقل استقامة منه كان قد طرح عنه ذلك الهم وقال في نفسه : ما لي وهذه الهواجس . مات مهنًا فلن يعود الى الحياة ، أَجرَمَ نصارٌ او لم يُجرِم . ولكن القاضي العادل فكر في نفسه وقال : لا يحق لي ان اطلق سراح نصار ، على ما ثبت عليه

من ادلة الجريمة دون ان اتيقن انه بريءٌ منها . والا فذنبي نحو البلاد جريمة جديدة . والتفت الى المحامي وقال :

— لا . اصبر عليَّ ثلاثة ايام .

ومضى كل منهما الى شأنه .

وعند المساء زار السيد ابراهيم رئيس المحكمة ، وعرض عليه اسباب اضطرابه وبلباله . فتعجب الرئيس وقال :

— ما عسى ان يكون قد جد منذ البارحة حتى غيرت افكارك ؟ هل انت يا ترى مخدوع بما قاله نصار تبريراً لنفسه ؟ ايخفى عليك ان شرَّ المذنبين في الغالب لا يقرّون بذنبهم امام الحكام . وهم يتظلمون دوماً من جور المحاكم ، ويعلنون براءتهم . ولكنهم كذابون منافقون .

— اني اقرّ لك يا سيدي الرئيس ان صدق لهجة المتهم قد أثرت فيَّ كل التأثير .

— لقد مثّل دوره بحذاقة عجيبة . انما هذه خزعبلات وخدع لا ينغش بها من قضى سنوات في مهنة القضاء .

— لقد حصحص لك الحق المبين ، وثبت لك ان هذا الرجل قاتل اثيم ؟

— لا اشكّ في اثمه . والحكم في امره عادل . واني لاهنئك على شجاعتك في اصدار الحكم . لو ان لجان القضاء جمعاء تتصرف في المحاكم تصرفك في اللجنة التي ترأستها ، لكان الامن مخيماً على البلاد ، من اقصاها الى اقصاها .

— ان كلامك سيدي لا يهدئ وخز ضميري . ايذن لي ان استرد حكمي الذي اصدرته .

فاهتز الرئيس لهذا الكلام وقال : اياك ثم اياك . . . والا فضحت الحكومة عند الناس ، فيعيروننا بالجبن ، والخوف من تهددات جماعة مهنا وطائفته .

— سيدي الرئيس ان امر الطائفية والسياسة لا دخل له في الحالة الحاضرة . وما احرانا بان ننسى اقوال الاستاذ الخليل ، ودعاءه الذميم باسم الطائفية . فلا نكون لها ولا عليها . ان محور القضية يدور على حياة هذا الرجل وشرفه ، فاسمح لي بمراجعة اوراق دعواه كلها . فسوف ابحث فيها وحدي على عزلة وهدوء ، فاكون على بصيرة كاملة من الحقيقة ، وسوف اوافيك بقراري بعد ثلاثة ايام .

وخرج الاستاذ . وفي اليوم التالي اخذ الاوراق وراجعها من سطرها الاول الى الاخير . فاطمأن باله لقراءتها ، لان حوادثها المتسلسلة كانت تجرّ حقيقة الجريمة ، كما تجرّ المقدمات النتائج . ولاحظ ، في اطلاعه على حياة نصار ، ما لم يفطن اليه احد قبله ، وهو ان الرجل كان ابن تاجر سكير مات انتحاراً في المهجر . فورث ابنه عنه عاهاته فتأصلت فيه الملكات الذميمة وكانت تشتد وطأتها عليه . حتى انها كانت تفقده رشده وتدفعه الى شر الاعمال . وهي التي ادّت به الى اغتيال رفيقه . ولعل الرجل الفاقد اللب غير مسؤول عن اعماله تماماً ، تجاه ضميره . اما تجاه الحكام وتجاه البشر فلا بد ان يجازى بالقصاص الذي استحقه ويُطرح خارج المجتمع فيُنبذ منه نبذ النواة.

فقر من ثمّ قرار السيد ابراهيم على ان يترك القضاء ينفذ الحكم فتجري المياه في مجاريها . وحاول الاستاذ الخليل طلب العفو من رئيس الجمهورية . ولعل ابراهيم كان يتمنى صدور ذلك العفو فتنتهي المأساة بفصل يردّ نصاراً الى سلامة الحياة ، وضميره الى الراحة والسكينة ، وقد امسى في حالة شقاء نفسية لم تفارقه منذ اخذ على عاتقه البتّ في القضية.

وما مضت ايام الا شاع الخبر ان رئيس الجمهورية رفض العفو . وكانت في اثنائها قد تعددت الجرائم في البلاد فكان لا بد من القاء الرهبة في قلوب الناس . فحكم المجلس بالاعدام على نصار لقتله مهنا تعمداً ، وظهر بلاغ العدلية في الصحافة معيّناً اعدام نصار شنقاً في اليوم التالي.

حيث دودهم لا يموت !

كان السيد ابراهيم مقتنعاً بان نصاراً قاتل مهنا ، ومتيقناً انه لا سبيل لاعادة النظر في الدعوى . ومع ذلك كانت الهواجس تقتحم نفسه لان في حياة ابن آدم الفكرية طبقتين : طبقة اليقين التي يرتاح فيها البال الى ما يراه معقولاً بذاته متفقاً منطقياً مع القرائن اتفاق النتائج مع المقدمات . وطبقة ثانية هي طبقة الخيال والشعور تداهم الانسان عن ضعف في مزاجه ، اذا ما افرط في اجهاد النفس قياماً بعمل خطير او حذراً من شر عتيد . وكان الوسواس الذي اعترى نفس السيد ابراهيم منذ اصداره الحكم على نصار يمثل في مخيلته ذلك

الرجل الشاب القوي المـادئ يناديه بصوت اليأس والتظلم : انا بري ! انا بري ! وكان ذلك الصوت ينساب في صدر السيـد ابراهيم كانه دود الضمير الناخر . عبثاً حاول ان يخنق انينه في السهرات يقضيها في المتنزهات ، تارة في بيروت على شاطئ البحر ، وطوراً في مصايف الجبل.

كان اذا ما نظر الى الحالة بعين البصيرة ، رأى الخيال يتلاشى . واذا ما اطلق السراح لمخيلته القوية تمثل بفكره شبح السائق نصّار واقفاً امامـه ملقياً نظره عليه بحدة تخترق الصدور ، قائلاً : انا بري.

وكان التناقض بين الحالتين في نفس السيـد ابراهيم مما حطّ من قواه واسقطه في اعتبار نفسه . فكان يقول في نفسه : اقاموني حاكماً على الناس ، ولست قادراً على الحكم بصواب ويقين . قد طـالما قضيت ايامي بتمرين الفكر على الاصابة ، وها انا رميت سهمي فطاش . ومنذ صدر الحكم على نصار ، كان السيد ابراهيم قد التقى بعضوين من الاعضاء الذين صوتوا في لجنة المحلفين وكان احدهما قد حكم بتبرير نصار فسأله رأيه، وهما على انفراد فاجاب:

— قد خطر على بالي ان نصاراً مجرم. ولكن كم من مرة ضلّ الحكام في حكمهم وجاروا . ففضلت ان لا الطخ يدي بدماء المتهم.

اما العضو الثاني فلما سأله ابراهيم عن امر سبب تجريمه نصاراً قال :

— انه قاتل ، والقاتل يستحق القتل ، وان لم ينفذ فيه الحكم ، اكلت الناس بعضها بعضاً كالوحوش الضواري.

وكان كلا الرجلين قد نظرا كل واحد الى طرف من اطراف القضيـة ، فادى بها نظرهما الى نتيجتين متناقضتين.

وبلغ السيد ابراهيم انهم في الغد يعدمون نصاراً في ساحة العدليـة . فآلى على نفسه ان يبذل غاية الجهد لعله يصل الى الوقوف على الحقيقة بتمامها، من فم القاتل نفسه . فقصد الاستاذ رشيداً ابا يوسف وقال له :

— ايمكنني ان ازور نصاراً .

— وما عسى ان تفيدك زيارته ، فانه لن يبوح بسره !

— اني اسألك ان تساعدني على الوصول اليه.

— لا بد من ان تراه ؟ اذن كن على باب سجن الرمل اليوم ، في الساعة الثامنة مساء .

في سجن الرمل

وما ازفت الساعة الا وقفت سيارة امام باب السجن ، فنزل السيد ابراهيم . وكان هناك الاستاذ رشيد ابو يوسف بانتظاره . فكلم علي افندي مدير السجون . وامر المدير فحضر السجان وبيده المفاتيح ، وسمع اوامر المدير . تمشى وتبعه المحامي والسيد ابراهيم فاجتازوا اولاً دهليزاً بنيت على جانبيه غرف الحراس وبيوت المطابخ . وها هم في صحن الدار ، وهي مطوقة بسور عالٍ واسع ، والمساكن فيها مبنية على طراز منظم يساعد على ضبط مرافق السجن . هناك بنايات تتفرع على شكل اصابع اليد الخمس اذا تبسطت . كل بناية طولها يزاهي الثلاثين او الاربعين متراً ، وهي عبارة عن دهليز ضيق طويل تمتد على جانبيه المساكن على اختلاف انواعها من قاعة كبيرة تسع زهاء الاربعين سجيناً ، وتسمى القاعة « قاووقاً » اصطلاحاً عن زمن الاتراك . وهناك غرف صغيرة يقيم فيها السجناء وحدهم ، او برفقة رفيق واحد ، وهم في منعة من مخالطة الناس ، وكل غرفة من هذه الغرف تسمى «زرداناً» .

وفي دار السجون بناية خص جناحها الشمالي بالمرضى ، وجناحها الجنوبي بمن اقترفوا جريمة كبيرة ، وهناك مقام المحكوم عليهم بالاعدام .

الى ذلك الجناح مضى السجان فوقف امام شبكة الحديد ، ودعا اليه الموظف المقيم في الداخل ، حارساً ابواب غرف المجرمين . فسأله هل الاغلال داخلاً محكمة القفل كلها . فقال :

— لا خطر عليكم تفضلوا .

وكان الظلام قد انتشر في الدهاليز ووضعت قناديل في زوايا المكان هداية للسائر في الليل . وكانت رائحة الجدران الرطبة المملحة تهب على الداخل ذلك المكان المظلم ، فيخالها بخاراً متصاعداً من قدر غلي فيه الماء والصابون لغسيل الثياب القذرة . ووقف الحارس امام باب غرفة قد ثقب نصفه الاعلى بطاقة مساحتها مساحة الرغيف الصغير . وربما ضيقوا على السجين فسمروا على تلك

الطـاقة تنكةً مثقوبة بثقبين او ثلاثة يتاح للسجان ان يراقب منها حركات المسجون . اما هذا فلا يستمدّ بصيص الضياء الا من طاقـة صغيرة مشبكة بالحديد واقعة في اعلى الجدران .

دخل المحامي اولاً على نصار ، وظل في غرفته هنيهة ثم خرج . ودخـل من بعده السيد ابراهيم . هناك على الحصير وضعت فرشة وعليها نصار قد جلس القرفصاء وامامه شمعة موقدة وبيده كتاب.

فنادى السيد ابراهيم السجين باسمه .

وما كان السجين ليعرف الزائر لولا صوته فنهض لساعته ، وانتصب وقال:

– لماذا اتيت اليَّ وماذا تريد مني ؟

قال ابراهيم :

– اتيتك مستخبرًا .

– وما عسى ان يكون الخبر الذي تستقصيه ؟

– اتيت استقصي الحقيقة .

وكان صوت السيد ابراهيم ينمّ عن تأثر عظيم . فارتعش السجين وجمد . ثم ارتخت اعصابه وخطا خطوةً الى الامام، وقد طوقت رأسه هالة كانها البخار المتلوّن باشعة الشمعة الضئيلة . وكان طربوشه القاتم ، ولحيته الكثّة ، وثيابه الفضفاضة القذرة قد اسدلت على هيئته كلها امارات الشقاء والتعاسة . ولكن عينيه لم تزالا وقادتين تحدقان الى الزائر كانها ضلعا ملقط حديدي.

فقال ابراهيم :

– يا نصار ! غدًا سوف تظهر على ساحة العدل للاعدام وذلك الاعدام صدر من المحكمة عن لساني ، وبعلمي ، وارادتي . ولست بآسف على مـا صدر مني لانك قاتل مهتا.

فقال نصار :هذا كذب ومين !

– انت الذي طرحته خارج القاطرة وقد بلغت منه الروح التراقي.

– هذا كذب ومين !

– ثم القيت المطرقة الدموية في الاتون.

ــ قد حلفت اني برئ !

ــ نعم حلفت ! وبما انك حلفت فها قد اتيتك الآن ، واني على يقين من كذبك ونكرانك للحقيقة . وقد افرطت في الكذب حتى هجت هواجسي ، وسلبتني راحتي . ان البيّنات عليك عديدة هائلة . ولا داعي واحد قد يحول دون إعتقادي بانك مجرم . . . الا كلامك الذي ما زلت تردده انك برئ ، فهو يرميني في الشك والريبة من امرك . وان كذبك لمثير في صدري نار حزن وشجون واضطراب . استحلفك بالله قل . قل لي الحقيقة .

فنظر المجرم شزرًا الى حاكمه ، ثم عاد فانطرح على فراشه وهز كتفيه متهكماً وقال : اذن لقد فتح سيدي الحاكم صدره الى صوت العدل والشفقة . ولكن ما عسى ان يفيده اقراري ، ولات ساعة ندامة ، ولا مناص من الموت

ــ نعم لات ساعة ندامة ! وقد رفض العفو عنك ولا سلطة بشرية تنقذك من تنفيذ الحكم فيك . واني درست سجلات دعوتك وفحصتها كلها ، وكلها تشهد فيك بالجريمة . وهبني اني تيقنت براءتك فلست استطيع مساعدتك ، فخابت اذن آمالك كلها . وما من امل من وراء كذبك .

ــ لم اكذب قط !

ــ قد ينكر المذنبون ما يتهمون به ضنًا منهم على شرف اسمهم ، وكرامة اسرتهم . وانت تخفي الحقيقة مثلهم . ولكني اعدك باني وحدي اسمعك فلن افشي بسرك .

ــ اتعدني ، وانت لا تصدق كلامي ، فكيف . . .

ــ رويدًا يا نصار . هل انا اتيتك لأمثل رواية هزلية . لقد صرفتُ حياتي في القضاء ولست بطالب مكرمة ولا مال . وليس لي الا مطمع واحد ، وهو ان اموت في راحة الضمير . انظر اليّ . ما بالك تواري بصرك عني . على مَ تؤنبني ؟ اعلى كوني حكمت عليك ؟ وانما حكمت عن واجب لم يطاوعني ضميري في مخالفته .

ــ واجب المتطرف المتحيز للطائفية العمياء !

ــ واجب الحاكم المسؤول عن نظام البلاد ، وعن حياة العباد . وعلى كل

حال ففي هذه الساعة ليس في هذا المكان حاكم ولا محكوم . بل هنا رجلان كلاهما يتألمان : انت لما يحلّ فيك من القصاص ، وانا لكوني اسير شجوني وقلقي ، وقد حكمت ولم انل اقرارك التام .

وكان ابراهيم واقفاً كانه المتسوّل المتوسّل . اما نصار فقال همساً :

— لم اقتل مهنا .

— اذا هذا هو جوابك الذي لا مردّ له !

— نعم !

فادار السيد ابراهيم ظهره وتأهب للخروج وقال :

— الوداع يا نصار . ان نكرانك لا يقنعني ببراءتك ، لكنه يطرحني في الوسواس والاوهام طيلة حياتي . هذه نقمتك عليّ . فقد اثارت مني ، وتشفيت .

وتخطى السيد ابراهيم الى الباب ثم التفت واذا بنصار قد قبض على اطراف فراشه ، وحدّد نحوه بصره ، كما كان قد حدده في المساء الذي سمع فيه الحكم ، واجاب بصوت متقطع كانه قطع الفؤاد وقال :

— نعم انا هو .

— انت ؟

— نعم انا القاتل ... هشمت رأس مهنا بالمطرقة ... وقُضي عليه .

وفي اليوم التالي سير بنصار الى المشنقة في ساحة العدلية .

* * *

وعاد السيد ابراهيم الى اشغاله اليومية . وضميره ساكن لكونه قام بالواجب . ولكن قلبه البشري لم يشفَ من الجرح الذي اصابه عند تعاطيه امور الحكم والمحاكم ، والظلم والمظالم . .

وكيف لا ينفطر قلب الحكام عندما ينظرون تنفيذ الاعدام بمن هم اخوتهم في الانسانية ، وقد الجأهم الواجب المقدس الى قطعهم من الجسم الاجتماعي اما بابعادهم في ظلمات السجون او بنفيهم من ارض الاحياء . . . وليس الا الله قدير على ان يوفق بين طرفي نقيض فيبلي للشفاء ويضرب ليرد الخاطئ الى التوبة مبدأً حياة الجسد ليمنح حياة الخلود ، جامعاً بين العدل والرحمة .

مجلة المجلات

البابا والهند – دير قزحيا – الرقي المصري والمسلمون

البابا والهند

ينيف عدد سكان الهند على الثلثمائة مليون نسمة منهم :

٢١٦,٠٠٠,٠٠٠	وثنيون هنود
٧٠,٠٠٠,٠٠٠	مسلمون
١١,٠٠٠,٠٠٠	بوذيون
١٠,٠٠٠,٠٠٠	نقيون *a::imistes*
٢,٦٠٠,٠٠٠	كاثوليك
١,٨٠٠,٠٠٠	بروتستانت

نظر الاب الاقدس الى اكثرية الغير المسيحيين الساحقة في ذلك الاحصاء ، وارسل سنة (١٩٢٤-١٩٢٦) زائرًا الى الهند ، رفعهُ من ثمَّ الى مقام الكرادلة ، وهو السيد ليبيه . واستقت مجلة المراسل الافرنسية « *Le Correspondant* » (٢٠ تشرين الاول ١٩٢٩) من الحبر المذكور التعليمات التالية عن حالة الكثلكة في الهند فقالت ما ملخصه :

لا ينكر احد فضل الادارة المدنية الانكليزية في الهند فانها عاملت السكان بالمساواة ، ففتحت ابواب الوظائف لطبقة الباريا ، ومهدت السبيل الى ازالة الحواجز الفارقة بين الناس . ومن جملة اصلاحاتها : الغاء عادة الزواج قبل اوانه والغاء عادة احراق الارامل ، ومساعدة المدارس . ومعروف ان الهنود منقسمون الى طوائف متعادية متنائية ، فلا يُعقد زواج بين طائفة وطائفة ، ولا تختلط رجال الطائفتين لتناول الطعام او للمواصلات الاجتماعية . وان من

فضل الدين المسيحي انه اخذ يخفف من قساوة تلك القوانين الصارمة ، وعسى ان يلغيها تماماً مع تطور الايام ، وقد يستعين على ذلك بالحركة الجديدة الصادرة من الزعيم غاندي الذي اخذ يناشد مواطنيه بواجب القبول بالمساواة بين جميع السكان من اي طبقة كانوا.

واخذ المرسلون يتصرفون بتوزيع الاسرار من غير ان يجعلوا فرقاً بين فئة وفئة ، فمنح السيد فزانديه ، اسقف تريشينوبولي ، سرّ التثبيت اولاد البراهمة واولاد الباريا معاً ، وجمع الآباء الكبوشيون الاولاد من مختلف طبقات الشعب للتعليم المسيحي. فسخط الوثنيون على المرسلين لعدم تفرقتهم بين الاولاد ورفعوا دعواهم الى الزائر البابوي . فاستقبل السيد لبيسيه وفود المحتجين بلطف وبشاشة ثم صرفهم بالحسنى . ونظر الى الاولاد فباركهم ، وحثّهم على المواظبة والصلاة في الكنائس وعلى سماع التعليم .

وبهذه الطريقة اللطيفة تتدرج الكنيسة بتلك الشعوب الى خلع نير التقاليد القاسي ، والتخلق بالاخلاق المسيحية التي لا تفرق بين نفوس العبيد ونفوس الاسياد .

دير قزحيا

ايام الصيف والعطلة المدرسية تدعو الاساتذة والتلامذة الى ترويح النفس من اتعاب الدروس بتمرين الجسد على الرياضة البدنية . ولا بلاد اصلح لتلك الرياضة من الجبال ، يعاني الانسان في قطعها من المشقات ما تحلو عاقبته اذا بلغ الذرى واستراح في ظل الصنوبر ، وروى الغليل من الينابيع الصافية ، ومتع النظر بالمشاهد الطبيعية الرائعة . ومن محطات الجبل الشهيرة الجديرة باجتذاب السياح والزوار اليها وادي قاديشا ، وعلى جانبيه الصوامع والاديرة ، واخصها دير قزحيا . وصفه حضرة الاب الخوري بولس قرألي وصف الشاعر المتفنن قال : (المجلة البطريركية ٣٠٩)

دير قزحيا مختبئ كالناسك في بطن واد عميق ضيق وعر ، محجوب باشجار كثيفة قاتمة تغار عليه من العيون ، ومحصن باسوار صخور شاهقة متوحشة لم تمسها يد بشرية منذ خلق العالم والانسان. لكن الطبيعة التي احبها واحبته قد عوضته من تلك الوحشة فتجلت له بكل ما حباها الله من جمال وجلال ودلال : فيأته بوارف ظلالها ، تفحته ببليل نسماتها ، اطربته بهدير مياهها وحفيف اوراقها

وتغريد اطيارها ، أروته بزلال ينابيعها ، متعته بالمديد خضرتها وثمارها ، اسكرته بشذاء زهورها وبخور صنوبرها وعطور دلبها ، وشغفته بقامات حورها الرشيقة المتمايلة تيهاً وغنجاً . فطابت له الاقامة وراقته العزلة واستهوته المنازلة ، فاستمر في هذه البقعة وتوسع واستقل واستكفى ، واصبح بابنيته العظيمة وملحقاتها بلداً قائمة بنفسها في وسط جنينة غنية غناء .

ان قصدت زيارته فعليك اما ان تهبط عليه من عينطورين بدرجات نقرت في جدار الوادي المنتصب فوقه ، او ان تدور من جهة الجنوب مجتازاً قرية بان المختبئة بين العرائش ، حتى اذا بلغت اسفلها وجدت نفسك امام نبع صغير بارد سارح في روضة هادئة منعزلة ، تبش لك وتدعوك الى اراحة جسمك وفكرك بين ظلالها ، وطرح همومك وهواجسك على عشبها النضر . ثم تستأنف السير فتظهر لك جهة الغرب حبسة الدير محتمية بصخر ينطح الافق وقد كست الشجيرات عنقه وانحسرت عن رأسه فبرز في الجو عارياً حاملاً صليباً كبيراً من جذعي صنوبر ، هو راية هذا الوادي المقدس . وعلى قدمي الصخر تنبسط الكروم التي يشتغل فيها الحبيس دفعاً للبطالة ، حتى اذا نضج عنبها وتينها تناول من كل صنف ثلاث حبات فقط ، ليحلو له طعمها فيمنع نفسه عنها ويضاعف اجره . وهو يلبس المسح ولا يأكل غير البقول ولا يقابل النساء ويقضي اكثر ليله في الصلاة راكعاً .

قرأنا الصفحة وذكر زيارتنا الاخيرة الى وادي قاديشا والديمان حي في القلوب والاذهان .

في اوائل شهر تموز سرنا بمعية آبائنا ، اساتذة الكلية اليسوعية ، ورقينا روابي لبنان الشمالي عن طريق كسبا والحدث ، وقمنا بواجب الزيارة والاكرام البنوي نحو الشيخ الجليل البطريرك الماروني في الديمان فجلس غبطته بيننا بعد تناولنا طعام الغذاء . وتحدث الينا بلطف ووداعة وهيبة ثم باركنا واطلقنا نسرح في الدير وجواره ، ونشرف من اعاليه على مناظر وادي قاديشا . وكان سيادة المطران عبدالله خوري ، وحضرة الاب بولس طعمه ، وسائر آباء الدير الاجلاء يحفّون بنا بلطفهم وانسهم المعهود . فيطيب لنا اغتنام الفرصة لنرفع الى مقام غبطته عواطفنا البنوية سائلينه تعالى ان يمدّ بايامه الثمينة لمجده سبحانه ودعم اركان الكثلكة في الشرق .

الرقي العصري والمسلمون

نشر السيد ابراهيم سليمان، في مجلة العرفان، مقالاً طرق فيه ابواب المقابلة بين الشرق والغرب، ثم ختمه قائلاً : (حزيران، ص ٣٢)

نعم للغربيين ان يهزأوا بنا ما دمنا مثابرين على خطتنا هذه وهي الاختلاف القائم بيننا على قدم وساق حتى افترق المسلمون الى نيف وسبعين فرقة مع ان نبينا واحد وكتابنا واحد وشريعتنا واحدة سوى بعض امور اجتهادية لا تقتضي هذا الاختلاف والتشتت العظيم وهي ليست من اصول الدين في شيء. اذ ان اصوله عند الجميع خمسة[1]: التوحيد، والعدل، والنبوة، والامامة، والمعاد، والجميع متفقون على الجميع اللهم الا مسألة الامامة فانهم متفقون جميعاً على أصل وجوب نصب الامام ولكنهم مختلفون في تعيينه لا غير، وهذا المقدار لا يستدعي تفريق كلمتهم مع ما ورد من الآيات والاحاديث التي تأمر بالاتحاد وتنهى عن التفريق.

فمتى ننبذ هذا الاختلاف ؟ ومتى نتحد يداً واحدة على من سوانا ؟ ومتى نطرح التعصب الذميم وراء ظهورنا ؟ ومتى نترك استهزاء بعضنا ببعض ؟ أليس بيننا رابطة دينية ان لم تكن وطنية او جنسية ؟ ومتى نسير مجدين في نشر العلوم والآداب والفلسفة والاختراعات والاكتشافات ؟ ومتى نعيش بعقول جديدة غير تلك العقول القديمة الجامدة فالعقل زينة الانسان وهو افضل مخلوق وجد على سطح البسيطة وبه لا بغيره توصل الغربيون الى علومهم الجديدة واختراعاتهم العظيمة المفيدة، ومتى ندخل — على الاقل — علم النفس والكيميا والهيئة والهندسة والجغرافيا والحساب وغيرها وبعض اللغات الاجنبية بين علومنا وفي مدارسنا ولا نكفر من يقرأها منا، ومتى نسعى الى العمل فليست الكتابات وحدها بكافية وانما هي نفثة ينفثها قلم من يجيش في صدره عامل الاصلاح فما يلبث ان يقوم في وجهه المعارضون فيقوم نافضاً ذيله مبرأ نفسه مما كتب عاضاً انامله نادماً على ما فعل فلا حول ولا قوة الا بالله. ف. ت

---

١) لا يقول جميع المسلمين بأن العدل والإمامة من اصول الدين كما لا يخفى. [الحاشية للمرفان]

شذرات

حول الحج الى مكة

اخرجت مصارف العجم في السنوات الاخيرة نحو ٢٠٠,٠٠٠ ليرة انكليزية انفقها الحجاج الى مكة في القيام بفرضهم الديني . فاخذت الجرائد الفارسية تنعي هذه الخسارة الكبيرة وتنصح الفرس بان ينصرفوا عن زيارة البيت الحرام الى المزارات الشيعية كرار قمّ ومشهد علي ، فيوفّروا عليهم قطع المفازات الشاسعة ، وتبقى اموال الفرس في بلادهم.

اما عدد الحجاج الى مكة فعلى ازدياد متواصل ، ان صدقت احصائيات الوهابيين . وقد ذكرت ، في السنة الماضية ، ٨٨,٠٠٠ حاج وصلوا بطريق البحر ، و ٢٠,٠٠٠ بطريق البرّ . واكثرهم اتوا من جاوى (٣٣,٠٠٠) ومن مصر (١٨,٠٠٠) ومن الهند (١٥,٠٠٠). اما بلاد اليمن فاتى منها نحو الالفين . واما سورية ، وفلسطين وحضرموت فلم يبلغ عدد الحجاج من كل منها الالف الواحد .

سورية طريق الهند

هو عنوان مقال نشرناه في « مشرق » سنة ١٩٢٨ (ص ٥٧٧) ، وقد اطلعنا مؤخرًا على ارقام تؤيد ما قلناه اذ ذاك . فان شركة السيارات نيرن (*Nairn Eastern C°*) نقلت وحدها من دمشق الى بغداد في السنة الفائتة ١٨,٠٠٠ مسافر ، قصد اكثرهم بلاد الهند عن طريق سورية وخليج العجم . وكانت سياراتها تقطع الصحراء بين دمشق وبغداد ، البالغ طولها تسعمائة كيلومتر ، في يومين فقط ، مستريحة ، بعد المرحلة الاولى ، في رطبة ، وهي منزل في منتصف الطريق ، فيه ماء عذب وفندق كامل المعدّات . وحين الوصول الى بغداد ، تقوم سيارات جديدة فتنقل المسافرين الى خليج فارس او الى طهران . ويجدر

بنا ان نضيف الى ارقام شركة نيرن عدد المسافرين الذين ساروا على طريق تدمر ، والذين سافروا من حلب ، فنتحقق صحة ما قلناه سابقاً ، وانه من الحق ان ندعو سورية «بطريق الهند .»

شيطان السرعة

ذكرنا في السنة الماضية (مشرق ١٩٢٩ ص ٨٧٣) بشيء من التحفظ ان عدد النفوس التي تذهب ضحايا السيارات ، في الولايات المتحدة وحدها ، يبلغ الاثني عشر الفاً في السنة . ثم وقفنا على ما أكد لنا ان تلك الارقام اقل من العدد الحقيقي . فان السيارات اصبحت اوسع اسباب الموت انتشاراً ، وافظعها نتائج في اميركة ، واوربة وسائر انحاء العالم ، حتى في جمهوريتنا الصغيرة . وقد اطلعنا على احصائية بضحايا السيارات ، سنة ١٩٢٩ ، في بعض البلاد فرأينا من الفائدة والاعتبار اطلاع قرائنا عليها :

	عدد القتلى	عدد الجرحى
انكلترة	٦,٧٠٠	١٧٠,٩٣٠
فرنسة (ما عدا باريس)	٣,٣٦٧	٣٧,١٥٩
برلين	٨٦٤	١١,٨٣٨
ايطالية	٣٠٩	١,٣٣٤
بلاد البرتغال	٣٠٥	٢,٥٥٣
كندا	١,١٧٠	
الولايات المتحدة	٣٣,٠٠٠	١٢٠٠,٠٠٠

مفردات جديدة في اللغة التركية

لم يقف الاتراك في تقليد الاوربيين عند اتخاذ الجديتهم ، بل تراهم لا يتراجعون امام نقل الالفاظ الاوربية الجديدة من التي لا مرادف لها في لغتهم ، وهم لا ينتبهون لاصل هذه الالفاظ ، ولا للغة التي ينقلونها عنها ، ولا للطريقة التي يجرون عليها في نقلهم . فيكفيهم ان يسمعوها او يروها في جريدة اوربية حتى يتناقلوها فتصبح تركية لا غبار عليها . ويرى القارئ في ما يلي بضع

كلمات افرنسية الاصل ، مأخوذة عن جريدة « اقشام = Akšam » التركية ، وقد اوردناها على صورتها التركية الجديدة مع الاصل الفرنسوي ، ومعناها بالعربية :

بالتركية الحديثة	بالفرنساوية	معناها
Enstitü de bote	Institut de beauté	معهد الجمال
Otomobil	Automobile	سيارة
Kamyon	Camion	سيارة شحن
Mösyö	Monsieur	سيد
Boksör	Boxeur	ملاكم
Fotograf	Photographe	مصور
Tyatro	Théâtre	مسرح
Likör	Liqueur	شراب
Ambalaj	Emballage	حزم البضائع

التذكار المئوي لاول سكة حديد تجارية

جاء من لندن انه سيحتفل في لفربول ، في شهر كانون الاول القادم ، بمرور مئة سنة على خط سكة الحديد بين لفربول ومنشستر . وهو اول خط تجاري في العالم جرت عليه القطارات تجرها قاطرات بخارية . وكان اسم اول قاطرة جرت عليه « السهم » ، وكانت سرعتها ١٨ ميلاً في الساعة ، ولكن بعد اسبوع من ذلك زادت سرعتها الى ٣٠ ميلاً في الساعة . وستحتفل مدينتا لفربول ومنشستر بذكر هذا الحادث وتشاركها فيه شركات سكك الحديد البريطانية .

تنبيه :

في الصفحة ٦٩٦ والسطر ١١ من العدد الفائت ، في مقالة « تنصر اللمعين » ، وردت كلمة « الامير بشير » ، والصواب « الامير شديد » ، فاقتضى التنبيه .

مطبوعات شرقية جديدة

Lokotsch (K.) : Etymologisches Wörterbuch der Europäischen (Germanischen, Romanischen u. Slavischen) Wörter orientalischen Ursprungs. *XVII-243 pp. gr-8° à 3 col. Heidelberg, C. Winter,* 1927. *Prix : 13 M.*

معجم لغوي للكلمات الشرقية الاصل في اللغات الاوربية

يقوم هذا الكتاب بحاجة كثيرًا ما شعرنا بها في الابحاث اللغوية ، وهي تجربة لمعجم شامل يجمع الكلمات الشرقية الاصل في اكثر اللغات الاوربية ؛ ولا نشك ان هذه التجربة الحسنة ستزداد مع الوقت دقةً وكمالًا.

اما الكلمات الشرقية الاصل فيقصد بها جميع المفردات التي انتقلت من اللغات السامية والافريقية والاسيوية (كالصينية واليابانية الخ) والفارسية ، الى اللغات الاوربية سواء كان ذلك في العصور القديمة او المتوسطة او في عصرنا ، وسواء كان دخولها في مظهر اللغات الاوربية القديم — كاللغة الرومانية بالنسبة الى الفرنسوية والايطالية — او في مظهرها الحالي . وغنيٌّ عن البيان ما يتطلبه موضوع كهذا من الجهود والابحاث في مفردات جميع اللغات الاوربية ، وفي تحقيق اصولها ، مع الاستناد الى المصادر الاصلية ، ووجوب نقل اللفظة الشرقية الاصلية حسب لفظها في اللغة المأخوذة منها ، هذا الى اطلاع عامّ ومعرفة شاملة بالعلاقات التاريخية والتجارية بين اوربة وبلاد المشرق . يسيطر على كل هذا شعور دقيق بالنقد العلمي كي يصل الباحث الى نتائج راجحة ان لم تكن راهنة .

اما اسلوب المؤلف فقوامه ان يذكر الكلمة الشرقية بطريقة ظاهرة ، ويردفها بجميع المفردات التي تفرَّعت عنها مستعملةً في اللغات الاوربية مستندًا في ذلك الى المعاجم والمؤلفين . اما اذا شاء الباحث الاطلاع على اصل كلمة اوربية لا يعرفه فعليه ان يرجع الى معجم المفردات الاوربية في آخر المجلد ، فاذا وجدها ، وجد قربها رقم الصفحة المذكورة فيها من الكتاب .

وعلى الجملة فالكتاب واضح الاسلوب ، سهل المتناول ، احسن بتأليفه

الاستاذ في جامعة كولونية لافادة طلّابه من دارسي القسم التجاري · هذا وان المكان لا يتسع لابداء بعض الملاحظات والاصلاحات. س · ر ·

Paul Tannery : Pour l'Histoire de la Science Hellène. 2ᵉ *édition par* **A. Diès.** *vol in-8°*, 435 *pp. Prix :* 80 *fʳ broché. Gauthier-Villars et Cⁱᵉ.*

في سبيل تاريخ العلم اليوناني

ظهر هذا الكتاب للمرة الاولى سنة ١٨٨٧ ، فاحدث ضجة شديدة في تاريخ الفكر القديم بما اظهره من طرق جديدة في البحث والتمحيص والنقد الجريء ، وبما زيّفه من النتائج المستندة اكثرها الى النقل والتقليد والاخذ باقوال الاقدمين دون شك او ارتياب · فكانت غايته درس تلك الاقوال بروح جديدة متخلّصة من تأثير التقليد الاعمى ، مجتهدة في ان تفهم النصوص وتُفهمها كما هي ، لا كما يشاء بعض الشرّاح · ولكن لم تلبث تلك الضجّة ان هدأت على اثر البحث ، وبعد ان كان الكتاب يُعتبر ثورويًا متطرّفاً ، اصبح من اركان المؤلفات المدرسية الراهنة يقول بقوله اكثر طلّاب المدنية اليونانية في فرنسة وخارجها.

وهذا ما دفع الناشر الى اعادة طبعه دون ان يغيّر فيه او يبدّل ، اللهم الحواشي العديدة والمفيدة التي علّقها على بعض الفصول والآراء والتي من شأنها ان تحقق الصلة بين الكتاب الموضوع منذ اكثر من اربعين سنة والحالة التي وصلت اليها الدروس المذكورة في عصرنا · فغدا الكتاب قديمًا وحديثًا ، جامعًا الى الاسس المتينة الاصلية الاطلاع على تشعبات الدروس العصرية في ما خص الموضوع · وقد ختم بجدول واسع للمآخذ.

O. **Weinreich :** Gebet und Wunder. [*Extrait de Genethliakon Wilhelm Schmid*, 1929, *pp*. 167-464.] *W. Kohlhammer, Stuttgart*, 1929.

الصلوة والعجائب

يجمع هذا العنوان بحثين دقيقين للاستاذ ويزيخ يتعلّقان بالدروس اللغوية وتاريخ الديانات · فانه يتكلم اولًا عن « انانية الصلاة » ويقصد بها ذاك

الشعور الخاصّ الذي يحمل الانسان، اذا اوجس من خطر مداهم، على ان يطلب من الهه ابعاده عنه، ولو وقع على شخص آخر. فالروماني مثلاً كان يرجو من السماء ان تنقل المصيبة عنه الى جاره، اما اليوناني فكان يبعد المصيبة الى «نهاية العالم المعمور» او ينقلها الى اعدائه. ومما يلاحظ ان الشاعر اللاتيني تيرانس (Térence) يبتعد في مهزلته اندريا (Andria) (في الابيات ٢٣٢ وما بعده ...) عن سلفه الشاعر اليوناني مناندر (Ménandre) لان صلاة بطلته مجبولة بالانانية المقدّسة التي عرف بها الرومانيون.

امّا البحث الثاني الدالّ على تحقيق دقيق واطلاع عظيم فان المؤلف يخصّه بموضوع يظهر عاماً في الآداب الدينية في جميع العصور، وهو ذكر افتتاح ابواب هيكل او سجن بطريقة خارقة او عجائبية، افتتاحاً ينسب الى ظهور اله، او الى تعبير عن مشيئته او عن غضبه، وتكون غايته تخليص اله (ديونيزوس) او نبيّ (موسى) او ولي من اولياء الله (الرسل). وقد يكون مؤثرًا بقوة سحريّة، او دافعاً لشعوذة صانعي الآلات المتحركة. هذا وان المؤلف لا يتبسّط في قيمة الحادثة الدينية بل يعتبر ان مثل هذه الحوادث نشأت في اكثر الاحيان عند الشعوب المختلفة، مستقلة بعضها عن بعض من باب توارد الخواطر، لما في الطبيعة البشرية من الافكار المشتركة (ص : ٢٠٤). ثم هو يعتقد انه برهن عن ان مؤلف «اعمال الرسل» كان قد درس رواية «كاهنات باخوس» (*Bacchantes*) لاوريبيد، فشاء ان يؤلف اثرًا ادبيا ينزل منزلة تلك القصص الخرافية المنتشرة بين الوثنيين. وعلى كل فابحاث الاستاذ ويتريخ تحقق معاني كثير من التعابير اليونانية واللاتينية.

د. م.

A. Segre : Il commercio dei popoli antichi nel bacino del Mediterraneo (*secondo i testi del tempo*).

تجارة الشعوب القديمة في البحر المتوسط.

كثيرًا ما اهمل كتبة التواريخ وصف الحياة الاقتصادية عند الشعوب القديمة. ولهذا رأى الاستاذ سيگري، وهو من الاختصاصيين بالامور الاقتصادية في الزمن القديم، ان يسدّ تلك الثلمة بكتابه هذا. فبدأ بسرد افكار قيّمة

كملاحظته انّ اولى المحطات التجارية كانت مدن الشواطئ لما ثبت من ان المواصلات بطريق البحر كانت اسهل وآمن بما لا يقاس منها بطريق البرّ ، وكقسمته التطوّر الاقتصادي الى ثلاث درجات يذكر في الاولى المبادلة بالاعيان ، ثم استعمال انواع النقد ، ثم استعمال طرق الاعتماد . وبعد ذلك ينتقل الى تاريخ التجارة في الصين ، والهند ، وبابل ، وأشور ، فعند الفينيقيين ، والعبرانيين ، والمصريين ، والفرس ، واليونان ، والاتروريين ، والقرطاجيين ، والرومان . فيُسهب في درس التجارة في بلاد اليونان ، ولاسيا في اثينا التي توسّعت فيها اعمال المصارف ، مشيرًا في كل ذلك الى ما له شبه او تأثير في المدنية العصرية . وهو يستند الى المؤرخين والجغرافيين والشعراء اليونان واللاتين ، فيترجم الكثير من اقوالهم ، وخصوصاً هوميروس ، وهيرودوطس ، وبلينوس ، واسترابون . وكنا نود لو استند ايضاً الى ما كشفته الحفريات من الرقم او الآثار التي تفيدنا معلومات عدة عن تجارة مصر القديمة . ر . م .

Rudi Paret : Die legendäre Maghâsi - Literatur Arabische Dichtungen über die muslimischen Kriegszüge zu Mohammeds Zeit. *in*-8°, 251 *pp.* 1930. *Tübingen, Verlag von J. C. B. Mohr (Paul Siebeck)*.

الاساطير العربية عن مغازي محمد

لقد ترك لنا ابن هشام والواقدي والطبري وغيرهم التفاصيل الكثيرة عن مغازي محمد . على ان رواة المسلمين شاؤوا بعد ذلك ان يزيدوا في عدد هذه المواقع وخصوصاً في صفاتها الخارقة ، فاخترعوا كثيرًا من المغازي التي لم تترك اثرًا في التاريخ ولم يعرفها المؤرخون . فرأى مؤلف هذا الكتاب ان يهتم بدرس هذه الروايات الخرافية ، فطالع نحو خمسة آلاف صفحة اكثرها من المخطوطات ، وحلّل مواضيعها ، واجتهد في معرفة مؤلفيها ، وتحديد زمن تأليفها ، دارساً انشاءها واساليبها البيانية واهمها السجع والشعر المنحول . اما بطل هذه المغازي فهو غالباً عليّ لا محمد ، فيهجم وحده على الاعداء ويكسرهم ويقتل منهم المئات . وقد يظهر بين اعداء النبي في بلاد العرب ، عدد من اكلة لحوم البشر

(ص ٨٥، ١١٣، ٢٢٠) . ثم ان محمدًا يستلم كتاباً فلا يمكنه قراءته فيتكلم الكتاب من نفسه (ص ١٧٥) . فهذه الامثلة تدلنا على سائر تلك الروايات ، وعلى قوّة مخيّلة واضعيها.

هـ. ل.

J.-L. Blanchot : Les bijoux anciens.

Claude Sézan : Les poupées anciennes.

Les deux premiers volumes de la Collection des Collectionneurs. *Série d'ouvrages format 10 × 14, richement illustrés de hors texte. Prix : 30 f. chaque volume. Les Editions Pittoresques, Paris.*

١ – الحلي القديمة

٢ – الالعوبات القديمة

هي مجموعة جديدة تفيد المتأدبين ، وغواة الفن ، وارباب المجموعات ، الشيء الكثير عما يهمهم من آثار الفنّ والصناعة ، فتسدّ ثلمة واسعة في عالم المنشورات الفنية ، اذ توفّر للمطالعين ليس فقط الاحكام الاجمالية على تلك الآثار ، بل اساليب التدقيق في طرق الصناعات والظروف المختلفة التي دفعت اليها في تطوّر الاجيال فمكنت الصناع والفنانين من اظهار آثارهم الجميلة.

Lewis Spence : The mysteries of Egypt, or the secret rites and traditions of the Nile with sixteen illustrations. 8°, 285 *pp.* 15/, *London, Rider and C°.*

اسرار مصر

مؤلف هذا الكتاب اختصاصي بمسألة الاسرار والغوامض وقد درس سابقاً اسرار انكلترة القديمة ، وها هو يهتمّ اليوم باسرار مصر القديمة ، فيقرّ بان موضوعه صعب مبهم غامض . على ان بين يديه ، لتبديد هذا الغموض ، سراجين نيّرين هما الالهام والمقابلة ، على زعمه . فيستضيء بنورهما ويقسم كتابه الى خمسة عشر جزءا تدور حول المآخذ الادبية للموضوع ، واصول الاسرار وفلسفتها ، والاسرار عند الشعوب الغربية ، والطقسيات ، وقيامة الموتى ، والوهم والشعوذة في الاسرار ، وبقاء الاسرار في العصور الحاضرة. وعلى الجملة نرى ان الكتاب يدلّ على اطلاع واسع ولكنه غير مقرون بالنقد الكافي .

ج. ل.

H. Frei : La grammaire des fautes, *in-8°*, **317** *pp.* **1929.** ***Prix :*** **40f.** ***Paris, Geuthner.***

غراماطيق الاغلاط

من المعلوم ان من يرتكب الاغلاط النحوية واللغوية لا يرتكبها للذة الخطأ. ولهذا رأى المؤلف، وهو من متخرّجي جامعة جنيف، ان يبحث عن اسباب هذه الاغلاط وعما تدلّ عليه في عقلية مرتكبيها، فيخرج في هذا عن دائرة الاختصاصيين في هذه المواضيع. ثم يعرض، لتلافي هذه الاغلاط، طريقة لغوية جديدة تقوم بان تُسرد المفردات لا بحسب الحروف، وهي الطريقة التقليدية في مؤلفات اللغة، ولا بحسب المعاني، بل بحسب الحاجات التي على اللغة ان تقوم بها. هذا والكتاب مفيد لذيذ حتى لغير الاختصاصيين.

Marquis de Roux : La Restauration. *in-16*, 466 *pp.* *Prix :* 16 f., 50. *Paris, Arthème Fayard.*

تاريخ رجوع الملكية الى فرنسة

هو تاريخ حسن، وقف مؤلفه على جميع ما كتب في الموضوع، واستعمل ايضاً وثائق لم يسبق نشرها، فأتى بالجديد وغدا كتابه متمماً لما نشر قبله في الموضوع كمؤلفات بيير دي لاغورس (de La Gorce) عن لويس الثامن عشر، وشارل العاشر. ثم ان التذكار المئوي لاحتلال الجزائر دفع المؤلف الى افراد فصل مهمّ لتلك البلاد في ذكر السياسة الخارجية. وهو يخص القسم الثالث بموقف الملكية المعادة والثورة، ودرس الاخلاق والعادات، وذكر الحركة الادبية المعروفة بالرومانتيسم.

Annuaire pontifical catholique pour 1930. *in-8° de* 944 *pp.*, 327 *illustr.* *Prix :* 35 f. *Paris, Bonne Presse.*

الدليل البابوي الكاثوليكي لسنة ١٩٣٠

هو المجلد الثالث والثلاثون لهذه النشرة؛ ويمتاز، فضلاً عما فيه من المعلومات الكثيرة، بما يتبسَّط فيه من الحوادث التاريخية المهمة التي جرت سنة ١٩٢٩، كالاقرار بالاستقلال الزمني للكرسي الرسولي، وتوقيع معاهدة

لاتران ، وتنظيم دولة « حاضرة الفاتيكان » ، والخطب العديدة التي القاها الحبر الاعظم والتي تمكن المطالع من فهم افكار نائب المسيح حق الفهم في ما خصّ جميع المسائل الحالية العويصة ، واهمية الزيارات اليوبيلية .

Ant. Baldacci : L'Albania con una carta geografica alla scala 1 : 500000 (in tre fogli) e tre cartine. *grand in-8°*, 463 *pp. Prix: Lire ottanta*, 1930. [*Publirazioni dell'Istituto per l'Europa orientale, Seconda serie XVII*].

البانية

عاش مؤلف هذا الكتاب ، وهو استاذ في جامعة بولونيــة (ايطالية) ، مدة طويلة في البانية ، مهتماً بدرس نباتها . فجمع كل مـا توفّق اليه مَن المعلومات جمها في مؤلفه هذا الذي ينيل تلك البلاد الغربية ما كان ينقصها من شهرة مؤسسة على معلومات دقيقة صحيحة . وقـد قسمه الى ثلاثة اقسام : الجغرافية الطبيعية (ص ٩ــ١٢٩) والحوادث التاريخيــة (١٢٩ــ١٥٥) ، والجغرافية الانسانية (١٥٥ــ٤٢٩) فأتى كتاباً شاملاً تاماً من افضل منشورات المجموعة التي ظهر فيها . ج . ل .

Alfred Jeremias : Das Alte Testament im Lichte des Alten Orients. 4° *édition entièrement refondue* (7ᵉ *mille*). *Leipzig, Hinrich*, 1930. *in-8°*, *XVI* - 851 *pp. Prix : M.* 42.

العهد العتيق على نور الشرق القديم

تمتاز هذه الطبعة الرابعة للكتاب بمظهر مطبعي اقلّ لزازاً واسهل قراءة من المظهر السابق ، وباتساع الفهـارس والجداول ، وبتغيير الترتيب في الصور والرسوم ، وببعض الآراء الجديدة كالمقابلة بين ايزابل وتيامـة عشتروت (ص ٦١٢) ، والقول ان اسم « السيدة » (*Madonna*) لقب به بعض الالاهـات (ص ٥٠٢ ، ٣٦٧ ، ٦٧٥) ، وكالاعتبارات التي يوردها المؤلف في توطئته ومقدمته وغايتها تقرير الثقة بطريقته الميثولوجية . ولكن لم يجدّد شيء في رسوم الكتاب ، ولا في معلوماته الاثرية ولاسيا الفصول الخاصة بالاحوال السياسية في بلاد كنعان (ومن ضمنها بلاد سورية) قبل وصول الاسرائيليين ، وبالحفريات الفلسطينية ،

فانها ظلت تقريباً على ما كانت عليه قبل الحرب الكبرى . فلم يذكر المؤلف اثرًا واحدًا من الآثار المكتشفة في سورية بعد ذلك . وكذا القول عن الآثار التي اكتشفها في ايامنا البحّاثون في الارض المقدّسة . ب . م .

Georges Le Fèvre : Un bourgeois au pays des Soviets. *in-16, Prix : 12 frs. Editions Jules Tallandier.*

في بلاد السوفييت

كتاب جديد عن روسية ، علّه يشبع نهم اوربة الحاضرة للاطلاع على ما يجري في بلاد السوفييت من الغرائب . وقد ساعد المؤلف في الاطـلاع على معلوماته الجمة معرفته اللغة ومداخلاته العديدة . على ان هذا لا يمنع غيره من تأليف كتب جديدة ايضاً في الموضوع قد تخالف آراءه كل المخالفة . ولكن مهما يكن من الامر فان شهادته تظلّ من الشهادات المعتبرة .

O. Merlier : Athènes moderne. [*Collection Le monde hellénique*] *in-16, illustré de 16 pl., 61 pp. 1930. Prix : 12 frs.*

اثينا العصرية

هي تجربة حسنة في تاريخ بلاد اليونان العصرية وطرق معيشتهـا ، سهلة الاسلوب ، وافرة الصور . قسمها المؤلف الى اربعة فصول : اثينة من سنة ١٨٠٦ الى سنة ١٨٣٤ ، ثم من ١٨٣٤ الى ايامنا ، ثم بعض ما شعر به الرحالة الفرنسويون لدى زيارتهم اثينة ، ثم اثينة العصرية .

R. de Beauvais : Louis Delaporte, explorateur 1842 - 1925. *in 8° illustré, 205 pp, Paris, F. Lanore.*

الرائد لويس دي لابورت (١٨٤٢–١٩٢٥)

كتبت حياة هذا الرائد الشجاع لافادة الشبيبة التي يجول في عروقها دم حارّ يدفعها الى الرحلات في سبيل الاكتشاف والاطلاع . وقد استعان المؤلف بما تركه الرائد المذكور ، وهو احد ضباط البحرية ، من مراسلات ومقـالات ورسوم . اما مجال ارتياده فكان الهند الصينية ، فعرّف العالم بغنّ تلك البلاد وبالكثير من صفاتها . هذا وان ظهور الكتاب موافق جدّ الموافقـة في عصرنا

وقد اخذ كثير من الناس يرمون بابصارهم الى البلاد الغربية الشاسعة.

J. Carcopino : Ostie. [*Les visites d'art, memoranda*] *in*-16 *illustré*, 64 *pp. Paris, H. Laurens*, 1929.

اوستية

نرى فائدة جليلة في ان يزور المطالع، برفقة المؤلف، مرفأ رومة القديم، حيث انزل الشاعر الكبير ڤرجيليوس انياس بطل انياذته. وذلك بالاستناد الى معلومات المؤلف الوافرة الشائقة، وايضاحاته الكاملة، وصوره الجميلة.

Maurice Pillet : Thèbes: Palais et nécropoles. *Collection « Les villes d'art célèbres ». Prix, broché* : 18 *f^rs^*. *Paris, Librairie H. Laurens*, 1930.

طيبة : قصورها ومدافنها

اشتهر المؤلف بما نشره سابقاً من الابحاث عن مواضع الآثار المصرية كطيبة والاقصر. فتابع ذلك في هذا المجلد عابراً النيل الى القصور والمدافن، واصفاً بدقة تمثالي ممنون الضخمين، والهياكل والقبور في وادي الملوك، مزيّناً كل ذلك بـ ١٢٢ صورة جميلة حية.

Institutiones Theologiae dogmaticae *auctore* **Ludovico Lercher** S. J. *vol. IV. De virtutibus, de Sacramentis in genere, de singulis Sacramentis, de Novissimis. Oeniponte*, 1930. *F. Rauch in*-8°, 763 *pp. Mark* 13.

مؤسسات اللاهوت النظري : المجلّد الرابع

يسرّنا ان نشير الى ظهور المجلد الرابع من «المؤسسات اللاهوتية» للاب لرخر وهو يتضمن البحث في الفضائل، والاسرار، والعواقب، فينتهي المؤلف اللاهوتي الذي اشرنا سابقاً الى مجلداته الثلاثة الاولى.

في ٧٣٩ صفحة يلمّ المؤلف بجميع اطراف موضوعه على طريقة جامعة بين الايجاز، والدقة، والوضوح. يجمع الى ذلك جدولاً واسعاً بكل ما ذكره من الموضوعات واسماء الاشخاص، في المجلدات الاربعة. ولما كان مطلعاً جدّ

الاطلاع على المسائل والمناظرات التي تمتّ الى الموضوع ، رأيناه يبسط تعليمه على شكل مطالب واضحة التحديد ، دقيقة التمييز ، ثم يعرض الموضوع بايجاز ، ويشير الى الآراء المختلفة ، ثم يبرهن عن مطلبه او نظريته ببراهين موجزة ولكنها مختارة ، واحياناً لا يتراجع لدى الشروح المستفيضة . وعليه فان هذا الكتاب المستفيد من تعليم دام سنوات عديدة على اسلوب مدرسي مقرّر ، لا يمكن ان يكون الا غاية في الافادة ليس فقط لطلاب اللاهوت الذين يصرفون جهدهم في التفتيش عن تعبير سهل موجز ، بل لجميع الكهنة ممن يرغبون في الاطلاع دائماً على الآراء الصحيحة ، ولمديري التعليم الديني في المدارس الاكليريكية .

ي . م .

H. Dieckmann S. J.: De revelatione christiana, *tractatus philosophico-historici. in-8°. XXII et 694 pp.* 1930. *Prix, broché : M. 20. Freiburg im Breisgau. Herder et Cie.*

الوحي المسيحي

عرف المؤلف ببحثه « في الكنيسة » المنشور سنة ١٩٢٥ . اما هذا المجلد فهو مجموعة الدروس التي القاها في مدرسة فالكنبورغ (Valkenburg) ، يشتمل على مقدّمة يبسط فيها المؤلف الاسباب التي حملته على الابتداء بنشر القسم الثاني « في الكنيسة » من تأليفه الشامل في اللاهوت ، وعلى قسمين يختص الاول بالوحي ، والثاني بيسوع المسيح وبعثته الالهية . اما طريقته فهي على ما عرفناه في كتابه الاول من الدقة والصراحة .

Ch. Ledré : Les émigrés russes en France, ce qu'ils sont, ce qu'ils font, ce qu'ils pensent. *in-16, 288 pp. Prix : 12 f^rs^. Paris. Editions Spes.*

المهاجرون الروس في فرنسة

بحث مملوء الاخلاص للحقيقة والاهتمام باولئك المهاجرين ، قام المؤلف من اجله بزيارات متتابعة الى جوالي الروسيين في فرنسة ، فشاهد عن قرب اوجاعهم وآلامهم ، ووقف على آمالهم ورغباتهم ، وراعه ان يرى هذا الشعب العظيم متشرداً في انحاء اوربة كما كان الشعب الفرنسوي منذ اكثر من مائة سنة .

وهو امر على التاريخ ان يهتمّ بذكره ، كما على المدنية والانسانية ان تخفّف من الم وقعه على اولئك المساكين . وهو ما تقوم به فرنسة اليوم ، او ما تجتهد ان تقوم به . ج. ل.

A. Puech: Histoire de la Littérature grecque chrétienne. t. III. Le IVᵉ siècle. 8°, 693 *pp.* 1930 *Paris, Société d'éditions « Les Belles-Lettres ».*

تاريخ الآداب اليونانية المسيحية : المجلّد الثالث

هذا المجلد الاخير من تاريخ الآداب اليونانية المسيحية التي تكلم عنها المشرق ، حين ظهور المجلدين السابقين (٢٧ [١٩٢٩] : ١٤٩) . وان ما ذكرناه هناك من المحاسن ينطبق على هذا المجلد ايضاً ، وهو يتضمن الآثار الظاهرة في القرن الرابع ، وهو عصر لمع فيه المؤلفون السوريون والفلسطينيون في كنائس مصر وآسية الصغرى . وبعد ذلك تطوّرت الآداب فاصطبغت بالصبغة البيزنطية . على ان هاتين الصفتين كلتيهما تروقان رجال الاكليروس في بلادنا .

H. de Golen: Le drame d'une mission secrète. *in*-16. *Prix*: 12 *f*ʳ. *Paris, Editions G. Crès et Cᶦᵉ.*

مأساة بعثة سرّية

كتاب كان يمكن مؤلف ان يجعله من التاريخ ، الّا انه لم يشأ وضعه الا في محيط الاسطورة . وملخّصه ان احد الضبّاط يسافر في بعثة سرّية الى روسية فيلقى من العقبات الشيء الكثير حتى اذا رجع الى فرنسة ، رأى منزله مهدّماً . فيتشيء من ذلك رواية لا يحسن بالجميع مطالعتها .

Entretiens de Juilly : II, Méthodes d'éducation. *in*-12, 347 *pp.* 1930, *Paris, de Gigord.*

محادثات جويلي : ٢ ' طرق التهذيب

عرف قرّاء المشرق (٢٧ [١٩٢٩] : ٨٧٣) المجلد الاول من هذه المحادثات . وهذا المجلد الثاني يتضمن المحاضرات التي أُلقيت سنة ١٩٢٨ ، وعددها ثماني تدور كلها حول مسألة التهذيب واسلوبه ، وعناوينها : اول تهذيب

عقلي ، التثقيف العائلي ، تهذيب الخلق ، التعليم الديني ، الكشافة ، المدرسة الموحدة ، التثقيف الصناعي ، التنشئة الوطنية . وفي كل ذلك يهتم المؤلفون بالمبدأ الدائم الثابت وبالتطبيق العملي الذي من شأنه ان يجاري العصر في مقتضياته .

Mgr G. Stété : Un Grand Patriarche, S. B. Mgr Ignace Ephrem II Rahmani, Patriarche Syrien d'Antioche. *in*-12, 80 *pp. Imp. syrienne, Beyrouth,* 1929.

ترجمة البطريرك اغناطيوس افرام الثاني الرحماني

خصّ المونسنيور جرجس ستيته ، رئيس مدرسة الشرفة البطريركية ، هذا الكتيب بذاك البطريرك العظيم الذي فقدته الطائفة السريانية خاصة والكثلكة الشرقية عامة في منتصف العام الماضي . فذكر ترجمة حياته ، ولخص اعماله المتعدّدة وآثاره النفيسة في سبيل الدّين والعلم . ثم اردف ببعض التآبين التي القيت في القاهرة والاسكندرية وبيروت ، وبنتف من مقالات الجرائد . رحم الله الحبر الراحل عداد حسناته ، وعوّض على الطائفة العزيزة ببطريركها الجديد الغيور .

كتاب اذكار الحقوق والرهون

لاحمد الطحاوي — نشره واعتنى بتصحيحه يوسف شخت

هيدلبرغ ، ١٩٢٧ ، VIII + ٤٢ صفحة متوسطة

لقد اشتهر السيد يوسف شَخت ، الاستاذ في جامعة فريبورغ (المانية) بدروسه السابقة على « المخارج والحيل » في الحقوق الاسلامية ، وهو يطبع اليوم نصاً لم يسبق نشره لابي جعفر احمد بن محمد الطحاوي من مشاهير فقهاء المسلمين ، في « اذكار الحقوق والرهون من الجامع الكبير في الشروط » . وسيعود الناشر الى درس الآثار الفقهية في « الشروط » درساً مطوّلا ستكون له اهميته دون شكّ . هذا وفي الكتاب غلطة مطبعية تكرّرت كثيرا وهي « السناة » وصوابها « المسناة » .

ه . ل .

اشهر ملكات التاريخ

بقلم الكاتبة الانكليزية ليديا هويت فارمر — تعريب ادارة الهلال
مطبعة الهلال ١٩٣٠ — ١٧٦ ص متوسطة

هو الكتاب الثاني الذي اهدته مجلة الهلال الى مشتركيها سنة ١٩٣٠ ، يتضمن سير اشهر الملكات اللاتي عرفهنَّ التاريخ منذ الفي سنة قبل المسيح حتى عصرنا ، من سميراميس ملكة اشور ، الى تروهي امبراطورة الصين . وذلك باسلوب تاريخي صحيح على الغالب. ه. ل.

هل تتساوى المرأة بالرجل في جميع الحقوق والواجبات

للدكتور فخري

مطبعة الهال ومكتبتها ، مصر ، ١٩٣٠ — ٢٨ صفحة كبيرة

هي المحاضرة التي القاها في ١٤ شباط القائت الدكتور فخري فرج ، في قاعة المحاضرات بالجامعة الاميركية في مصر فاثارت سخط رجال الدين الاسلامي ، واتهموه بالتطاول العلني على الدين ، فتقرر ان تعرض قضيته على محكمة جنايات مصر ، ولم نعلم نتيجة ذلك . اما موضوعات المحاضرة فتدور حول العنوان يلخص فيها الخطيب نقطة الخلاف على المسألة ، وكيفية نشأة الثورة النسوية للمطالبة بالمساواة التامة ، وهل تتفق هذه المساواة وواجبات المرأة العديدة ، ثم يتطرق الى القول « باستحالة مساواة المرأة بالرجل في جميع الحقوق والواجبات » ف. ا. ب

الرحلة الدانتيَّة في الممالك الالهيَّة : ١ً الجحيم

٣٠٦ صفحات متوسطة — طرابلس الغرب ، ١٩٣٠

هو الجزء الاول من تعريب الالعوبة الالهية « لاديفينا كوميديا » للشاعر الايطالي دانتي اليغيري ، بقلم الكوالير الاستاذ عبود بك ابي راشد ، اللبناني الاصل . وقد حصر هذا الجزء بتعريب القسم الاول من الملحمة المعروف « بالجحيم » ، على ان ينشر قريباً الجزءين الثاني والثالث بعنواني « المطهر » و « النعيم » . اما الاسلوب فرائق سهل صحيح على الغالب ، وعليه من الحواشي والشروح ما يكفي لتفسير الغامض والاشارة الى التلميحات التاريخية ، وان

تكن بالاجمال قليلة . اما المقدمة فوددنا لو كانت اطول من ذلك . فعسى ان يهتمّ المعرّب في الجزءين التالين بدرس شخصية دانتي الادبية درساً وافياً . وعلى كل فاننا نثني على همته ، ونتمنى لكتابه الرواج الذي يستحقه. ف. ا. ب

رواية باريزت

تأليف لوي فياد — تعريب توفيق عبد الله

المطبعة المصرية — ٣٩١ ص . متوسطة

هي رواية شائقة حسنة التنسيق ، وافرة التأثير ، الفها لوي فويّاد الكاتب الفرنسوي ، واخرجت الى السينما اخراجاً احدث عليها الاقبال . فعرّبها الاستاذ توفيق عبدالله ، ونشرتها ادارة المطبعة العصرية ، مزيّنة اياها بعدّة مشاهد ، مأخوذة من الفلم المذكور.

شرح خدمة القدّاس الالهي

عني بجمعه وطبعه الخوري جبرائيل مصوبع

مطبعة القديس بولس ، حريصا — ٢٨٣ ص صغيرة

أهدي الينا كتاب « شرح خدمة القداس الالهي لابينا الجليل في القديسين يوحنا فم الذهب » تأليف الخوري جبرائيل مصوبع الراهب الباسيلي المخلصي . فتمشنا خيرًا عند مطالعته لما حواهُ من الفوائد الروحية لجميع المؤمنين الذين يحضرون طقوس ذبيحة القداس الالهي . ومع الامل أن المؤلف يتابع سلسلة مؤلفات كهذه تفيد المؤمنين روحياً وتُعرّف الى كثيرين جمال الطقوس الشرقية فتكسب الرهبنات شرفاً وفضلاً ، ندعو له بالتوفيق ونشكرهُ على هديته . م. م.

الخضروات في مصر

تأليف مصطفى سرور ، محمد بيومي علي ، محمد عبد البديع

مطبعة المقتطف والمقطم ١٣٤٨—١٩٣٠ ، ص ٤٤١ ، ق ٨ ، ثمنه ٣٠ ق . م.

هذا كتاب ضخم موضوعه المواد الزراعية ، لفت فيه المؤلفون نظر القراء الى اتساع نطاق زراعة الخضروات في ايام الحرب الكونية ومن بعدها الى يومنا . لما اغلقت الطرق الدولية ايام الحرب أُلجئ القطر المصري الى تحصيل مواد معاشه ، ومعاش الجيوش الجرارة التي اجتازته او اقامت فيه ، واشعر

اولياء الامر بمسيس الحاجة الى الخضروات ، وفطن الفلاح الى الارباح التي تعود عليه منها ، فشمّر عن ساعد الجدّ وعني بها فنجح . واخذ القطر المصري من ثمّ ينتج الخضروات بكثرة ، واكل سكانه منها وحملوا منها الكميات الوافرة على المراكب المديدة المسافرة الى اقاصي البحار . وان بين الاقليم المجاور للبحر المتوسط والاقليم الحارّ في اسيوط واصوان كثيرًا من مختلف الاهواء المساعدة على انتاج الخضروات المفيدة بخصب وكثرة قليل وجودهما في غير ذلك من الاقطار .

افتح هذا المجلد ايها القارئ اللبيب ، فانك ستمتع نظرك فيه ليس فقط بالصور العديدة المتقنة الصنع ، ولكن بالاطلاع على كل ما يهم زراعة الحقول والبساتين ، كما هي معهودة في ارقى بلاد الله زراعةً وخلاصةً .

بحث اصحاب الكتاب بطبيعة الاقليم والتربة ، وبكيفية تهيئة تلك التربة والعناية بها ، طبقًا لمزاج النبات العتيد ان يحلّ فيها . وتكلموا عن انتخاب البذار وعن الاغراس ونقلها ، ومن بعد ذلك عن التعشيب والفلاحة الثانية والريّ ، ومكافحة الحشرات والامراض النباتية وغير ذلك من الآفات المضرة بالزراعة ... اقرأ هذا الكتاب فتجد فيه التعليمات المذكورة ، ولن تلبث ان تصير مزارعًا فهيمًا خبيرًا . ان للعناية بالنبات وبزراعة الارض اصولاً وقواعد كما لسائر الفنون ، وضلّ من رأى ان زرع البذار ببطن الارض كافٍ لانتاج الغلة بالكمية المناسبة لجهود الفلاح . ما اكثر النبات الآتي عفوًا بزهره وثمره ! ولكن ما اقلّ ما يجره من المرابح !

قد علمت الخبرة ان كثرة الغلة وعلى الخصوص جودتها لا تتوفر الا اذا وفّيت فيها حقوق التربة والري والسماد ، والبذار والاغراس والمشاتل الخ ... وهناك امر العناية بواجب تبديل انواع البذار ، واختيار وقته في فصله ، مع وضعه في عمق يختلف مع اختلاف الاحوال الخ . وما اكثر ما يجب ان يطلع عليه الفلاح من التعليمات ليبلغ النجاح في مسعاه . طالع هذا الكتاب وادرسه ، فانك لتجدن فيه التعليمات المذكورة وغيرها فتنجح في زراعة بستانك البيتي ، وفي مشاريعك الزراعية الكبرى.

الاب اسكندر طوران اليسوعي

اهم حوادث الشرق في شهر

١٥ حزيران — ١٥ تموز

سورية ولبنان

اقامت الكنيسة الكلدانية في الشرق لبطريركها الجليل السيد يوسف عمانوئيل الثاني توما حفلات اليوبيل الكهنوتي الذهبي والبطريركي الثلاثيني. ولغبطته مقام رفيع لدى الحكومة العراقية، فانها نظرت اليه نظرها الى ممثل المسيحيين اجمعين في بلادها وعينته عضواً في مجلس الشيوخ العراقي ونائباً لرئيسه. وقد تعقد الآمال العظيمة على نجاح مساعي صاحب اليوبيل بضم شتات الامة الكلدانية النسطورية الكريمة حول الكرسي الرسولي في عصرنا هذا، والناطرة ينبعثون الى حياة قومية جديدة بعد ما حلّ بهم من نكبات الحرب بتبدد شملهم وتضعضع اركان السلطة الدينية بينهم.

* رفعت حكومة الانتداب عن سورية ولبنان تقريرها الى لجنة الانتدابات في جنيف، ومن اهم بنوده الكلام عن موقف الاحزاب في دمشق تجاه الدستور. فان المتطرفين بينهم ينبذون التحفظات المفروضة بواجب الانتداب. اما المعتدلون فيعترفون بضرورة العمل بالاتفاق مع فرنسة. وهم يدعون الناس الى موافقتهم في آرائهم ولهم فروع منظمة في المدن الكبرى.

مصر

كان لحوادث المنصورة ولفتنة الاسكندرية الدموية صدى اسف في البلاد السورية اللبنانية لما بين القطرين من العلاقات الاقتصادية والادبية؛ والعقلاء لا يحجمون عن تقبيح وسائل العنف والطياشة التي ادت الى احتدام نيران الحرب الاهلية في بلاد لو شاء سكانها لجعلوها من اسعد بلاد الله غنىً ونجاحاً ورفاهية. ان فقيد الوفد الكبير، سعد زغلول باشا، بعد ان علمه الزمان كان قد

خفض كثيراً من مطالبه تجاه الحكومة البريطانية وعرف ان يميز بين الممكن والمحال ، فراعى حقوق الملك والامة وتوفق الى القيام بمهمته بهيبة وكرامة عادتا عليه بالذكر المجيد وعلى الامة المصرية بايام سلم ونجاح قلما شهدتها منذ عصر محمد علي . فاحرِ بخلفاء سعد ان يتعلموا عنه الخبرة والتروي والتدبير في سبيل مصلحة البلاد الحقيقية .

العراق

اصدرت الحكومة العراقية بلاغاً عرضت فيه اهم بنود المعاهدة الجديدة المبرمة بينها وبين بريطانية العظمى ، وخلاصتها ان العراق مقيد تجاه انكلترة باقل ما يمكن من القيود العسكرية والسياسية ، ولا ذكر في تلك المعاهدة للفظة انتداب . وبعد ? فهل تسير البلاد سيراً حثيثاً في سبيل العمران فتستغل اراضيها وتستنبط معادنها وتحيي في مجاهلها آثار الدول القديمة التي نصبت اعلامها على مجاري دجلة والفرات وجعلتها من ارقى بلاد العالم ? ان الرقي المادي والاقتصادي المؤسسة عليه حياة الامة الادبية لا يتمّ فوراً وعن غير تدريب . ذلك ما دعا جمعية الامم الى العهد ببلاد العراق الى دولة قديرة ان تسير بها في معارج التقدم والفلاح ، كما سارت بمصر .

ولا يسعنا في هذا المقام الا سرد ما يبلغنا عن لسان القادمين الينا من العراق المقابلين بين ما تمّ عندنا من المشاريع التي بعثت فينا حياة جديدة وبين البلاد اللاهية عن اساس الحياة القومية بالسياسة السطحية العقيمة ! ولا مناص لنا من التألم لتلك الحالة لانها تؤثر فينا . ومعروف ان الرخاء اذا ما ضرب اطنابه عند جيراننا ، فلن يلبث ان يمتدّ ظله الى اراضينا . وما اشد توقعنا للنهضة العراقية التي تفتح الينا مجاري النفط والبترول فتقلب سحنة البلاد الشرقية وتستردّ لاقطارنا حركتها التاريخية ؛ وان هذه النهضة لن يذرّ قرنها الا عن ثقة متبادلة بين الدولة البريطانية والعراق . وهذه الثقة ليست ربيبة يوم واحد . ونموها معقود باتفاق الآراء والتساهل البصير والسعي في سبيل انتاج ثروة البلاد وتحقيق آمالها .

ف . ت .